إدوموندو دي آميشيس
EDMONDO DE AMICIS

قَلْبٌ

CUORE

مكتبة ٥٧٦
مكتبة الطفل

رواية

ترجمها عن الإيطالية:
نبيل رضا المهايني

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

قَلْبٌ

CUORE

مكتبة | 576

مكتبة الطفل

t.me/book4kid

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يتضمن هذا الكتاب ترجمة عن أصل الأرشيف الإيطالي
Cuore
أصدرتها Treves عام 1886م.

Copyright © 1886 by Edmondo De Amicis
All rights reserved
Arabic Copyright © 2014 by Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

الطبعة الأولى
2015 م - 1436 هـ

ردمك 978-614-01-1371-8

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

تصميم الغلاف: **سامح خلف**

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي **الدار العربية للعلوم ناشرون** ش.م.ل

مكتبة | 576

قلب

CUORE

كتاب الجميع، كتاب الصغار للكبار،

رسالة الأبناء لوالديهم، والوالدين لأبنائهم

إدموندو دي آميشيس

Edmondo De Amicis

ترجمها عن الإيطالية:

نبيل رضا المهايني

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

الإهداء

إلى أولئك الذين اختلستُ منهم وقتا أمضيتُه في القيام بهذا العمل وفي غيره من أعمال كثيرة سابقة، وسأمضيه في تلك اللاحقة،

غيّبتني فعلتي الشنيعة - البديعة عنهم،

غبنتُهم حقَّهم وغبنتُ نفسي حقَّها في أن نعيش معاً،

ونتمتع معاً بنعمة ثمينة هي نعمة الوقت في صحة وعافية،

إلى أولئك الذين أحببتُهم في سرّي، ولم أُظهر لهم علانية كثيراً من ذلك الحبّ إلا ما ظنّوه ظنّاً، وهم يشعرون ببعض دفء تجلّياته في حياتهم،

إلى أولئك الذين غمضتُهم حقَّهم وأنا أمنحهم إيّاه، ومنحتُهم إيّاه وأنا أسلبهم إياه،

إليهم جميعا أهدي في سلّة واحدة جهدَ هذا العمل، وما سبقه، وما سيأتي بعده من أعمال لم أقصد بها والله إلاّ أن تكون كاملة وصحيحة وسليمة وقويمة، وفي هذا مرضاة الله الذي هو من وراء كل قصد. فعسى ألا أكون قد ضللت أو أخطأت.

إليهم: زوجتي الغالية وأولادي، أحبائي، الشهود على عثرات دربي، رفاقي.

نبيل

مقدمة المترجم[1]

هــذه روايــة للصغــار لن يتركها الكبار إلاّ بعــد أن يأتوا على آخرها، وكثيرا مــا يعيــدون قراءتهــا. لا عجــب إذا فــي أنّها لا تــزال الرواية الكلاسـيكية الأكثر قراءة في إيطاليا، وأنّها ترجمت إلى العديد من اللغات؛ فانتشرت في كل أنحاء العالم، وتحوّلت إلى أفلام سـينمائية عديدة ومسلسـلات تلفزيونية جابت العالم في الشرق والغرب، من الشرق الأقصى إلى أميركا اللاتينية بل وإيران.

كُتبت الرواية على شكل مذكّرات عن أيّام سنةٍ دراسية في إحدى مدارس مدينة تورينو شمال إيطاليا، يرويها أنريكو بوتّيني - طالب في الصف الثالث الابتدائي، وفي التاسعة من عمره - ليبرز أحداث الحياة المدرسية التي يعيشها هو وزملاؤه، وكذلك تفاعلات هذه الأحداث مع حيواتهم العائلية والاجتماعية والوطنية. نجد في الرواية أيضا وصفا مُحزنا ومشـوّقا لمآسـي الحياة في المستشـفيات والسجون ومعاهد المكفوفين والصمّ البكم ومدارس الحضانة وغيرها، حيث يقترن تصوير الحقائق المريرة بوصف تطلّعات هؤلاء الأشقياء نحو آفاق تخرجهم من ظلمات واقعهم. تتخلّل المذكّرات قصص أخرى حرص أستاذ الصبيّ على تكليف تلاميذه بكتابتها وإلقائها كلّ شهر، وهي في أغلبها ذات طابع ملحميّ اجتماعيّ ووطنيّ، وتصـوّر حلـم الدولـة المثاليّـة والمجتمع المثالـيّ والمواطن المثالـيّ، وذلك في المرحلة التي انضوت فيها إيطاليا تحت لواء دولة موحّدة حديثة.

مؤلّف الرواية هو إدوموندو دي آميشيس (1846-1908). وهو كاتب إيطاليّ كان روائيّا وصحافيّا وكاتب قصّة وشاعرا. وقد أكّد النقّاد أنّ رواية "قلب" كانت من أشهر أعماله، ويقال إنّه استلهمها من ابنيه فوريو وأوغو عندما كانا تلميذي مدرسة. نشرت الرواية في اليوم الأوّل من افتتاح المدارس في إيطاليا عام 1886، فاشتهرت في الحال ونالت نجاحا فائقا.

---

(1) مقتبسة بتصرّف عن الكثير من مواقع الإنترنت.

إدوموندو دي آميشيس

مقدّمة المؤلف

يتوجّه هذا الكتاب بصورة خاصة إلى طلاب المدارس الابتدائية، من الذين تتراوح أعمارهم بين التاسعة والثالثة عشرة، ويمكن أن يكون عنوانه "حكاية عام دراسي كتبها طالبُ صفّ ثالث في مدرسةٍ رسمية إيطالية". قلتُ إنّ كاتبها هو طالب صفّ ثالث، لكنّي لا أعني أنّه كتبها بنفسه لتُطبع كما كتبها. فالفتى كان يدوّن على الدفتر - وعلى قدر معرفته - ما كان يراه ويسمعه ويشعر به أو يفكر فيه في المدرسة وخارجها. ثم جاء أبوه في آخر السنة، فكتب هذه الصفحات على تلك المذكّرات ساعيا ألاّ يغيّر أفكارَ ابنه، بل وأن يحافظ على كلماته ما وسعه ذلك. بعد أربع سنوات، أصبح الابن في المرحلة الإعدادية فانكبّ على قراءة المخطوطة، وأضاف إليها شيئا من عنده على ضوء ذكرياته عن الأشخاص والأشياء، وهي لا تزال حية في مخيّلته. والآن، اقرأوا هذا الكتاب أيّها الفتية، وأرجو أن تكونوا مسرورين خلال قراءته، بل وأن تحصّلوا منه كلّ الفائدة.

إدوموندو دي آميشيس

اليوم الدراسـي الأوّل

الاثنين، 17

اليوم هو أول العام الدراسـي. مرّت أشـهرُ العطلة الثلاثة التي قضيناها في الريـف مـرور الأحـلام! أخذتني أمّي هذا الصباح إلى مدرسـة باريتّي لتسـجّلني في الصف الثالث، لكنّ أفكاري بقيت متّعلقة بالريف، ولم أذهب إلى المدرسة إلاّ مرغما. كانت كلّ الطرق تغلي بالطلبة، واحتشد الآباء والأمهات في محلّين لبيع الكتب ليشتروا الحقائب المدرسية والمجلدات والدفاتر، كما تزاحم أناس كثيـرون أمـام بـاب المدرسـة؛ حتـى إنّ الآذِن والشـرطيّ المدني لـم يتمكنا من إبعادهم عن الباب. كنت قرب الباب عندما شعرت بمن يربت على كتفي؛ كان أسـتاذي فـي الصـف الثاني، بشـعره الأحمر الأجعد. وكان مرحـا كالعادة، وقال لي: "لقد انفصلنا كليّا إذا يا أنريكو؟". ومع أنّي كنت أعلم هذا علم اليقين، إلاّ أن كلماته آلمتني بالفعل. دخلنا بصعوبة؛ سيدات وسادة ونساء بسيطات وعمال وضبـاط وأجـداد وخادمـات. كانوا كلهم يقودون الأولاد بيدِ ويمسـكون بأوراق

النجاح باليد الأخرى محتشدين عند المدخل وعلى الدرج، ومحدثين صخبا يشبه صخب جمهور عند باب المسرح. لقد سرّني أن أرى ثانية تلك الصالة الأرضيّة الكبيرة بأبوابها السبعة التي تؤدي إلى بعض صفوف المدرسة. كنت أعبر هذه الأبواب كلّ يوم تقريبا خلال السنوات الثلاث الماضية. كانت بين الحشد معلّمات يجرين جيئة وذهابا. حيّتني معلّمتي التي درّستني في الصف الأول المتقدّم وقالت لي: "صفّك يا أنريكو في الطابق العلوي. لن أراك هذه السنة، ولن نلتقي ولا حتّى في الممرّ". ثم رمقتني بنظرة حزينة. أمّا المدير فكانت تحيط به نسوة قلقات لأنه لم يبق مكانٌ لأولادهنّ في المدرسة. وبدا لي أن لحيتهُ أصبحت أشدّ بياضا مما كانت عليه في العام المنصرم. كما وجدت أن بعض الفتية قد كبروا وسمنوا. في الطابق السفلي كان يجري توزيع الطلبة، ورأيت أطفالا من صف الحضانة الأول يمتنعون عن دخول صفوفهم، ويحرنون مثل الحمير؛ حتى توجّب إدخالهم بالقوة، بينما كان آخرون يهربون من وراء المقاعد، ثم يبكي بعضهم لدى رؤية ذويهم وهم يغادرون الصف؛ مما يضطر هؤلاء للعودة كي يواسوهم، بل وأن يعيدوهم معهم إلى البيت وسط يأس المعلمات. وُضع أخي الصغير في صفّ المعلمة ديلكاتي، وأنا عند المعلم بيربوني فوق في الطابق الأول. عند العاشرة، كنّا جميعا في الصف؛ أربعة وخمسون طالبا، ليس منهم إلا حوالى خمسة أو ستة عشر من زملاء الصفّ الثاني. وكان بينهم ديروسّي الذي يحصل دائما على الجائزة الأولى. بدت لي المدرسة صغيرة وحزينة عندما فكّرت بالأحراج والجبال حيث قضيت الصيف. فكّرت أيضا بمعلّم الصفّ الثاني، كان رائعا بالفعل؛ فقد كان يضاحكنا دائما، وكان يبدو صغيرا مثل واحد من زملائنا. لقد ساءني ألاّ أراه ثانية هناك بشعره الأحمر الأجعد. أمّا أستاذنا اليوم فهو طويل القامة، غير ملتحٍ، شعره رمادي طويل وهناك شطبة مستقيمة على جبينه، وصوته جهوري. كان ينظر إلينا جميعا نظرة ثابتة؛ الواحد تلو الآخر، كما لو أنه يقرأ ما في داخل كل منا، كما أنّه لا يضحك البتة. كنت أقول في سرّي: "هذا أولّ يوم. وما زالت أمامنا تسعة أشهر. كم فيها من الأعمال، وكم من الفحوص كلّ شهر، وكم من التعب!". وهنا

شـعرت بحاجة فعليّة لأن أجد أميّ عند الباب. وعندما وجدتها ركضت نحوها وقبّلـت يدهـا. قالت لي: "تشـجع يا أنريكو! سـندرس معـا". وهكذا، عدت إلى البيت مسرورا. لكني فقدت أستاذي وابتسامته الطيبة المرحة، فلم تعد المدرسة تبدو لي جميلة كما كانت في الماضي.

أستاذنا

الثلاثاء 18

شعرت هذا الصباح أنّ أستاذنا الجديد أصبح يعجبني. بدأ الطلبة يدخلون، وبينما كان يجلس في مكانه كان بعض تلاميذه من العام السابق يطلّون من حينٍ لآخر عندما يمرون قرب الباب ليسلّموا عليه. "صباح الخير أيها الأستاذ". "صباح الخير يا سيد بيربوني". بل إنّ بعضهم كان يدخل ويلمس يده ثمّ يخرج بسرعة. كان من الواضح أنّهم كانوا يحبّونه، وأنّهم يرغبون بالعودة إلى صفّه. وكان يجيب: "صباح الخيرات". ثم يشدّ على الأيدي التي كانت تمتدّ إليه. كان جادًا عند كلّ تحيّة، لكنه لم يكن ينظر إلى أيّ منهم، بل كان يلتفت بجبينه المقطّب نحو النافذة، وينظر إلى سقف البيت المقابل. كان يبدو أنه يعاني من تلك التحيّات عوضا عن أن يُسرَّ بها. ثم إنّه كان ينظر إلينا بعناية وانتباه، الواحد بعد الآخر. ترجّل عن المنصّة وذهب يتجول بين المقاعد وهو يُملي الدرس علينا. لكنه ما إن رأى تلميذا محمرًّ الوجه من كثرة البثور حتى توقّف عن إلقاء الدرس، وأخذ وجهه بين يديه ونظر إليه مليّا، ثم وضع يده على جبينه ليرى إن كانت حرارته مرتفعة. في تلك الأثناء، وقف تلميذ آخر وراءه على المقعد وبدأ يمثّل ويقلّد حركات الدمى. وعندما التفت الأستاذ بحركة مفاجئة نحوه، عاد التلميذ فجلس بسرعة، وحنى رأسه بانتظار العقاب. لكنّ الأستاذ وضع يده على رأسه وقال له: "لا تفعل ذلك ثانية". ولا شيء غير ذلك. بل عاد إلى المنصة لينهي الدرس. وعندما أنهاه، نظر إلينا بصمت نظرة قصيرة، ثم قال ببطء شديد وبصوت محبّب: "اسمعوا، أمامنا عام بأكمله لنمضيه معا، فلنمضِه بخير. ادرسوا وكونوا صالحين. أنا ليست لدي عائلة، لذلك أنتم عائلتي. كانت لدي أمّ حتى العام الماضي، لكنها ماتت، وبقيت وحدي. ليس لي الآن إلاّ أنتم في هذا

العالـم، ولا أحـبّ أحـدا إلاّ أنتـم، ولا أفكّر إلاّ بكم. عليكم أن تكونوا أولادي. إنيّ أحبّكم، وعليكم أن تحبّوني. لا أودّ أن أضطرّ لمعاقبة أحد. برهنوا لي على سعة قلوبكم، وستكون مدرستنا مثل عائلة كبيرة، إنّكم عزائي وعِزّتي. لا أطلب منكم أن تغدقوا عليّ الوعود، لأنيّ على ثقة بأنّكم قلتم "نعم" في قلوبكم. وإني أشكركم على هذا". في تلك اللحظة، دخل الآذن ليعلن انتهاء الحصّة، فخرجنا جميعنا وقد أطبق الصمت علينا. أما التلميذ الذي وقف على المقعد فقد اقترب من الأستاذ وقال له بصوت مرتجف: "سامحني أيها السيد الأستاذ". فما كان من الأستاذ إلا أن قبّل جبينه قائلا: "اذهب يا بني".

مصيبة

الجمعة، 21

بدأت السنة الدراسية بمصيبة. أثناء ذهابي إلى المدرسة هذا الصباح، كنت أكرّر على مسمعَي أبي كلمات الأستاذ عندما رأينا الناس محتشدين على الطريق، حتى إنهّم سدّوا مدخل المدرسة. قال أبي في الحال: "إنها مصيبة! لقد بدأت السنة بطريقة سيئة!". دخلنا بصعوبة. كانت الصالة الكبيرة مليئة بالأقارب وأولادٍ لم يتمكن المعلمون من جرِّهم إلى الصفوف، وكانوا جميعهم ينظرون نحو غرفة المدير، وكان يُسمع من يقول: "يا للفتى المسكين! روبيتّي المسكين!". أما في صدر الغرفة المليئة بالناس فكانت تُرى خوذةُ الشرطيّ المدني إلى جانب رأس المدير الأصلع، دخل بعدها سيّدٌ يعتمر قبعة عالية، فقال الجميع: "إنّه الطبيب". سأل أبي واحدا من الأساتذة: "ماذا حدث؟". فأجابه: "دهس دولابٌ قدمه". وقال آخر: "كسر قدمه". كان تلميذا في الصف الثاني، وكان يسير في شارع دورا غروسّا في طريقه إلى المدرسة عندما رأى طفلا من صف الحضانة الأولى يفلت من أمه ثم يقع في نصف الطريق على مقربة من حافلة كانت على وشك الانقضاض عليه، فجرى نحوه بهمّةٍ كبيرة، ثم أمسك به وأنقذه، لكنه لم يتمكن من سحب قدمه بالسرعة اللازمة فدهسها دولاب الحافلة. كان ابنا لقائدٍ في المدفعية. كانوا يروون هذا عندما رأينا سيدةً تهجم بين الحشد مثل المجانين، كانت أمّ روبيتّي قد جاءت بعد أن استدعوها، فذهبت سيّدة أخرى لتستقبلها وأحاطت عنقها بذراعها وهي تنتحب؛ كانت أمّ الطفل الذي تمّ إنقاذه. اقتحمت السيدتان الغرفة، وسمعنا صرخة يائسة: "جوليو يا حبيبي! يا طفلي الغالي!". في تلك اللحظة، توقّفت عربة أمام الباب، وظهر بعدها بقليل المديرُ وهو يحمل الولد بين ذراعيه ورأس هذا الأخير مسنود إلى كتفه، كان الفتى ممتقع الوجه

ومطبق الأجفان. خيّم الصمت على الجميع، ولم يُسمع إلاّ نحيب الأمّ. توقّف المدير لحظة، شاحب الوجه، ثم رفع كلتا ذراعيه ليعرض الولد على الناس. فما كان من المعلّمين والمعلّمات والأقرباء والأولاد إلاّ أن غمغموا بصوت واحد: "أحسنت يا روبيتّي!". "أحسنت. يا للطفل المسكين!". ثم أرسلوا له القبل. أما المعلّمات والأولاد القريبون منه فقد قبّلوا يديه وذراعيه. هنا فتح الولد عينيه وتمتم قائلا: "حقيبتي!". فما كان من أمّ الصغير الذي تمّ إنقاذه إلا أن عرضت عليه الحقيبة قائلة وهي تبكي: "ها هي، إنها معي يا حبيبي، ها هي!". هذا بينما كانت تسند أمّ الجريح التي كانت تغطّي وجهها بيديها. ثم خرجوا ووضعوا الفتى في العربة، فانطلقت العربة. عندها، عاد الجميع إلى المدرسة في صمتٍ مطبق.

فتى من كالابريا[1]

السبت، 22

بينما كان الأستاذ يخبرنا مساء البارحة أن روبيتّي المسكين سيضطرّ للمشي على عكّازين، دخل المدير بصحبة تلميذ جديد؛ فتى شديد السمرة، أسود الشعر، عيناه كبيرتان وسوداوان، وشعر حاجبيه كثيف ومجموعٌ على جبينه، يرتدي ملابس غامقة اللون، ويلفّ على خصره حزاما عليه صورة مغربيٍّ أسود. همس المدير بضع كلمات في أذن الأستاذ، ثمّ خرج تاركا الفتى قربه، وكان هذا الأخير ينظر إلينا بعينيه الواسعتين وكأنّه خائف. لذلك أخذ الأستاذ بيده وقال أمام التلاميذ: "يجب أن تكونوا سعداء اليوم. لقد جاء إلى المدرسة إيطاليٌّ صغير وُلِدَ في ريدجو كالابريا[2]، على مسافة خمسمائة ميل من هذا المكان. أحبّوا أخاكم هذا القادم من بعيد. لقد ولد في أرضٍ مجيدة قدّمت لإيطاليا رجالا عظماء، وما زالت تعطيها عمالا أقوياء أشداء وجنودا شجعانا. نعم، لقد ولد في بقعة من أجمل أراضي وطننا، فيها قلاع كبيرة وجبال عظيمة، ويسكنها شعب عظيم الشأن، وشديد الشجاعة. أحِبّوه حبّا لا يشعر معه أنه بعيد عن المكان الذي ولد فيه، أروه أن التلميذ الإيطالي يجد إخوة له في أيّ مدرسة إيطاليّة يضع فيها قدمه". قال هذا ثم ذهب نحو خريطة إيطاليا الجدارية ليبيّن لنا موقع ريدجو كالابريا. ثم نادى بصوت عال: "ارنستو ديروسيّ!". الحائز دوما على الدرجة الأولى. وحين نهض ديروسيّ، قال له الأستاذ: "تعال". خرج ديروسيّ من مقعده، وتوجه نحو طاولة الأستاذ، ووقف تجاه الكالابريّ. قال له الأستاذ: "أنت الأولّ على المدرسة. عانق يا بنيّ هذا الزميل الجديد، ورحّب به باسم كلّ

(1) كالابريا Calabria منطقة في جنوب إيطاليا.

(2) مركز أو عاصمة كالابريا.

الصفّ؛ عانقه عناق أبناء منطقة البيمونت الشماليّة لابن كالابريا الجنوبيّة". عانَقَ ديروسـي الكالابـريَ قائـلا بصوته الطلق: "مرحبـا بك!". قبّل هذا وجنتيه بحرارة فصفّق الجميع. صاح الأستاذ: "سكوت! لا يمكن التصفيق في المدرسة!". لكن سـروره كان شـديد الوضوح. كان الكالابريّ مسـرورا أيضا. عيّن الأسـتاذ لهذا مقعدا ثمّ رافقه نحو مقعده. ثمّ قال مرة أخرى: "تذكّروا كل ما أقوله لكم؛ كي يصبح هذا الحدث أمرا واقعا، وكي يتمكن فتى من كالابريا أن يشـعر وهو في تورينو أنّه في بيته، وكي يشعر فتى من تورينو أنّه لا يزال في بيته عندما يذهب إلى ريدجو كالابريا؛ فمن أجل هذا كافحت بلادُنا لمدة خمسـين سـنة، ومات مـن أجـل هـذا ثلاثـون ألف إيطالي. عليكـم إذا أن تحترموا بعضكم بعضا، وأن تتحابّـوا كلّكـم فـي مـا بينكم. أمـا من يحاول منكم أن يعيّر هـذا الزميل بأنه لم يولـد فـي منطقتنـا فإنّـه لن يكون جديـرا أبدا بأن يرفع نظـره عن الأرض عندما يمـر أمامـه علمُ الألـوان الثلاثة، العلم الإيطالي"[1]. ما إن جلس الكالابريّ على مقعده حتى أهداه من يجلس قربه الأقلامَ، بينما أرسل له فتى من المقعد الأخير طابعَ بريدٍ سويديّا.

(1) من المعروف أن العلم الإيطالي بثلاثة ألوان: الأخضر والأبيض والأحمر. ويسمّونه في إيطاليا علم الألوان الثلاثة. (المترجم)

رفاقي

الثلاثاء، 25

الفتى الذي أرسل الطابع البريدي إلى الكالابريّ هو الذي يعجبني أكثر من الجميع، اسمه غاروني، ويعتبر بأعوامه الأربعة عشر أكبر طلاب الصفّ عمرا. كان كبير الرأس، عريض المنكبين، تكشفُ ابتسامتُه عن طيبة قلبه، لكنه يبدو مستغرقا دائما في التفكير؛ مثل رجل كبير في السنّ. أعرف الآن الكثير من رفاقي. هناك آخر يعجبني أيضا، اسمه كوريتّي، يرتدي كنزة بلون الشوكولاته وقبعة مصنوعة من وبر القطط، وهو دائم الحبور. إنه ابن لبائع أخشاب كان جنديا في حرب عام 66 ضمن فريق الأمير اومبرتو، ويقال إنه حاز على ثلاثة أوسمة. أما نيلّلي الصغير فهو أحدب مسكين، نحيلٌ وشاحبُ الوجه. هناك أيضا تلميذ آخر أنيق اللباس، يعمل دائما على نزع الوبر عن ثيابه، اسمه فوتيني. وفي المقعد القريب من مقعدي، يجلس فتى يدعونه المعماريّ لأن أباه عامل بناء. وجهه مستدير مثل التفاحة، وأنفه مثل طلقة الرصاص. يُحسن هذا الفتى تقليد وجه الأرنب فيطلبون منه أن يقلّد وجه الأرنب، ثم يضحكون. يعتمر قبعة صغيرة مثل الخرقة، وعندما يلفّها في جيبه تبدو كأنها منديل. يجلس قرب المعماري غاروفّي، وهو شخص طويل ونحيف، أنفه مثل منقار البومة، وعيناه صغيرتان، يتاجر بالأقلام الصغيرة والصور وعلب الكبريت، ويكتب الدرس على أظافره ليقرأه في الخفاء. هناك بعدها السيد الصغير، كارلو نوبيس، الذي يبدو متعجرفا، لكنه يجلس بين تلميذين أُحبّهما: أحدهما ابن حداد، يرتدي سترة طويلة تصل إلى ركبتيه فيبدو كأنه مدكوكٌ في كيس، شاحب الوجه كأنه مريض، منظره يوحي بأنه خائف على الدوام، كما أنّه لا يضحك أبدا. أما الآخر فشعره أحمر، له ذراع معطوبة يعلقها على عنقه، هاجر أبوه إلى أميركا فاضطرّت أمّه

لتتجوّل وتبيع الخضار والأعشاب. أمّا جاري عن اليسار فكان من نوع غريب. اسمه ستاردي، وهو صغير وبدين وليس له عنق، يبدو أنّه فظّ لأنه لا يكلم أيّ مخلوق، وهو بطيء البديهة، لكنه دائم الانتباه إلى الأستاذ، ينظر إليه من دون أن يرفّ له جفن بجبين مقطب وأسنان مطبقة. إذا كلّموه خلال درس الأستاذ فإنه لا يجيب لا في المرة الأولى ولا في الثانية، لكنه يرفسهم في المرة الثالثة. يجلس إلى جانبه تلميذ بوجه قاس وحزين، اسمه فرانتي، كان قد فُصِلَ من مدرسة أخرى. يوجد أيضا أخوَان يرتديان ثيابا متشابهة، وهما متشابهان أيضا كأنهما رسما بريشة واحدة، يعتمر كل منهما قبعة كالابريّة تعتليها ريشة من ريش البط الدراج. لكنّ الأكثر وسامة بين الجميع، وأكثرهم عبقرية، وصاحب الجائزة الأولى حتى هذا العام، هو ديروسّي. أدرك الأستاذ هذا الأمر فكان يوجّه إليه الأسئلة باستمرار. أما أنا فأحب بريكوسّي، ابن الحداد، الذي يرتدي سترة طويلة فيبدو مثل المرضى. يقولون إن أباه يضربه. إنّه شديد الخجل، حتى إنه يطلب العفو كلما سأل أو لامس شخصا ما، كما أنّ نظراته طيّبة وحزينة. لكن غاروني هو الأكبر والأكثر طيبة.

عملٌ نبيل

الأربعاء، 26

وبالفعل فقد عرّف غاروني بنفسه هذا الصباح. دخلتُ المدرسة متأخرا بعض الشيء، لأن معلمة الصف الأول المتقدّم أوقفتني لتسألني في أي ساعة يمكنها أن تأتي لتزورنا في بيتنا. لم يكن الأستاذ قد وصل بعد، لذلك كان فتيان أو ثلاثة فتيان يضايقون كروسّي المسكين، ذا الشعر الأحمر والذراع المعطوبة الذي تبيع أمه الخضار. كانوا يتحرّشون به بالمساطر، ويرمون على وجهه قشور الكستناء، وينعتونه بالمشلول وبالوحش، ثم يقلدون ذراعه المعطوبة الملقاة على عنقه. بقي جالسا في آخر المقعد يستمع إليهم، ثم ينظر إلى هذا تارة وإلى الآخر تارة أخرى نظرات مناشدة ورجاء عسى أن يتركوه وشأنه. لكن أولئك أمعنوا في السخرية منه، فبدأ يرتجف ويحمرّ من شدة الغضب. وفجأة، اعتلى فرانتي - صاحب الوجه البشع - أحد المقاعد، وقلّد أمّ كروسّي التي تحمل سلّتين عندما تأتي لتنتظر ابنها عند الباب، وهي مريضة الآن. وعندما استغرق كثيرون في الضحك، فقد كروسّي رشده فأمسك بمحبرة ورمى بها بقوّة على رأس فرانتي، لكنّ هذا مال برأسه فصدمت المحبرة صدر الأستاذ الذي دخل في تلك اللحظة.

هرب الجميع نحو مقاعدهم والتزموا الصمت مذعورين.

توجّه الأستاذ شاحب الوجه نحو الطاولة وسأل بصوت مرتعد:

"من فعل هذا؟".

لكنّ أحدا لم يجب.

صرخ الأستاذ مرة أخرى بصوت أعلى: "من كان؟".

شعر غاروني بالشفقة على كروسّي المسكين فنهض فجأة وقال بحزم: "أنا". نظر الأستاذ إليه، ثم نظر إلى التلاميذ المندهشين، ثم قال بصوت هادئ: "لست أنت". ثمّ قال بعد برهة: "لن أعاقب الفاعل. فلينهض!". نهض كروسّي وقال وهو يبكي: "شتموني ففقدت رشدي ورميت...". "اجلس". قال الأستاذ، ثم تابع: "وليقف من استثاره". فنهض أربعة برؤوس منحنية. "إنّكم - قال الأستاذ - شتمتم زميلا لكم لم يستثركم. لقد هزئتم من إنسان تعيس، وضربتم إنسانا ضعيفا لا يستطيع أن يدافع عن نفسه. قمتم بأبشع الأعمال المعيبة التي يمكن أن تلطّخ إنسان. أنتم جبناء!". قال هذا، وبدأ يتجول بين المقاعد، ثم وضع يده على ذقن غاروني ورفع رأسه وحدّق في عينيه وقال له: "إنك نبيل النفس". انتهز غاروني الموقف فهمس ببضع كلمات في أذن الأستاذ، فالتفت هذا نحو المذنبين الأربعة وقال بصوت حاد: "لقد عفوت عنكم".

معلّمتي في الصف الأول المتقدم

الخميس، 27

حافظت معلمتي على وعدها، وجاءت اليوم إلى البيت، في اللحظة نفسها التي كنت أهمّ فيها بالخروج مع أمّي لنأخذ ملاءات منزليّة بيضاء من البيت إلى امرأة فقيرة أوصت صحيفة كنّا نقرأها بمساعدتها. لقد مرّت سنة كاملة على زيارتها الأخيرة لبيتنا. احتفلنا بها جميعا. لقد بقيت على ما كانت عليه؛ صغيرة، بمنديلها الأخضر الملفوف على قبّعتها، غير أنيقة في هندامها، ولا تمشّط شعرها؛ لأنّه لا وقت لديها لكلّ هذا. لكنها بدت شاحبة أكثر مما كانت عليه قبل سنة خلت، بل وخَطَ بعضُ الشيب رأسها، وصارت تسعل على الدوام. سألتها أمي: "كيف الصحّة أيتّها المعلّمة الغالية؟ أعرف أنّك لا تعتنين بها كما يجب!". "لا يهمّ". أجابت بابتسامتها المعهودة التي تجمع بين المرح والحزن. فأردفت أميّ قائلة: "إنك تلقين الدروس بصوت مرتفع جدا. إنك ترهقين نفسك مع تلاميذك". كان هذا صحيحا، كان صوتها مسموعا على الدوام، أذكر أنّي عندما كنت أذهب إليها في المدرسة كانت تتكلّم على الدوام، تتكلّم كي لا يتشتت انتباه التلاميذ، وكانت لا تجلس ولو للحظة واحدة. كنت على يقين بأنها ستأتي؛ لأنّها لا تنسى طلابها أبدا، بل تذكر أسماءهم لسنين طويلة. وكانت تذهب خلال أيام الامتحانات الشهرية لعند المدير لتسأله عن علامات مذاكراتهم، ثم تنتظرهم عند الباب وتطلب منهم عرض مواضيعهم لترى إذا كانوا قد أحرزوا تقدّما. وكان الكثيرون منهم يأتون لزيارتها حتى بعد أن دخلوا الثانوية وصاروا يرتدون البناطيل الطويلة ويحملون ساعات في معاصمهم. جاءت اليوم متعبة من معرض الصور حيث تأخذ تلاميذها كل عام، وقد اعتادت أن تأخذهم كلّهم كلّ خميس إلى أحد المتاحف، وكانت تشرح لهم هناك كل شيء. يا لمعلّمتي المسكينة،

لقد بدا هزالك. لكنّ النشاط لا يزال يميّزك. إنها تندفع وتتحمّس كلما جاءت سيرة المدرسة. أرادت أن ترى السرير الذي رأتني فيه قبل سنوات عندما عادتني مريضا، وهو اليوم لأخي ينام عليه، نظرت إليه لبرهة ولم تتمكن من الكلام. اضطرت للذهاب بسرعة لتزور تلميذا من صفّها، ابنا لصانع أسراج الحيوانات، وكان مريضا بالحصبة، ولا تزال عنده صفحات لا بد من تصحيحها، وهذا يعني مساء آخر من العمل المتواصل، هذا قبل أن تذهب إلى متجر عليها أن تعطي صاحبته درسا خاصا في الحساب قبل أن يحلّ الليل. قالت لي قبل أن تذهب: "حسنا يا أنريكو، هل ما زلت تحب معلمتك حتى الآن؟ الآن بعد أن أصبحت قادرا على حلّ المسائل الصعبة وكتابة المواضيع الطويلة؟". ثمّ قبّلتني. وعندما وصلت إلى أسفل درج البيت قالت لي: "لا تنسَني يا أنريكو!". لن أنساك أبدا، البتّة، يا معلّمتي الغالية. سأذكرك حتّى عندما أكبر، وسأذهب لزيارتك وأنت بين تلاميذك، بل إنيّ سأتصوّرك أمامي كلما مررت أمام مدرسة، وأتخيّل صوتك كلّما سمعت صوت معلمة، وأذكر العامين اللذين قضيتهما في مدرستك وتعلّمت خلالهما الكثير، وكنت أراك مرّات كثيرة منهكة، بل مريضة لكن دائما حفيّة لا تبخلين بأي رعاية واهتمام. كنت دائما متسامحة وكريمة، لكن يائسة عندما تكتشفين أنّ أحدنا أصابه شرّ في أصابعه يعيقه عن الكتابة، وكنت تخافين عندما كان المفتّشون يفحصوننا، وتفرحين عندما كنا نُحسن الإجابة. كنت كريمة دائما، وخيّرة ومُحِبّة مثل الأمّ. لن أنساك أبدا يا معلّمتي، لن أنساك البتّة.

t.me/t_pdf

t.me/book4kid

في السقيفة

الجمعة، 28

ذهبت مساء البارحة مع أمي وأختي سيلفيا لنأخذ بعض البياضات إلى امرأة فقيرة أوصت الجريدة بمساعدتها. حملت أنا الحزمة، بينما أمسكت سيلفيا بالجريدة التي كُتب فيها اسمُ المرأة وعنوانُها. صعدنا حتى وصلنا إلى سطح بيتٍ مرتفع فيه ممر طويل على جانبيه أبواب كثيرة. قرعت أمّي الباب الأخير، ففتحت لنا امرأة لا تزال شابة، نحيلة وشقراء، وبدا لي في الحال أنّه سبق لي أن رأيتها في مرات سابقة، بالمنديل الأزرق السماوي الذي كانت تضعه على رأسها ذاته. سألتها أمّي: "هل أنت المذكورة في الجريدة؟". "نعم، هذه أنا". "حسنا، جئناك ببعض البياضات". فبدأت بكَيلِ شكرٍ وتبريكٍ لا ينتهيان. في هذه الأثناء، رأيت في زاوية من زوايا الغرفة الفارغة والمظلمة فتى منحنيا أمام كرسيّ وقد أدار ظهره لنا، وبدا كأنّه يكتب. كان يكتب بالفعل على ورقة فوق الكرسي، بينما وضع المحبرة على الأرض. كيف كان يتمكن من الكتابة وسط تلك العتمة؟ كنت أحدث نفسي بالأمر عندما تعرفت فجأة على شعر زميلي الأحمر وسترة الفرو الرخيص التي كان يرتديها. كان كروسيّ ابن بائعة الخضار، وذا الذراع المعطوبة. أخبرت أمّي همسا بالأمر بينما كانت المرأة ترتّب الأغراض. لكن أمي قالت: "اسكت! لربما خجل من رؤيتك وأنت تقدم العون لأمّه، إيّاك أن تناديه". في تلك اللحظة، التفت كروسيّ نحوي فارتبكتُ خجلا، لكنّه ابتسم فدفعتني أمّي كي أذهب لأعانقه. عانقته، فنهض وأخذ بيدي. ثم إن أمّه قالت لأمّي: "ها أنذا هنا وحيدة مع هذا الصبي. زوجي في أميركا منذ ست سنوات، والأدهى أنّي مريضة ولا أستطيع أن أتجوّل بالخضار لأبيعها وأكسب ذلك المبلغ القليل من المال. للأسف، لم يبق عندنا شيء؛ ولا حتى طاولة يكتب عليها لويجي

المسكين الصغير وظائفه. كان عندنا مقعد في المدخل وكان يستعمله ليكتب عليه، لكنّهم أخذوه. لم يبق لدينا حتى بعض الإنارة لتساعده على الدراسة من دون أن يرهق عينيه. الحمد لله أنّي ما زلت قادرة على إرساله إلى المدرسة؛ خاصة وأنّ البلدية تقدم له الكتب والدفاتر. مسكين لويجي الصغير لأنه يدرس عن طيب خاطر بالفعل! ومسكينة أنا أيضا!". عندها، أعطتها أمي كل ما كانت تحمله في حقيبة يدها، ثم قبّلت الولد وكادت أن تبكي ونحن نهمّ بالخروج. كان لديها الحق في أن تقول لي: "انظر إلى ذلك الولد المسكين في أيّ جو يدرس، بينما تملك أنت كل وسائل الراحة لكنّك ترى أنّ الدراسة صعبة! آه يا أنريكو الغالي، إن دراسته في يوم واحد تعادل كلّ دراستك خلال سنة كاملة. يجب أن يعطوا أمثاله الجوائز الأولى!".

المدرسة

الجمعة، 28

بلى يا أنريكو، لا بد أن أمّك صادقة عندما تقول إن الدراسة أصبحت ثقلا عليك، فأنا لم أعد أراك تذهب إلى المدرسة بذلك العزم وذلك الوجه الضاحك الذي كنت أحبّه فيك. لقد بدّلت كل ذلك بالتردد. فاسمعني الآن، وحاول أن تتصوّر حال أيامك وكم ستكون بائسة ومزرية بدون المدرسة! لا بد أنّك ستقف في بداية أول أسبوع لتتضرع وتطالب بالعودة إلى المدرسة بعد أن تكون قد ذُبت من الملل والخزي، وقرفت من التلهّي ومن كلّ حياتك. إنّ الجميع، نعم الجميع، يدرسون الآن يا عزيزي أنريكو. فكّر بالعمال الذين يذهبون إلى المدرسة المسائية بعد تعبهم طيلة النهار، وفكّر بالنساء وبفتيات عامّة الناس اللائي يذهبن يوم العطلة لأنهن يعملن طيلة أيام الأسبوع، وفكّر بالجنود الذين يضعون أيديهم على كتبهم ودفاترهم بعد أن يعودوا منهكين من تدريباتهم العسكرية، ثم فكّر بفتيان مكفوفين وبكم ومع هذا فهم يدرسون، ويسعون مثلهم مثل الكثير من السجناء لتعلم القراءة والكتابة. فكّر عندما تخرج من بيتك في الصباح أنّ هناك في تلك اللحظة نفسها، وفي مدينتك بالذات ثلاثين ألف فتى يذهبون مثلك ليحتشدوا ضمن غرف صغيرة يدرسون فيها لأكثر من ثلاث ساعات. لا، بل فكّر بالعديد من الفتيان في كلّ البلدان الذين يذهبون في ما يقرب من تلك الساعة إلى مدارسهم، وشاهدهم بعين الخيال وهم يذهبون ويسيرون في دروب القرى الهادئة، وعبر شوارع المدن الصاخبة، على طول شواطئ البحار والبحيرات، تحت أشعّة الشمس الحارقة أو بين الضباب، على متن الزوارق في بلدان تنساب فيها الأقنية، أو على صهوات الخيل عبر السهول المديدة، بل وعلى مزالج الثلوج، على الهضاب وفي الوديان، يعبرون

الأحراج ومجاري السيول، في أعالي دروب جبلية معزولة، فرادى أو ثنائيات أو جماعات، في صفوف طويلة، يحملون جميعهم كتبهم تحت آباطهم، ويرتدون آلاف أنواع الثياب، يتحدثون بآلاف اللغات؛ من آخر مدارس روسيا التي تكاد تضيع بين الثلوج إلى آخر مدارس بلدان العرب المظللة بالنخيل. الملايين والملايين، كلّهم يتعلمون الأشياء نفسها بمئات من مختلف الطرائق. تخيّل هذا الحشد الهائل من فتيان مائة شعب، هذه الحركة الواسعة العظيمة التي تشكل أنت جزءا منها، ثم فكّر: إذا توقفت هذه الحركة فإن البشرية كلها ستسقط من جديد في الهمجية؛ لأن هذه الحركة هي حركة التقدم. إنها أمل العالم ومجده. تشجع إذا أيها الجندي الصغير في الجيش الكبير. كتبك هي سلاحك، الصف في مدرستك هو كتيبتك، أما ساحة المعركة فهي الأرض الرحبة، والنصر هو حضارة الإنسان. فلا تكن جنديا جبانا يا أنريكو الغالي.

أبوك

وطنيٌّ صغير من بادوفا[1]

قصّة شهرية

السبت 29

لن أكون جنديّا جبانا، أبدا. لكنّي سأذهب بمزيدٍ من طيب الخاطر إلى المدرسة، إذا حكى لنا المعلم كل يوم حكاية مثل تلك التي حكاها اليوم. فقد أخبرنا أنّه سيحكي لنا مثلها مرّة كل شهر، بل وسيعطينا إيّاها مكتوبة، وستكون حكاية عن عمل جميل وحقيقيّ يقوم به فتى من الفتيان. عنوان الحكاية هذه المرة وطنيٌّ صغير من بادوفا. وهذه هي القصة: غادر زورق بخاريّ فرنسيٌّ برشلونة، المدينة الإسبانية متجها نحو جنوى، وكان على متنه فرنسيّون وإيطاليون وإسبان وسويسريّون. وكان بينهم فتى عمره أحد عشر عاما، رثّ الثياب، ووحيد، يتنحى دائما عن جانب الجميع مثل حيوان متوحش، وينظر إلى الجميع نظرة كئيبة. وكان محقّا في أن يرمق الجميع بنظرة كئيبة. وذلك لأنّ أباه وأمّه - وهما من فلاّحي ضواحي بادوفا، باعاه قبل سنتين إلى صاحب فرقة مهرّجين، وعمل هذا في الحال على تعليمه الألعاب بقوة اللكمات والضربات ومنع الطعام، ثمّ أخذه في عرض فرنسا وإسبانيا وهو يضربه على الدوام ولا يشبعه أبدا. وعندما وصل إلى برشلونة، فقد الصبر، ولم يعد يتحمل الضرب والجوع فهرب من جلاّده، وذهب ليطلب الحماية من قنصل إيطاليا الذي رقّ له قلبه، ورحّله على متن ذلك الزورق البخاريّ، وأعطاه رسالة موجهة إلى رئيس شرطة جنوى يطلب منه فيها إعادته لأبويه؛ لأبويه اللذين باعاه كأنّه حيوان. كان الفتى منهكا ومريضا. أعطوه غرفة مقصورة في الدرجة الثانية. كان الجميع ينظرون إليه، وبعضهم كان يسأله،

---

(1) بادوا أو Padova مدينة قرب مدينة البندقيّة شمال شرق إيطاليا

لكنه لم يكن يجيب. كان يبدو أنه يبغض الجميع ويحتقرهم بعدما اشتدت عليه الأمور والأحزان وآلمه الحرمان والضرب. لكنّ ثلاثة مسافرين أفلحوا، بعد إصرار وإلحاح في الطلب، في أن يفكّوا عقدة لسانه، وهكذا أوجز قصته بكلمات قليلة خشنة قالها بمزيج من لهجة الفينيتو(1) واللغتين الفرنسيّة والإسبانيّة. لم يكن أولئك المسافرون إيطاليين لكنهم فهموا، ثم إمّا عن شفقة وإمّا لأنّهم كانوا قد انتشوا، أعطوه نقودا وهم يمزحون ويحثّونه على رواية المزيد. دخلت في تلك اللحظة بعض السيّدات الصالة، فأراد ثلاثتهم أن يتباهوا فأعطوه المزيد من النقود وهم يصيحون: "خذ هذا! خذ هذا أيضا!". وذلك وهم يلقون النقود لترنّ على الطاولة. لمّ الفتى كل ذلك المال، وشكرهم بصوت منخفض وعلى طريقته الخشنة لكن بنظرات بدت للمرة الأولى باسمة حنونا. ثم تسلّق وذهب إلى مقصورته وسحب الستارة وجلس بهدوء يفكّر بأموره. سيتمكّن بفضل هذه النقود أن يتذوّق طعاما لذيذا على ظهر السفينة بعد سنين حُرم فيها الخبز، سيستطيع أن يشتري سترة ما إن يترجّل في جنوى بعد سنين ارتدى فيها خرقا بالية، بل سيستطيع أن يحمل إلى البيت ما يجعل أباه وأمّه يستقبلانه بشيء من الإنسانية؛ أكثر مما لو دخل عليهما بجيوب فارغة. شكّلت تلك النقود ثروة صغيرة بالنسبة إليه. بهذا كان يفكر مطمئنا وراء ستارة مقصورته، بينما تابع المسافرون الثلاثة أحاديثهم جالسين إلى مائدة الطعام في وسط صالة الدرجة الثانية. كانوا يشربون ويتحادثون حول رحلاتهم وما رأوه من بلدان. ومن حديث إلى حديث جاءوا على ذكر إيطاليا. بدأ أحدهم بالتذمر من الفنادق فيها، وآخر من السكك الحديدية، ثم تحمّس الجميع وبدأوا يتذمّرون من كلّ ما فيها؛ حتى إنّ أحدهم قال إنّه يفضّل الذهاب إلى لابونيا، وقال الثاني إنه لم يجد في إيطاليا إلا محتالين ولصوصا، وقال الثالث إنّ الموظفين الإيطاليين لا يعرفون القراءة.

وعقّب الأول قائلا: "شعبٌ جاهل".

فأضاف الثاني: "قذر".

(1) منطقة الفينيتو Veneto عاصمتها مدينة البندقيّة شمال شرق إيطاليا.

"لـص...". صـاح الثالـث وهو يريد أن يقول كلمة لصوص، لكنه لم يكمل كلمتـه عندمـا اجتاحتهـم عاصفـة من النقـود ومن أنصاف الليـرات انقلبت على رؤوسـهم وأكتافهـم متناثـرة علـى الطاولـة وعلى الأرض محدثـة صخبا عظيما. نهـض الثلاثـة غاضبيـن، ونظـروا إلـى الأعلى فتلقّوا علـى وجوههم صفعة نقود أخرى.

"هـا هـي نقودكـم، خذوهـا". قال الفتـى بازدراء وهو يطلّ برأسـه من وراء ستارة المقصورة. وتابع: "إني لا أقبل الصدقة ممّن يشتم بلادي".

مُنظّف المداخن

الثلاثاء 1

ذهبت البارحة مساء إلى مدرسة الإناث المجاورة لأعطي حكاية "فتى بادوفا" إلى معلمة سيلفيا التي كانت تريد أن تقرأها. كان في المدرسة سبعمائة فتاة! عندما وصلت كنَّ قد بدأن في الخروج، وكنّ سعيدات لقدوم العطلة. وكان هذا من أجمل ما رأيته. فمقابل باب المدرسة من جهة الشارع الثانية، وقف الفتى وذراعه مسنودة إلى الجدار بينما أسند جبهته على ذراعه الثانية. كان منظف مداخن، صغيرا جدا، وجهه كلّه أسود، وإلى جانبه كيسُه وآلة الجرف، وكان يبكي ويجهش في البكاء. اقتربت منه فتاتان أو ثلاث من الصفّ الثاني وقلن له: "ما بك حتى تبكي بهذه الطريقة؟". لكنّه لم يجبهنّ وواصل البكاء. "ماذا حلَّ بك؟ لماذا تبكي؟". كررت الفتيات السؤال. عندها، أزاح ذراعه عن وجهه - وكان وجهه طفوليا - ثم قال وهو يبكي إنّه كان ينظّف مداخن العديد من البيوت، وإنّه جنى ثلاثين قطعة من النقود لكنّه فقدها كلّها بعد أن تسرّبت من ثقب في جيبه - وعرض ذلك الثقب - وقال إنه لا يريد العودة إلى البيت بدون تلك النقود. فالمعلم يضربني، قالها وأجهش في البكاء، وأسند من شدة اليأس وجهه إلى ذراعه من جديد. وقفت الفتيات ينظرن إليه بجدّية، هذا بينما اقتربت فتيات أخريات كبيرات وصغيرات، فقيرات وثريات، يتأبطن حقائبهن المدرسية، كانت بينهنّ واحدة كبيرة، على طاقيّتها ريشة زرقاء، سحبت درهمين من جيبها وقالت: "ليس معي إلاّ درهمان. فلنجمع له المزيد". "أنا أيضا أملك درهمين". قالت واحدة أخرى ترتدي ثيابا حمراء "لا بد أن نجمع ثلاثين درهما". وهنا بدأن يتنادين: "آماليا! لويجا! آنّينا! درهم! من معه نقود؟ أحضرن النقود!". كانت

مع كثيرات منهنّ نقود ليشترين بها الورود أو الدفاتر لكنهنّ قدّمنها. الصغيرات منهن دفعن قروشا، وكانت ذات الريشة الزرقاء تجمعها كلها وتعدّ بصوت مرتفع: "ثمانية، عشرة، خمسة عشر! نريد المزيد". عندها ظهرت واحدة أكبر منهنّ جميعا، كأنّها مُدرِّسة صغيرة، ثم قدّمت نصف ليرة فاحتفل الجميع حولها بذلك. لكن، ما زالت هناك حاجة لخمسة دراهم. قالت واحدة: "ستصل الآن طالبات الصف الرابع، ولا بد أنَّ لديهن المزيد". وصلت طالبات الصفّ الرابع، وبدأت النقود تنهمر. وتجمّعت الفتيات. كانت رؤية ذلك الفتى المسكين وسط الفتيات بثياب بمختلف الألوان ووسط دوّامة من الأقلام والأشرطة والضفائر أمرا رائعا. لقد تمّ تجميع الثلاثين درهما، وما زلن يصلن؛ حتى إنّ الصغيرات ممّن لا يملكن نقودا كنّ يشققن طريقهنّ بين الكبيرات ليتمكنّ من تقديم شيء ما، أقلّه بعض باقات الزهور. على حين غرّة جاءت البوّابة تصيح: "السيّدة المديرة!". فهربت الفتيات في كلّ اتّجاه مثل سرب من طيور السنونو. عندها كُشِف الفتى الصغير منظّف المداخن وحيدا وسط الطريق، وكان يجفّف دموعه مسرورا، ويداه مليئتان بالنقود، كما كانت باقات صغيرة من الورود تملأ سترته وجيوبه، بل وعلى قبعته وتحت قدميه على الأرض.

يوم الموتى

الأربعاء 2

يُكرَّسُ هذا اليوم عادة لإحياء ذكرى الموتى. هل تعلم يا أنريكو من الموتى الذين على جميع الشباب أن يتوجهوا إليهم في هذا اليوم بالتفكير؟ إلى الذين ماتوا من أجلكم، من أجل الشباب، من أجل الأطفال. كم منهم ماتوا، وكم منهم يموتون باستمرار! هل فكرت يوما كم من الآباء استهلكت حياتهم بالعمل، وكم من الأمّهات نزلن في الحفرة قبل الميعاد بعد أن استهلكهن الحرمان الذي قضى عليهن وهنّ يعملن كي يطعمن أولادهن؟ هل تعلم كم من الرجال طعنوا قلوبهم بسكين يائسين لدى رؤيتهم أولادهم يتمرّغون في البؤس، وكم من النساء انتحرن غرقا أو متن ألما أو أصبن بالجنون لدى فقدانهن أبناء لهنّ؟ فكّر اليوم بكل أولئك الأموات يا أنريكو. فكّر بالكثير من المعلمات اللائي قضين صبايا بعد أن أنهكهن عمل المدرسة وحبّهن لأطفال لم تطاوعهن قلوبهن على الابتعاد عنهم، فكّر بأطباء ماتوا بأمراضٍ مُعدية أصابتهم لأنهم حرصوا على مداواة أطفال مرضى، فكّر بكل من تنازل خلال عمليات إنقاذ الغرقى والحرائق والمجاعات وخلال الأخطار العظمى عن آخر قطعة خبز أو عن آخر لوح إنقاذ أو حبل للنجاة من النيران، ثمّ مات مسرورا بتضحيته بعد أن أعاد للحياة بريئا صغيرا. إنهم كثيرون يا أنريكو أولئك الأموات، وستجد أنّ كل مقبرة تضم الكثيرين من أولئك المضحين؛ ممن لو أتيح لهم أن ينهضوا لبرهة من قبورهم لصرخوا ناطقين باسم طفلٍ ضحّوا من أجله بملذّات صباهم أو بطمأنينة شيخوختهم، بعواطفهم، بعقولهم، بحيواتهم؛ وكانوا عرائس في العشرين من العمر، أو رجالا في قوة الشباب، أو عجائز في الثمانين، أو شبابا؛ كانوا أبطالا مغمورين. كانوا شهداء الطفولة، وعظماء وكرماء، ولا يمكن للأرض كلّها أن

تُنبت كمّا من الزهور يكفي لوضعه على قبورهم. كم أنتم محبوبون أيها الأطفال! فكّر اليوم بأولئك الأموات معترفا بجميلهم، وستجد يا بنيّ أنك أصبحت أكثر طيبة وأشدّ ودّا مع كلّ من يحبّك ومن يرهق نفسه لأجلك، يا بنيّ المحظوظ لأنه ليس لديك حتى الآن من تبكي عليه في يوم الموتى!

أمك

صديقي غاروني

الجمعة 4

دامت العطلة يومين فقط، لكن بدا لي أنّ وقتا طويلا قد انقضى من دون أن أرى غاروني. كلّما ازدادت معرفتي به ازددت له حبا، ذلك مثل كلّ الآخرين عدا المتكبّرين المُتَنمِّرين الذين لا يصمدون أمامه لأنه لا يترك أحدا يتنمَّر. بل إنّه كلّما رفع كبيرٌ يده على صغير فما على الصغير إلاّ أن ينادي: "غاروني!". فيكفُّ الكبير عن الضرب. كان أبوه يعمل على قطار السكك الحديدية، وقد دخل هو المدرسة متأخرا بعد أن عانى لسنتين من الأمراض. كان أطول طلاّب الصف وأقواهم، وكان قادرا على رفع مقعد الصف بيد واحدة، وكان يأكل دائما، لكنه كان طيّبا. ومهما طلبنا منه - قلما، ممحاة، أوراقا، مبراة - فإنه كان يعيره أو يعطيه. لم يكن يتكلم أو يضحك في المدرسة، بل يبقى جامدا في مقعده الضيّق عليه، بينما يحني ظهره ورأسه الكبير بين كتفيه. أما عندما أنظر إليه فقد كان يبتسم في وجهي بعينيه شبه المغمضتين وكأنّما ليسألني: حسنا يا أنريكو، ألسنا صديقين؟ لكنه كان مضحكا بالفعل؛ فهو الضخم الكبير، سترته وسرواله وكمّاه كلها ضيّقة عليه وقصيرة، كما أن قبعته أصغر من رأسه ورأسه حليق، حذاؤه كبير، وربطة عنقه ملتوية مثل حبل معقود. يا عزيزي غاروني، يكفي أن يرى المرء وجهك مرة واحدة حتى يحبّك. حتى إنّ كلّ الصغار يريدون أن يجلسوا في مقعد قرب مقعده. إنه يجيد الحساب، ويحمل كتبه في محفظة حزمها بشريط أحمر من الجلد. يحمل معه سكينا له مقبض من الصدف وجده قبل عام في ساحة السلاح وقد جرح به مرّة إصبعه حتى ظهر العظم، ولم يعرف أحد بهذا في المدرسة، كما أنه لم يتكلم بالأمر في البيت حتى لا يرعب ذويه. يقبل أي شيء يقال له مزحا ولا يستاء منه أبدا. لكن حذارِ أن يقال له عندما يؤكد أمرا:

"هذا غير صحيح". عندها، ينطلق الشرر من عينيه، ويطرق بقبضته ضربات تكسر المقعد. أعطى صباح السبت نقودا لواحد من الصف الأول المتقدّم كان يبكي في منتصف الشارع لأنهم أخذوا منه نقوده ولم يتمكن من شراء الدفاتر. وهو يعمل الآن منذ ثلاثة أيام على رسالة من ثماني صفحات زوّق أطرافها بالقلم ليقدمها إلى أمه التي غالبا ما تأتي لتأخذه من المدرسة. وهي طويلة وضخمة مثله وكذلك لطيفة. ينظر الأستاذ إليه دائما، وكلما مرّ أمامه يضرب بيده على عنقه وكأنه عجل هادئ. إنيّ أحبّه، وأكون سعيدا عندما أصافح بيدي يده الضخمة الشبيهة بيد رجل بالغ. وإنيّ على ثقة تامة بأنّه على استعداد لأن يُقتل من أجل إنقاذ رفيق له أو من أجل الدفاع عنه، يبدو هذا واضحا في عينيه. يبدو عندما يتكلم بصوته الأجش أنه يرعد ويزبد متذمرا، لكن من الواضح أنّه صوت آتٍ من قلب لطيف.

الفحّام والسيد

الاثنين 7

من المؤكد أن غاروني لم يكن ليقول تلك الكلمة التي قالها صباح البارحة نوبيس لبيتّي. كارلو نوبيس متكبر لأنّ أباه من كبار السادة. فهو سيّد ذو لحية سوداء، جادّ وصارم، يأتي كل يوم ليرافق ابنه. تخاصم نوبيس صباح الأمس مع بيتّي، وهو من الصغار وابن رجل فحّام، وبعد أن عجز عن تقديم جواب له لأنه كان المخطئ، صاح في وجهه: "أبوك شحاذ صعلوك". احمر وجه بيتّي حتى وراء أذنيه، ولم يقل شيئا، لكنّ الدموع ملأت مقلتيه. وحين عاد إلى البيت روى ما حدث لأبيه. فما كان من الفحّام، وهو رجل صغير كلّه سواد، إلاّ أن ظهر خلال درسٍ بعد الغداء وهو يقود ابنه من يده ليشتكي إلى الأستاذ. وبينما كان يشتكي للأستاذ والكلّ صامت إذ بوالد نوبيس الذي كان يرفع مثل العادة معطف ابنه يظهر فجأة عند المدخل، وعندما سمع اسمه يُذكر طلب استفسارا.

"هذا العامل"، أجاب الأستاذ "أتى ليشتكي لأنَ ابنك كارلو قال للفتى: أبوك شحاذ صعلوك".

قطّب والد نوبيس جبينه، واحمرّ وجهه بعض الشيء، ثمّ قال لابنه: "هل قلت تلك الكلمات؟".

لكن الابن وقف في وسط الصف وقد حنى رأسه أمام بيتّي الصغير ولم ينبس ببنت شفة.

عندها، أخذه أبوه من ذراعه، ودفعه إلى أمام بيتّي حتى كادا يتلامسان وقال له: "اعتذر منه".

حاول الفحّام أن يقف بينهما قائلا: "لا، لا". لكن السيّد تجاهله وكرّر كلامه لابنه: "اعتذر منه". بل كرّر أمامه هذه الكلمات: إني أعتذر عن كلمة الإساءة

الحمقاء الوضيعة التي قلتها ضد أبيك الذي يشرّف... أن يصافحه.

قام الفحّام بحركة حازمة تعني: لا أريد. لكنّ السيد لم يصغِ إليه، فانصاع الابن وهمس ببطء من دون أن يرفع عينيه عن الأرض: "أعتذر عن... كلمة... الإساءة... الحمقاء... الوضيعة التي قلتها ضد أبيك، والذي يشرف... أن يصافحه".

عندها، مدَّ السيد يده نحو الفحّام فشدَّ هذا عليها بقوة، ثم دفع في الحال ابنه بقوة بين ذراعي كارلو نوبيس.

"اصنع معروفا بوضعهما في المقعد نفسه". قال السيد للأستاذ. فوضع الأستاذ بيتّي في مقعد نوبيس. وعندما جلسا في مكانهما لوّح والد نوبيس بتحية ثم خرج.

بقي الفحّام لحظات شارد الذهن وهو ينظر إلى الصبيين المتجاورين، ثم اقترب من المقعد وحملق في نوبيس بتعبير ينمّ عن المحبة والأسف كما لو أنه يريد أن يقول له شيئا ما، لكنّه لم يقل شيئا، ثم مدّ يده ليقوم بلمسة ملاطفة، لكنه لم يجرؤ، بل مرّر أصابعه العريضة على جبهته، وتوجه بعدها نحو الباب، وغاب وراءه بعد أن التفت ثانية لينظر إليه. عندها قال الأستاذ: "تذكروا جيدا هذا الذي شاهدتموه، فهذا أجمل درس خلال هذا العام".

معلِّمة أخي

الخميس 10

كان ابـن الفحّـام طالبـا لـدى المعلّمة ديلكاتي التي أتـت اليوم لزيارة أخي المريـض، وقـد أضحكتنـا عندمـا روت لنـا أن أمَّ ذلك الفتى جاءتها قبل سـنتين إلى البيت بحزمة كبيرة من الفحم لتشكرها على الوسام الذي منحته لابنها، وقد أصـرّت المـرأة المسـكينة علـى ألاّ تعود بالفحم إلى بيتهـا، بل إنها كادت تبكي عندما اضطرت للعودة بالمئزر المليء بالفحم. حكت أيضا عن امرأة طيبة أخرى حملت إليها باقة ورد ثقيلة جدا وكانت في داخلها صرّة دراهم. اسـتمتعنا جدا بسـماع قصصهـا، وهكـذا قبِـل أخي ابتـلاع الدواء الذي كان يرفـض تناوله. كم مـن الصبـر يحتاجـون إليـه مع أولئك الفتية من صـفّ الحضانة الأول، جميعهم بلا أسنان مثل العجّز ولا يتمكنون من لفظ الراء والسين. الأول يسعل، والثاني يسيل خيط الدم من أنفه، وهناك من يضيع حذاؤه تحت المقعد، ومن ينقّ من وخزة القلم، أو من يبكي لأنه اشترى دفترا رقم اثنين وليس رقم واحد. خمسون في صف واحد، لا يعرفون شيئا، بأيديهم الحليبية الصغيرة، وعليك أن تعلمهم جميعهم القراءة والكتابة! يحملون في جيوبهم أغراضا شـتى؛ أزرارا، سـدادات قناني، آجرا مطحونا، وأنواعا من أشياء صغيرة، ممّا يضطرّ المعلمة إلى أن تفتّش الجيوب، لكنهم يخبّئون الأشياء حتى في أحذيتهم. وهـم لا ينتبهون أبدا، يكفي أن تدخل ذبابة من النافذة حتى تنقلب الدنيا رأسا على عقب. يأتون في الصيف بالأعشـاب والخنافس التي تطير وتحلِّق، وعندما تقع في المحابر تخرج لتطرّز الدفاتر بالحبر. وعلى المعلِّمة أن تكون أمًّا لهم كلّهم، وأن تساعدهم على ارتداء ملابسـهم، وأن تربـط أصابعهـم المجروحـة، وأن تلمَّ القبعات التي تسـقط، وأن تنتبـه كـي لا تختلـط المعاطف، وإلا فسـيبدأون بالبـكاء والصراخ. يا للمعلمات

المسكينات! ثم تأتي الأمهات ويتذمرن: كيف حدث يا آنسة أنّ ابني فقد قلمه؟ ما سبب أن ابني لا يتعلم شيئا؟ لماذا لا يأخذ ابني مرحى وهو يعرف الكثير؟ لماذا لم تقلعي المسمار من المقعد فقد مزّق سروال ابني بييرو؟ تغضب معلّمة أخي أحيانا من الصبية، وعندما لا تستطيع التحمل تعضّ على إصبعها كي لا تصفع أحدا، تفقد الصبر ثم تندم، وتداعب الطفل الذي صرخت في وجهه. تطرد طفلا مزعجا من المدرسة ثم تغضب من والدين يعاقبان ابنهما بحرمانه من الطعام. المعلمة ديلكاتي صبية وكبيرة، حسنة الهندام، سمراء، قلقة المزاج، تفعل كلّ شيء مثل قفز النابض، لكنها تتأثر لأقلّ شيء ممّا يجعلها تتحدث برقّة فائقة. وهنا سألتها أمي: "هل تتعلق على الأقل قلوب الأطفال بك؟". فأجابت: "أجل، الكثير منهم. لكن، إذا انتهت السنة الدراسية فإنهم لا ينظرون إلينا. بل إنّهم عندما يصبحون مع الأساتذة يبدون كأنهم خجلون لأنهم كانوا لدينا، أي لدى معلمات. بعد سنتين من الرعاية، من حبّ أحد الأطفال، يسوءنا فراقه، لكننا نقول إنيّ متأكدة أن ذلك الطفل يحبني. لكن بعدما تنقضي العطلة الصيفية ونعود إلى المدرسة فإننا نركض وراءه: "أيها الطفل، يا طفلي العزيز!". فيستدير بوجهه إلى الطرف الآخر". هنا توقفت المعلّمة. "لكنك لن تفعل هذا يا صغيري؟". قالت بعينين دامعتين وهي تنهض وتقبّل أخي: "إنك لن تدير رأسك نحو الطرف الآخر، أليس كذلك؟ لن تتنكّر لصديقتك المسكينة وتتبرأ منها".

أمّي

10 حزيران/يونيو

لقد أظهرتَ قلّة احترامٍ لأمّك بحضور معلّمة أخيك! أرجو ألاّ يحدث هذا مجددا أبدا، أبدا يا أنريكو! إنّ كلمتك التي نمّت عن عدم احترام وخزت قلبي وكأنها إبرة من فولاذ. تذكّرتُ أمّك عندما بقيت قبل سنوات طيلة الليل منحنية على سريرك الصغير وهي تعدّ أنفاسك وتبكي دما من شدة الخوف، وتصرّ بأسنانها من الرعب؛ لأنّها كانت تظنّ أنّها ستفقدك، وخشيتُ وقتها عليها، خشيت أن تفقد رشدها. لقد جعلتني تلك الذكريات أشعر بنوع من الاشمئزاز منك. أأنت تسيء إلى أمّك!؟ أمّك التي تهَبُ عاما من سعادتها لتمنع عنك ساعة من الألم، والتي قد تشحذ من أجلك، والتي قد تقبل بأن يقتلوها لتنقذ حياتك! اسمع يا أنريكو، وثبّتْ هذه الفكرة في رأسك. تخيّل أن أياما رهيبة ستكون مقدّرة عليك خلال حياتك، لكن أكثرها رهبة سيكون يوم تفقد أمّك. عندما ستصبح رجلا قويا، وتكون قد تجاوزت الكثير من مهالك الصراع، فإنك لا بد أن تدعوها ألف مرة يا أنريكو لأنّك ستكون تحت ضغط رغبة قوية بسماع صوتها ولو للحظة، ورؤية ذراعيها مفتوحتين لاحتضانك وهي تجهش في البكاء مثل طفل مسكين لا يجد من يحميه أو يواسيه. ستتذكر يا أنريكو وقتها كلّ مرارة سببتها لها وستندم على هذا كله، وستكون لهذا تعيسا! لن تعرف الصفاء في حياتك إن أحزنت أمّك. ستندم وستطلب الصفح منها، وستمجّد ذكراها، لكن عبثا، لأن ضميرك لن يطمئنّ، وسترى تلك الصورة الحلوة الطيّبة وعليها دائما تعابير الحزن والتقريع التي ستسبّب لنفسك كلّ العذاب. فاحذر يا أنريكو، إنّ هذا أقدس مشاعر الإنسان وعواطفه، وبائسٌ من يتجاهله. إنّ قاتلا مجرما يحترم أمّه يحمل في قلبه شيئا من النبل والصدق، بينما يبقى أعظم إنسان على

وجـه الأرض مجـرّد مخلـوق وضيـع إذا آلمها وأسـاء إليها. فلا تخرجنَّ إذا من فمك بعد الآن كلمةٌ فيها قسـوةٌ على من وهبتك الحياة. وإذا حدث وتسـربت كلمـة أخـرى فأرجـو ألاّ يكـون الخوف من أبيك، بل وازع نفسـك هو ما يجدر به أن يحملك على أن تلقي بنفسك تحت قدميها حتى تهبك قبلة غفران تمحو بهـا مـن علـى جبينـك علامـة الجحود. إني أحبّـك يا ابني، أنـت أغلى أمل في حياتـي، لكنّـي أفضـل أن أراك ميتـا على أن أجدك جاحـدا لجميل أمك. اذهب ولا تداعبني بلمسـاتك الحلوة حتى ردحٍ آخر من الزمان لأنّي الآن لا أسـتطيع أن أبادلك هذا من قلبي.

أبوك

رفيقي كوريتّي

الأحد 13

عفا أبي عنّي، لكني بقيت حزينا بعض الشيء، لهذا أرسلتني أمّي مع الابن الأكبر للبواب كي نتمشى في الشارع الرئيس. في منتصف الطريق، عندما كنت واقفا أمام أحد المحلات سمعت من يناديني باسمي، استدرت؛ إنه كوريتّي، رفيقي في المدرسة بسترته بلون الشوكولاته وقبعته المصنوعة من وبر القطط وكان يتعرق سعيدا بحمولة الحطب الثقيلة على كتفيه. كان هناك رجل ينتصب على عربة ويناوله قطع الخشب واحدة بعد أخرى، وكان هو يتناولها ويجمعها في يديه قبل أن يحملها إلى دكان أبيه، وهناك يبدأ برصفها وتكديسها؛ وذلك

بسرعة فائقة.

سألته: "ماذا بك يا كوريتّي؟".

أجاب: "ألا ترى؟". كان يمدّ يديه ليتناول الحمولة، وتابع: "إني أراجع دروسي".

ضحكت، ثم أدركت أنّه يتكلم جادّا، فبعد أن تناول كومة حطب، أخذ يكرّر وهو يجري: "يسمّونها حالات الفعل... تتغير بحسب الرقم... حسب الرقم والشخص...".

ثم عاد بعد أن رمى الحطب وبدأ برصفه: "حسب الزمن... حسب الزمن الذي ينتسب إليه الفعل...".

عاد مرة أخرى نحو العربة ليأخذ حزمة أخرى: "وفقا للطريقة التي يتم تعيين العمل عليها".

كانت هذه مقاطع من درس الغد في القواعد. قال لي: "ماذا أفعل؟ بهذه الطريقة أستغل كلّ وقتي. لقد ذهب أبي مع الفتى في شغل له. وأمّي مريضة. وليس هناك غيري للتحميل. في هذه الأثناء أذاكر القواعد. درس اليوم صعب. ولا أستطيع إدخاله في رأسي". بعدها قال للرجل في العربة: "قال أبي إنّه سيكون هنا عند السابعة ليعطيك النقود".

انطلقت العربة، فقال لي كوريتّي: "ادخل للحظة إلى الدكان". كان الدكان عبارة عن غرفة كبيرة ومليئة بصفوف وأكوام الخشب، وكان هناك قبّان في طرفها. استأنف كوريتّي حديثه قائلا: "اليوم هو يوم التعب، أؤكد لك. عليّ أن أقوم بالعمل على أقسام وأجزاء. كنت مثلا أكتب الافتراضات عندما جاء بعض الناس ليشتروا الحطب. ثم استأنفت الكتابة عندما وصلت العربة. كما أنّي جريت اليوم مرّتين نحو سوق الحطب في ساحة البندقيّة. بدأت أفقد الشعور بقدميّ وتنفّخت يداي. لن ينقصني إلا أن أضطر لمراجعة درس الرسم". قال كلّ هذا وهو يكنس الأوراق الجافة والأغصان التي كانت تغطي الأرضية الآجريّة.

سألته: "لكن، أين تكتب وظائفك ياكوريتّي؟".

أجاب: "ليس هنا بكل تأكيد". ثم استأنف: "تعال وشاهد". قال هذا وهو

يقودني نحو غرفة صغيرة خلف الدكان يستعملونها كمطبخ وغرفة طعام وتوجد في طرفها طاولة صغيرة وضع عليها كتبه ودفاتره ووظائفه التي بدأ بكتابتها. قال: "بالضبط، لقد تركت الجواب الثاني معلّقا: بالجلد تُصنع الأحذية والأحزمة... وأضيف الآن الحقائب". ثم تناول القلم وشرع يكتب بخطه الجميل. وهنا جاء صوتٌ من داخل الدكان: "هل من أحد هنا؟ كانت امرأة قد جاءت لتشتري بعض الحزم. "ها أنذا". أجاب كوريتّي وهو يقفز نحو الدكّان، ثم زان الحزمة وأخذ النقود وجرى نحو الزاوية ليسجل المبيع في الدفتر، ثم عاد إلى وظيفته وهو يقول: "فلنر إذا كنت سأتمكن من إنهاء هذه العبارة". ثم كتب: حقائب السفر، أكياس الظهر للجنود. لكنه صاح فجأة: "آه، نسيت قهوتي المسكينة تفور!". ثم جرى نحو الموقد ورفع وعاء القهوة عن النار وقال: "القهوة لأمّي، يجب أن أتعلم تماما كيف أغليها. انتظر حتى نحملها إليها، وهكذا فإنها ستراك، سيسعدها ذلك. منذ سبعة أيام وهي في السرير... اللعنة! وعاء القهوة يحرق لي أصابعي في كلّ مرة. ماذا هناك بعد أكياس الظهر للجنود؟ هناك أشياء أخرى لا أذكرها. تعال معي لعند أمي". فتح بابا فدخلنا غرفة أخرى صغيرة: كانت فيها أمّ كوريتّي مسجاة على سرير كبير وقد ربطت منديلا أبيض حول رأسها.

- ها هي القهوة يا أمّي. قال كوريتّي وهو يناولها الفنجان، "وهذا رفيقي في المدرسة".

- أوه! شاطرٌ هذا السيد الصغير. قالت المرأة، "لقد جئت لزيارة المرضى، أليس كذلك؟".

بدأ كوريتّي بتنظيم الوسائد خلف ظهر أمّه، وكذلك بتعديل الأغطية، ثم توجّه لتغذية النار في الموقد وطرد القطّ من الدولاب. "هل تحتاجين لشيء آخر يا أمّي؟". ثمّ سألها وهو يتناول الفنجان منها: "هل تناولت ملعقتي الدواء؟ عندما ينتهي سأقفز إلى الصيدلية لأجلب المزيد. لقد أنزلت الأخشاب. في الرابعة سأضع اللحم على النار كما طلبت، وعندما تأتي صاحبة الزبدة سأعطيها تلك الدراهم الثمانية. سيسير كل شيء على ما يرام، لا تقلقي".

- شكرا يا بنيّ. أجابت المرأة: "مسكين بنيّ، إنه يفكر بكل شيء".

أرادت أن أتناول قطعة من السكر، لكن كوريتّي عرض عليّ لوحة فيها صورة لأبيه بالبذلة العسكرية وعليها وسام شرف تقلّده في حرب عام 66 عندما كان يخدم ضمن كتيبة الأمير أومبرتو، كان له وجه الابن نفسه، بعينيه اليقظتين وابتسامته المسرورة. وهكذا، عدنا إلى المطبخ، فقال كوريتّي وهو يكتب على الدفتر: "تذكّرت ذلك الشيء، إنهم يصنعون مستلزمات الأحصنة. سأكمل البقية هذا المساء لأني سأسهر حتى ساعة متأخرة. هنيئا لك لأنّك تملك كل الوقت للدراسة، بل وللتنزّه أيضا!".

كان دائما مرحا ماهرا، وما إن دخل الدكّان حتى بدأ برفع قطع من الخشب على المسند لينشرها، قائلا: "هذه هي الرياضة الحقّة! أين منها حركات دفع الأذرع إلى الأمام؟ أودّ أن أصنع أخشابا بأشكال ملتوية على هيئة الثعابين كما يقول المعلّم. ماذا بوسعي أن أفعل؟ سأقول له إنّي كنت أجرّب يديّ. المهمّ هو أن تتماثل أميّ سريعا للشفاء. بلى، هذا هو المهم. لكنها تحسّنت اليوم حمدا لله. أما القواعد فسأدرسها غدا مع صياح الديك. هاه! ها هي عربة الأخشاب! هيّا إلى العمل".

توقفت عربة مليئة بالأخشاب عند باب الدكان. فجرى كوريتّي ليكلّم الرجل ثم عاد. قال لي: "لن أتمكّن الآن من أن أبقى في صحبتك، إلى اللقاء غدا. لقد أحسنت بالمجيء لزيارتي. تمتّع بنزهتك! هنيئا لك".

جرى بعد أن شدّ على يدي، ثمّ تناول أوّل قطعة خشب وبدأ يهرول بين العربة والدكّان بوجهه المشرق مثل الورد تحت قبعته المصنوعة من وبر الهررة، وكان مفعما بالحيوية التي تبهج فؤاد كل من يراه.

هنيئا لك! هكذا قال لي. لكن، لا يا كوريتّي، لا؛ لأنك الأسعد بيننا، لأنك تدرس أكثر منّا وتعمل أكثر منّا، لأنك أكثر فائدة لأبيك وأمك، لأنك أطيب، أطيب بمائة مرة وأشطر بمائة مرة منّي يا رفيقي العزيز.

المدير

الجمعة 18

كان كوريتّي مسرورا هذا الصباح لأن أستاذه في الصف الثاني، كُواتّي، جاء ليحضر مجريات فحصه الشهري. كان هذا الأستاذ رجلا ضخما، شعره أجعد كثيف، وله لحية سوداء كبيرة وعينان كبيرتان غامقتان وصوت جهوري مُرعد، وكان يهدّد بأن يقطّع الطلبة إربا ويسوقهم من أعناقهم إلى المخفر. وكان يفعل ذلك وهو يبدّل سحنته لتصبح مفزعة ومخيفة، لكنه لم يكن يعاقب أحدا، بل كان يبتسم من دون أن يُظهر ذلك لأحد. هناك ثمانية أساتذة بمن فيهم كُواتّي، وأستاذ احتياطي صغير يبدو صغير السن وخاصة أنه بلا لحية. هناك أيضا أستاذ الرابع، وهو أعرج، يضع ربطة عنق كبيرة من صوف، ترهقه دائما آلامٌ أصابته منذ أن كان أستاذا في الريف يدرّس في مدرسة شديدة الرطوبة كانت جدرانها تنزّ ماء. ثم أستاذ رابع آخر عجوز كلّه أبيض. كان معلما للمكفوفين. وهناك واحد آخر حسن الهندام يضع نظارة وله شارب أشقر، وكانوا يسمونه المحامي الصغير لأنه كان يعلّم وهو يدرس المحاماة أيضا. وبعد أن تخرّج ألّف كتابا عن كيفية تعليم الحروف. أما الذي كان يدرّسنا الرياضة فكان كالجنود، خاصّة وأنه خدم تحت إمرة غاريبالدي، وقد بقي على رقبته أثر جرح من ضربة سيف أصابته في معركة ميلاتسو. ثمّ هناك المدير، وهو طويل، وأصلع، ويضع نظارة ذهبية، وتصل لحيته الرمادية إلى صدره. كان لا يرتدي إلا ثيابا سوداء، ويزرّرها حتى ما تحت ذقنه. كان طيّبا جدّا مع الطلبة، حتى إنّهم عندما يدخلون مرتجفين من الخوف إلى الإدارة عندما يستدعون من أجل تأنيبهم، فإنّه لا يعنّفهم بل كان يأخذ بأيديهم ويقنعهم بالمنطق بأنّه كان يجدر بهم ألا يتصرّفوا على هذا الشكل، وأن يعدوه أن يكونوا طيّبين. وكان يتكلم بطريقة مؤدّبة، وبصوت حنون؛ مما

يجعل الجميع يخرجون محمّري العيون ومضطربين بأشدّ مما لو أنّه عاقبهم. مسكين أيّها المدير، كان دائما أولّ القادمين إلى عمله في الصباح، حيث ينتظر التلاميذ ويستمع لأهاليهم، وعندما يبدأ الأساتذة بالتوجّه إلى بيوتهم فإنه كان يدور حول المدرسة ليراقب التلاميذ كي لا يقع أحد منهم تحت العربات أو لا يتسكّعوا في الطرقات أو لا يملأوا حقائبهم بالرمل والحصى. وكان كلّما لاح في زاوية طريق، وهو الطويل الأسود ذو المنظر المحترم الحزين، كانت جماعات الطلبة تهرب من جميع الجهات، ويترك الجميع ألعابهم في مكانها، بعد أن كان يهدّدهم بسبّابته من بعيد. تقول أمي إنّ أحدا لم يره يضحك منذ أن مات ابنه الذي كان متطوّعا في الجيش، وهناك صورة له موضوعة دائما أمام عينيه على طاولته في الإدارة. بل إنه عزم على ترك العمل بعد تلك المصيبة، وكتب رسالة إلى البلدية يطلب فيها التقاعد، ثم وضعها أمامه على الطاولة وانتظر يوما بعد يوم ليرسلها لأنه كان يستاء من ترك الصبية. لكنه بدا قبل أيام عازما على الأمر، فقال له أبي الذي كان معه في الإدارة: "سيكون مؤسفا بحقّ أن تذهب أيها السيد المدير!". دخل وقتها رجل ليسجّل ابنه الذي انتقل من مدرسة أخرى إلى مدرستنا بعد أن نقل بيته. وعندما رأى المدير ذلك الفتى بدت عليه أمارات الدهشة، فنظر إليه لمدة، ثم نظر إلى الصورة الموضوعة أمامه على الطاولة، ثم عاد لينظر إلى الفتى وهو يسحبه نحوه ويرفع له وجهه. يشبه ذلك الفتى كل الشبه ابنه الميت. قال المدير: "حسنا". ثم أجرى التسجيل وصرف الأب وابنه، وجلس في وضع التأمّل. فكرّر أبي قائلا: "سيكون مؤسفا بحقّ أن تذهب أيها السيد المدير!". عندها تناول المدير كتاب طلب التقاعد ومزّقه إلى نصفين وقال: "سأبقى".

الجنود

الثلاثاء 22

كان ابنه متطوعا في الجيش عندما مات. لهذا، كان المدير يذهب دائما عندما نخرج من المدرسة إلى الشارع الرئيس ليشاهد مرور الجنود. مرّت البارحة كتيبة مشاة، فذهب حوالى خمسين فتى يتقافزون حول الفرقة الموسيقية، ويغنّون، ويضربون بمساطرهم على حقائبهم ودفاترهم على وقع الموسيقى. كنّا واقفين في جماعة لنتفرّج من على الرصيف، غاروني المنكمش في ثيابه الضيّقة جدا وهو ينهش قطعة خبز كبيرة، ثم فوتيني حسن الهندام الذي كان لا يتوقف عن التقاط الأوبار عن ثيابه، ثم بريكوسّي ابن الحداد الذي يرتدي سترة أبيه، والكالابري ذو السحنة الوقحة، بل وحتى روبيتّي ابن قائد المدفعية الذي سبق له أن أنقذ الطفل من تحت الحافلة، وأصبح الآن يسير على عكّازين. عندما ضحك فرانتي في وجه جنديّ أعرج شعر في الحال بيد رجل تربت على كتفه، وحين التفت رأى أنّه المدير. "احذر"، قال له المدير "إنّ السخرية من جنديّ في الطابور لا يستطيع أن ينتقم لنفسه ولا أن يجيب كشتم رجل مقيّد؛ إنها عمل دنيء". وهنا اختفى فرانتي. كان الجنود يمرّون أربعة أربعة، وكانوا متعرّقين ويغطّيهم الغبار، بينما كانت بنادقهم تبرق تحت الشمس. قال المدير: "عليكم أن تحبّوا الجنود أيّها الشباب. إنّهم حماتنا، فهم يضحّون بأنفسهم إذا حاول جيشٌ عدوّ أن يهدّد يوما ما بلادنا. وهم أيضا مجرد فتية، ربّما كانوا أكبر منكم بسنين قليلة، وهم يذهبون إلى المدرسة مثلكم، وهناك بينهم مثلما هو بينكم فقراء وسادة، وهم من كلّ أنحاء إيطاليا. انظروا إليهم، فقد تعرفون من وجوههم من هو قادمٌ من صقلية، أو من سردينيا، أو من نابولي، أو من لومبارديا. هذه الكتيبة كتيبة قديمة من بين الذين قاتلوا في حرب 1848. لا أتكلم طبعا عن

الجنود بل عن الراية، ما زالت هي الراية نفسها. كم مات تحت تلك الراية من أجل بلادنا قبل عشرين سنة من ولادتكم!". فهتف غاروني: "ها هي هنا". وفي الواقع، ظهرت الراية غير بعيدة وهي تتقدّم فوق رؤوس الجنود. فأردف المدير: "اصنعوا شيئا يا أبنائي، قدّموا تحيّة الطلبة، ضعوا أيديكم على جباهكم عندما تمرّ راية الألوان الثلاثة". مرّت الراية أمامنا، وكان يحملها أحد الضباط. كانت ممزّقة باهتة الألوان وقد ثبتت الأوسمة على ساريتها. رفعنا جميعنا في الوقت نفسه أيدينا على جباهنا، فنظر إلينا الضابط مبتسما ثم بادلنا التحية. لذلك، قال أحدهم من ورائنا: "أحسنتم أيها الفتية". التفتنا فرأينا أنّه عجوز يحمل على عروة ثيابه شريطا أزرق من معركة كريميا: إذا، كان ضابطا متقاعدا. وأردف: "أحسنتم، لقد قمتم بعمل جميل". كانت الفرقة الموسيقية تنعطف في نهاية الشارع، وتحيط بها مجموعة من الفتية، بينما كانت المئات من صيحات البهجة تصاحب دويّ الأبواق وكأنها أغانٍ حربية. "أحسنتم". كرّر الضابط العجوز، وقال وهو ينظر إلينا: "إنّ من يحترم العلم وهو صغير سيعرف كيف يدافع عنه وهو كبير".

حامي نيلّلي

الثلاثاء 23

كان نيللي أيضا يشاهد الجنود في الأمس، كان ذلك الأحدب المسكين يراقبهم وكأنّه يقول في نفسه: "أمّا أنا فلن أتمكّن أبدا من أن أصبح جنديّا!". كان طيّبا، مجتهدا، لكنه كان نحيفا وممتقع اللون ويتنفس بصعوبة. وهو يرتدي دائما مئزرا طويلا صنع من قماش أسود لمّاع. كانت أمّه سيّدة صغيرة شقراء ترتدي ثيابا سوداء، وكانت تأتي دائما لتأخذه في نهاية الدوام حتى لا يخرج مع غيره وسط الحشد المضطرب. وكانت تداعب وجنته بيدها. في بداية السنة الدراسية، كان الكثير من الفتية يسخرون منه لأنه مصاب بعاهة الحدبة، بل كانوا يضربونه على ظهره بحقائبهم، لكنه لم يكن يلتفت أبدا، ولم يكن يشتكي أبدا لأمّه حتى لا يؤلمها أن ابنها أضحى أضحوكة بين رفاقه. كانوا يهزأون منه، وكان هو يسكت ثمّ يبكي بعد أن يسند جبهته إلى المقعد. ذات يوم، برز غاروني وقال: "سأنطح أوّل شخص يلمس نيللي، سأنطحه نطحة تجعله يدور ثلاث دورات قبل أن يقع!". لكنّ فرانتي لم يصغِ للتحذير فانطلقت ثلاث نطحات، ودار صديقنا ثلاث دورات، ولم يجرؤ أحد بعدها على لمس نيللي. لذلك، وضع الأستاذُ غاروني مع نيللي في المقعد نفسه. وصارا صديقين، وتعلّق نيللي كثيرا بغاروني، فما إن يدخل المدرسة حتى يبحث عنه، ولا يغادرها قبل أن يقول: "وداعا غاروني". ويفعل غاروني الشيء نفسه معه. وإذا حدث أن سقط قلم أو دفتر من يد نيللي فإن غاروني يحاول ألا يتعبه في الانحناء لالتقاطهما، بل يمسك بالقلم أو الدفتر ويناوله إياه، كما يساعده في ترتيب أدواته ضمن الحقيبة وفي ارتداء المعطف. لهذا كان نيللي يحبّه وينظر إليه، وكان يسرّ جدا عندما يمدحه الأستاذ كما لو أن المديح موجّه إليه. لا بد أن نيللي قد أخبر أخيرا أمّه

بكل شيء حتى بالسخرية التي كان يتعرض لها في الأيام الأولى، والمعاناة التي كانوا يفرضونها عليه، ثم بالرفيق الذي دافع عنه وحماه بعطفه، لأنّ هذا ما حدث هـذا الصبـاح. فقد كلفني الأسـتاذ بحمل برنامج الـدرس إلى المدير وذلك قبل نصف سـاعة من انتهاء الدوام. إذا، كنت في الإدارة عندما دخلت امرأة شـقراء ترتدي ثيابا سـوداء، أمّ نيللي، وقالت: "أيها السـيد المدير، هل يوجد في صفّ ابني فتى يدعى غاروني؟". "أجل". أجاب المدير. "هل تتكرّم باسـتدعائه لبرهة لأني أريد أن أقول له كلمة؟". طلب المدير الآذن وأرسـله إلى المدرسـة، وبعد دقيقة ظهر غاروني عند الباب برأسـه الكبير المحلوق، وعليه علامات الدهشـة. ما إن رأته حتى جرت السيدة نحوه وعانقته وانهالت بقبل كثيرة على رأسه وهي تقـول: "هـل أنـت غارونـي صديـق ابني وحامي طفلي المسـكين، هل هو أنت؟ عزيزي، أيها الفتى الطيب!". ثم فتشت بسرعة في جيوبها وفي حقيبتها ولم تجد شـيئا، فنزعت من عنقها سلسـلة ووضعتها حول عنق غاروني تحت ربطة عنقه وقالـت لـه: "خذهـا، تقلّدها ذكرى مني يا عزيزي، ذكرى أم نيللي التي تشـكرك وتدعو لك".

الأوّل على الصفّ

الجمعة 25

كان غاروني يستحوذ على محبة الجميع، أمّا ديروسّي فعلى إعجابهم. وكان قد حاز على وسام الأولوية. وسيكون الأوّل حتى هذا العام؛ إذ لا يمكن لأحد أن ينافسه، والجميع يعترفون بتفوقّه في كلّ المواد. إنّه الأول في الحساب، وفي القواعد، وفي الإنشاء، وفي الرسم، ويفهم كل شيء بسرعة فائقة، كما أنه يتمتع بذاكرة رائعة، وينجح في كل أمر من دون أن يبذل أي مجهود، وكأنّ الدراسة لعبة بين يديه... قال له الأستاذ البارحة: "لقد وهبك الله نعما كثيرة، وما عليك إلاّ أن لا تفسدها". بل إنه كان ضخم الجسم، ووسيما، يعلو رأسه تاجٌ من الشعر الأشقر الأجعد. وكان سريع الحركة حيث كان قادرا على القفز من المقعد بإسناد يده فقط، وكان قد أتقن المبارزة بالسيف. عمره اثنتا عشرة سنة، وهو ابن لصاحب دكّان، يرتدي دائما ثيابا فيروزية اللون وعليها أزرار مذهّبة، وكان دائم الحبور واليقظة واللطف مع الجميع، ويساعد كلّ من يستطيع مساعدته أثناء الفحص، لذلك لم يتجرأ أحد على أن يسيء إليه أو أن يوجّه له كلمة سيئة. نوبيس وفرانتي فقط كانا ينظران إليه بالمقلوب، كما أنّ عيني فوتيني كانتا تقذفان الحسد قذفا، لكنّه لم يلاحظ شيئا من ذلك أبدا. عندما يمرّ ليجمع الوظائف بطريقته الحلوة اللطيفة يبتسم الجميع في وجهه وهم يأخذونه من يده أو من ذراعه. عادة ما يهدي الصحف المصورّة والرسوم وكل ما يهدونه إيّاه في البيت. كما أنه رسم خريطة جغرافية صغيرة لمنطقة كالابريا، وأعطاها لزميله الكالابريّ. وهو يعطي الأشياء ضاحكا، ولا يعير ذلك اهتماما مثل أي سيّد كبير، كما أنه لا يميّز واحدا عن الآخر. لا يمكن للمرء إلا أن يحسده، وإلا أن يشعر بالنقص أمامه في كل شيء. آه، أنا أيضا أحسده مثل فوتيني. كما أني أشعر بالمرارة،

بـل وببعـض الانزعـاج منه؛ خاصة عندما يصعـب عليّ أن أنفّذ عملي في البيت وأفكر بأنه في هذه الساعة نجح بالقيام بهذا العمل من دون بذل أيّ جهد. لكني ما إن أعود إلى المدرسـة وأراه من جديد وسـيما ضاحكا منتصرا مستبشـرا، ثم أراه وهو يجيب على أسئلة الأستاذ بثقة وصراحة، ولطيفا مع الجميع والجميع يحبّونه، ما إن يحدث كلّ هذا حتى أشعر أنّ المرارة والانزعاج قد غادرا قلبي، بل وأخجل من نفسي لأنيّ شعرت بمثل تلك الأحاسيس. كم كنت أودّ عندها أن أكون قربه، وأن أكون في كل المدارس التي سيدرس فيها، فوجوده وصوته يمنحانني الشجاعة والرغبة في العمل والمرح واللذّة. كلّفه الأستاذ بنسخ القصة الشهرية التي سيقرأها غدا: رقيبٌ صغير من لومبارديا، فبدأ بنسخها هذا الصباح وهو متحمّس لتلك الأعمال البطولية. وكان وجهه يشتعل وعيناه مبللتين، وفمه يرتجف. كنت أنظر إليه وأقول كم هو وسيم ونبيل! كنت سأشعر بلذة عارمة لو قلت له وجها لوجه وبصراحة: "إنك أجدر مني في كلّ شيء يا ديروسّي! إنك رجل بالغ بالمقارنة معي! إني أحترمك وأقدّرك!".

رقيبٌ صغير من لومبارديا

قصة شهرية

السبت 26

في عام 1859 خلال حرب تحرير لومبادريا، وبعد أيام قليلة على معركة سولفيرينو وسان مارينو التي انتصر فيها الفرنسيّون والإيطاليون على النمساويين، وفي صباح يوم جميل من أيام شهر حزيران، كانت تشكيلة صغيرة من فرسان سالّوتسو تسير على درب مقفر متّجهة بخطى بطيئة نحو العدو وهي تستكشف المنطقة الريفية بحذر وانتباه. كان يقود التشكيلة ضابط ورقيب، وكان الجميع ينظرون بعيدا إلى الأمام بنظرات ثابتة صامتين ومستعدّين لكي يروا بين فينة وأخرى بريق بذّاتِ طلائع العدو يلمع بين الأشجار. وصلوا إلى بيت ريفيّ تحيط به أشجار البلّوط، وكان أمامه فتى لا يتجاوز عمره اثنتي عشرة سنة. كان يجلس وحيدا، وهو يقشّر بالسكين لحاء غصن كان في يده ليصنع منه عصا، وكان علمٌ إيطالي عريض يتدلّى بألوانه من إحدى النوافذ، لم يكن هناك أحدٌ في الداخل، فقد نصب الفلاحون ذلك العلم ثمّ هربوا خوفا من النمساويين. ما إن رأى الفتى الفرسان حتى رمى العصا ونزع قبّعته. كان فتى وسيما، مشرق الوجه، ذا عينين واسعتين زرقاوين وشعر أشقر طويل. كان يرتدي قميصا يظهر صدره العاري.

"ماذا تفعل هنا؟". سأله الضابط وهو يوقف الحصان. "لماذا لم تهرب مع عائلتك؟".

"ليس لي عائلة". أجاب الفتى. "إني لقيط وأعمل مع الجميع. بقيت هنا لأشاهد الحرب".

- هل مرّ نمساويون من هنا؟

- لا، لم يمرّوا منذ ثلاثة أيام.

فكّر الضابط لمدة، ثم قفز من على الحصان، وترك جنوده متجهين بوجوههم نحو العدو ودخل البيت، ثم صعد إلى السطح... كان البيت منخفضا ولا يمكن للمرء أن يرى من على السطح سوى قطعة صغيرة من الأرض. قال الضابط: "لا بد من تسلّق الأشجار". ثم نزل من على السطح. كانت شجرة بلّوط تنتصب أمام الفناء، وكانت قمّتها تهتز في زرقة السماء. غرق الضابط لبرهة في التفكير وهو ينظر مرّة إلى الشجرة ومرّة إلى الجنود، ثم سأل الفتى فجأة:

- هل نظرك حادّ أيها الفتى؟

"أنا؟". أجاب الفتى. "إني أرى عصفور السنونو على بعد ميل".

- هل تستطيع تسلّق هذه الشجرة حتى قمّتها؟

- إلى قمة الشجرة؟ أنا؟ أتسلقها في نصف دقيقة.

- وهل تستطيع عندها أن تخبرني بما تراه من الأعلى؛ أي إذا كان هناك جنود نمساويّون، أو سحب غبار، أو بريق بنادق، أو خيول؟

- من المؤكد أنّي أستطيع.

- ماذا تطلب لكي تصنع لي هذه الخدمة؟

- ماذا أريد؟ قال الفتى مبتسما. "لا شيء. هذا غريب!". ثم... "لو كان هذا العمل لمصلحة الألمان، فلن أقوم به مهما كان الثمن، لكنّه لجماعتنا! إنّي من لومبارديا".

- حسنا. اصعد إذا.

- لحظة، ريثما أخلع نعليّ.

خلع نعليه، وحزم رباط سرواله، ثم رمى قبّعته على الأرض وعانق جذع البلّوطة.

صاح الضابط: "لكن، عليك الحذر...". وحاول أن يوقفه، وكأنّ خشية ما اعترته فجأة.

التفت الفتى ونظر إليه بعينيه الزرقاوين الجميلتين متسائلا.

فقال الضابط: "لا شيء، اصعد".

تسلق الفتى الشجرة وكأنه قطّ.

صاح الضابط بجنوده: "انظروا أمامكم".

أصبح الفتى في دقيقة على قمة الشجرة وقد التصق بالساق، ساقاه بين الأوراق، وصدره مكشوف، والشمس ترقع رأسه الأشقر الذي يبدو من ذهب. كان الضابط لا يستطيع أن يراه إلا قليلا، لأنه بدا صغيرا جدا على ذلك الارتفاع.

صاح الضابط: "انظر إلى الأمام وبعيدا".

رفع الفتى يده اليمنى عن الشجرة ووضعها على جبهته ليرى أمامه بشكل أفضل.

سأله الضابط: "ماذا ترى؟".

خفض الفتى رأسه نحوه وأشار بيده ليقول: "أرى رجلين على صهوة حصانين، يعبران الطريق الأبيض".

- على أي مسافة من هنا؟

- نصف ميل.

- هل يتحرّكان؟

- إنهما واقفان.

- ماذا ترى أيضا؟ سأل الضابط بعد برهة صمت، ثم تابع:

- انظر نحو اليمين.

نظر الفتى نحو اليمين، ثم قال: "هناك قرب المقبرة، بين الأشجار، هناك شيء يلمع. يبدو أنها بنادق".

- هل ترى أناسا؟

- لا، ربما كانوا مختبئين بين القمح.

في تلك اللحظة، عبر أزيز طلقة حادّ الهواء، ثم خمد بعيدا وراء البيت.

فصاح الضابط: "انزل يا فتى! لقد رأوك. لا أريد شيئا آخر، انزل".

أجاب الفتى: "لست خائفا".

فكرّر الضابط: "انزل... ماذا ترى أيضا، على اليسار؟".

- على اليسار؟

- نعم، على اليسار.

اتّجه الفتى برأسه إلى اليسار، فعبرت الهواء طلقة أخرى بصفيرٍ أشدّ حدّة، وكانت أشد انخفاضا من سابقتها. ارتعش الفتى وهو يتمتم: "تبّا! إنهم يقصدونني بالذات!". فلقد مرّت الطلقةُ ليس بعيدا عنه.

صاح الضابط وقد استشاط غضبا: "انزل!".

فأجاب الفتى: "سأنزل في الحال. لكنّ الشجرة تحميني، لا تخف. هل تريد معرفة ماذا أرى على اليسار؟".

أجاب الضابط: "على اليسار؟ لكن انزل".

صاح الفتى وهو يميل بجذعه في ذلك الاتجاه: "على اليسار، توجد دار عبادة ويبدو لي أنيّ أرى...".

مرّت طلقة أخرى غاضبة في الأعلى، فشوهد الفتى وهو يسقط فجأة، وقد حاول التمسّك بالجذع والأغصان قبل أن يهوي على رأسه مشرّع الذراعين.

صاح الضابط وهو يجري: "اللعنة!".

ارتطم ظهر الفتى بالأرض، وبقي مسجى على ظهره مفتوح الذراعين، فيما الدم ينزف من يسار صدره. ترجّل الرقيب وجنديّان من على الأحصنة، بينما انحنى الضابط ليفتح له قميصه. لقد دخلت الطلقة رئته اليسرى. "مات!". صاح الضابط. "لا، إنّه حيّ". أجاب الرقيب. "آه، يا للفتى المسكينّ، يا للفتى الشجاع!". صاح الضابط. "تشجّع، هيّا!". لكن بينما كان يطلب منه أن يتشجّع وهو يضغط بالمنديل على جرحه، زاغت عينا الفتى ومال برأسه، لقد مات. امتقع وجه الضابط، ثم نظر إليه لبرهة بثبات قبل أن يسوّي له رأسه فوق العشب وينهض لينظر إليه من جديد. كان الرقيب والجنديان ينظران إليه أيضا، أما الآخرون فبقوا متوجّهين نحو العدو.

"يا للفتى المسكين!". كرّر الضابط بأسى، "يا للفتى المسكين الشجاع!".

توجّه بعدها إلى البيت، فأخذ العلم الإيطالي، ولفّ به جثة الميت الصغير تاركا الوجه مكشوفا. أخذ الرقيب من جانب الميت الحذاء والقبّعة والعصا

والسكّين.

بقوا للحظة أخرى غارقين في صمتهم، ثم التفت الضابط نحو الرقيب وقال له: "سنرسل في طلب سيّارة إسعاف لتحمله. لقد مات ميتة عسكريّة، وسيدفنه الجنود". بعدها، قام بإرسال قبلة بيده إلى الميت، ثمّ صاح: "إلى الخيل". فقفز الجميع على صهوات الخيل، وتكاملت التشكيلة واستأنفت سيرها.

بعد ساعات قليلة، جرت مراسم الشرف للميت الصغير.

عند غياب الشمس، كان كل خطّ المواقع الأماميّة الإيطالية يتقدم نحو العدو، وعلى خطّ سير تشكيلة الفرسان هذا الصباح نفسه، وكانت تتقدّم في صفّين كتيبةُ رماةٍ كبيرة كانت قد أظهرت بسالتها قبل أيام عندما لطّخت بالدم هضبة سان مارتينو. وكان خبر موت الفتى قد شاع بين أولئك الجنود قبل أن يتركوا مخيّماتهم. كان الدرب الذي يحاذي الترعة يمر على بعد خطوات من البيت. عندما رأى أوائل الضباط تلك الجثة ممدّدة تحت البلّوطة ملفوفة بالعلم ذي الألوان الثلاثة، قدّموا له التحيّة بسيوفهم، وانحنى أحدهم على طرف الترعة المزهر واقتلع زهرتين ورماهما عليه. وكذلك فعل الرماة كلّهم عندما مرّوا به الواحد بعد الآخر، فقطفوا الزهور ورموها على الميت. وفي دقائق معدودة، كانت الجثة مغطاة بالزهور، وكان الضبّاط والجنود يقدّمون التحية عند مرورهم: يا للومبارديّ الصغير الشجاع! وداعا يا فتى! لك التحية أيها الفتى! لك التحية أيها الأشقر الصغير! عاش عاش! لك المجد! وداعا! ألقى أحد الضباط بوسام استحقاق كان يحمله، وذهب آخر ليقبّل جبهته. بينما واصل الآخرون رمي الزهور على قدميه العاريتين وعلى صدره الدامي وعلى شعره الأشقر. كان هو نائما بين الأعشاب ملفوفا برايته، ووجهه أبيض، ويبدو كما لو أنّه يبتسم. يا للفتى المسكين، كما لو أنه كان يسمع تلك التحيّات، وكأنّه كان سعيدا لأنه وهب حياته في سبيل منطقته لومبارديا.

الفقراء

الثلاثاء 29

إن بذْل الحياة في سبيل الوطن كما فعل الفتى اللومبارديّ فضيلة كبرى. لكن، ليس عليك يا بنيّ أن تقلّل من أهميّة الفضائل الصغيرة. كنت تسير هذا الصباح أمامي في طريق العودة من المدرسة فمررنا بجانب امرأة كانت تضع في حضنها ابنها الهزيل شاحب الوجه، وقد طلبت منك صدقة، لكنّك نظرت إليها ولم تعطها شيئا رغم أنك كنت تملك نقودا في جيبك. اسمع يا بني. لا تعوّد نفسك على المرور أمام بؤسٍ يمدّ يده لك، وأقلّه أمام أمّ تطلب درهما لطفلها من دون أن تفعل شيئا. فكّر، فلربما كان ذلك الطفل جائعا! فكّر بعذاب تلك الأمّ. هل تخيّلت تنهّدات القنوط التي قد تصدرها أمّك المسكينة إذا توجّب عليها ذات يوم أن تقول لك: "إنّي لا أستطيع أن أقدّم لك اليوم يا أنريكو ولا حتّى الخبز"؟ عندما أعطي درهما لشحّاذ ويقول لي: "فليحفظ الله الصحّة عليك وعلى أولادك!". إنك لا تستطيع فهم الحلاوة التي تدخلها تلك الكلمات على قلبي، وأيّ امتنان أشعر به تجاه ذلك الفقير. يبدو لي أن ذلك الدعاء سيحفظ صحتي لمدة طويلة فأعود إلى البيت سعيدا وأنا أفكّر: "لقد أعطاني ذلك الفقير أكثر بكثير ممّا أعطيته إياه". حسنا، حاول في بعض الأحيان أن تكون السبب في ذلك الدعاء وأن تستحقّه. انزع شيئا فشيئا دراهم من كيسك الصغير واجعلها تسقط في يد عجوز بدون معيل، أو أمّ بدون خبز، أو طفل بدون أمّ. إنّ الفقراء يحبون الصدقة التي يقدّمها الصغار لأنها لا تذلّهم، ولأن الصغار بحاجة للجميع مثلهم. ألا تعرف أنّ هناك الكثير من الفقراء حول المدرسة. إن صدقة الرجل عمل خيري، أمّا صدقة الطفل فهي عمل خير وملاطفة ومداعبة في الوقت نفسه، هل تفهم؟ إنّها بالأحرى وردة يقدّمها الطفل في صورة درهم. فكّر أنّه لا ينقصك

شيء، بينما ينقصهم كلّ شيء، وأنه بينما تريد أنت أن تصبح سعيدا فإنه يكفيهم ألاّ يموتوا. فكّر كم هو مرعب أن تجد نساء وأطفالا لا يجدون ما يقتاتون به بينما تحيط بهم أبنيةٌ كثيرة وطرقٌ تعبرها عرباتٌ ويسير عليها أطفالٌ يرتدون ثيابا مخمليّة. وألاّ يجد المرء ما يقتات به، يا إلهي! فتيان مثلك، طيّبون مثلك، أذكياء مثلك، لكنّهم لا يجدون طعاما يقتاتون به رغم أنّهم يعيشون في مدينة كبيرة، وكأنّهم وحوش تائهة في القفار! أتمنى ألاّ يتكرر هذا أبدا يا أنريكو. لا تمرنّ مرّة أخرى أمام أمٍّ تشحذ من دون أن تضع درهما في يدها!

أمك

كانون ثاني/ يناير

التاجر

الخميس 1

رغب أبي أن أدعو إلى البيت في كل يوم عطلة واحدا من أصدقائي، أو أن أذهب لزيارته؛ وذلك لأصبح شيئا فشيئا صديقا للجميع. سأذهب يوم الأحد للتمشّي مع فوتيني، ذاك حسن الهندام الذي يتلمّع دائما، ويحسد ديروسّي أيّما حسد. أما اليوم فقد جاء إلى البيت غاروفّي، ذاك الطويل النحيف الذي يشبه أنفه منقار البوم وله عينان صغيرتان خبيثتان يظهر أنهما تنقّبان في كل مكان. إنه ابن بقّال، وله شخصية مميزة. فهو يعدّ دائما ما في جيبه من نقود، ويعدّ بسرعة كبيرة على أصابعه، ويجري أي عملية حسابية من دون اللجوء إلى جدول الضرب. كما أنه يوفّر ويجمع حتى صار عنده دفتر توفير في صندوق التوفير المدرسي. أراهن أنه لا ينفق درهما، وإذا حدث أن وقع منه درهم تحت المقعد فإنه على استعداد للبحث عنه طيلة الأسبوع. يقول ديروسّي إنه مثل الغربان؛ يلمّ كلّ شيء يعثر عليه، سواء أكان أقلاما مهترئة أو طوابع مستعملة أو دبابيس أو بقايا شموع. منذ سنتين وهو يجمع الطوابع، ويملك المئات منها من كل البلدان، وقد وضعها في ألبوم كبير سيبيعه في المكتبة عندما يكتمل. ويبدو أن صاحب المكتبة بدأ يعطيه الدفاتر مجّانا لأنه يجلب له زملاءه. كما أنه لا يفتر عن المتاجرة حتى داخل المدرسة، ويبيع كلّ يوم أشياء كثيرة، ويراهن ويقايض، وإذا ندم على ما قايض به فإنه لا يتوانى عن المطالبة به، يشتري باثنين ويبيع بأربعة، يلعب لعبة الأقلام ولا يخسر أبدا، يبيع الصحف القديمة لكشك الصحف ويسجل دائما أعماله على دفتر خاص مليء بأرقام الجمع والطرح. لا يدرس في المدرسة إلاّ الحساب، وإذا أراد أن يحصل على وسام التقدير فلكي يتمكّن من الدخول مجّانا إلى مسرح العرائس. إنّه يعجبني لأنه يسلّيني.

لعبت معه لعبة السوق بالأثقال والموازين، ووجدت أنّه يعرف سعر كل الأشياء معرفة صحيحة، ويعرف الأوزان، ويغلّف البضائع بسرعة مثل البائعين. يقول إنه سيفتح دكانا عندما ينتهي من الدراسة، وسيبدأ فيها بتجارة جديدة يقول إنه اخترعها. كان مسرورا جدّا لأنّي أعطيته طوابع أجنبية؛ حتى إنّه أخبرني بكم يمكن أن يبيع كلاً منها ضمن المجموعات. كان أبي يتصنّع قراءة صحيفته، لكنّه كان يتنصّت مستمتعا بحديثه. كانت جيوبه منتفخة على الدوام ببضائعه الصغيرة التي كان يغطّيها بستار أسود طويل، وكان يبدو أنّه مشغول باستمرار ومستغرق في التفكير وكأنّه تاجر من أصحاب الحوانيت. لكن، ما كان يشغله بالفعل هو مجموعة الطوابع. إنّها كنزه الحقيقي الذي يكثر الحديث عنه؛ كما لو أنه سيستمد منه حظّا عظيما. ينعته رفاقه بالبخيل والمرابي. أمّا أنا فلا أعرف ماذا أقول لأني أحبّه ولأني أتعلّم منه أمورا كثيرة، فهو مثل الرجال. يقول عنه كوريتّي ابن بائع الحطب إنّه لا يتنازل عن طوابعه حتّى مقابل إنقاذ حياة أمه. لكنّ أبي لا يصدّق هذا، إذ قال لي: "انتظر بعض الوقت قبل أن تحكم عليه. هذه هوايته، لكنّ لديه عواطف وقلبا".

تبختر وتكبّر

الاثنين 5

ذهبت البارحة للتنزّه في شارع ريفولي الكبير مع فوتيني وأبيه. وعندما وصلنا إلى شارع دورا غروسّا رأينا ستاردي الذي يركل المزعجين. كان واقفا أمام واجهة مكتبة وعيناه تحدّقان بخريطة معروضة هناك منذ مدة طويلة، وذلك لأنّه يدرس حتى لو كان في الطريق، لهذا ردّ على تحيّتنا مرغما ذلك الفظُّ الخشن. كان فوتيني حسن الهندام، بل أكثر من اللازم، وينتعل حذاء مغربيّا مطرّزا بالأحمر، ويرتدي ثوبا مزيّنا بشرائط حريريّة وقبّعة سمّور أبيض، ويتقلّد ساعة كذلك. كان يتبختر مثل الطاووس. لكن تبختره جاء هذه المرة على عكس ما يريد. فبعد أن قطعنا مسافة معتبرة من الطريق تاركين أباه وراءنا لأنّه كان يسير الهوينا، توقفنا أمام مقعد حجريّ إلى جانب فتى يرتدي ثيابا متواضعة، وكان يفكّر مطأطئ الرأس وتبدو عليه علامات التعب. كان قربه رجل بدا أنّه الأب، وكان يقرأ الصحيفة وهو يتمشى جيئة وذهابا تحت الأشجار. جلسنا. جلس فوتيني بيني وبين الفتى. وفي الحال، تذكّر أنه حسن الهندام، ورغب بأن يثير إعجاب جاره بل وحسده أيضا. وهكذا، رفع قدمه وقال لي: "هل رأيت حذاء الضباط الذي أنتعله؟". قالها لكي يجبر جاره على النظر إليه. لكنّ ذاك لم يكترث البتة. عندها، تراجع بقدمه وقال وهو يعرض أشرطة الحرير وينظر خلسة إلى الفتى إنّه لا يحبّ تلك الأشرطة وينوي أن يستبدلها بأزرار من الفضة. لكنّ الفتى لم يعر تلك الأشرطة أيّ نظرة. عندها، بدأ فوتيني يدوّر بسبّابته قبّعته الجميلة جدا المصنوعة من جلد السمّور الأبيض. لكن، بدا أنّ الفتى لا يعير عن عمد أيّ اهتمام لشيء من هذا، ولا حتى القبّعة. بدأ غضب فوتيني يثور، فسحب الساعة وفتحها وأراني آلاتها. لكنّ الفتى لم يلتفت برأسه البتة. لذلك

سألته: "هل هي مصنوعة من الفضّة المذهّبة؟". فأجاب: "لا، إنها من الذهب". فقلت: "لن تكون كلّها من ذهب، لا بد أنّ فيها بعض الفضّة". "أبدا!". أردف ثم أراد أن يجبر الفتى على أن ينظر إليها فوضعها أمام وجهه وقال له: "قل يا هذا، أليست حقا كلّها من ذهب؟".

أجاب الفتى بجفاء: "لا أعرف".

فصاح فوتيني وقد ملأه الغضب: "أوه! أوه! يا للتكبّر!".

ما إن قال هذا حتى وصل الأب الذي سمع الحديث فثبّت نظره للحظة في ذلك الفتى ثم قال لابنه: "الزم الصمت". وانحنى ليهمس في أذن الفتى قائلا: "إنه أعمى".

انتصب فوتيني واقفا وهو يرتعش ونظر إلى وجه الفتى. كان محجرا عينيه بلّوريّي المنظر ولا ينمان عن تعبير، كان بدون نظر.

بدا فوتيني محبطا، ضاع منه الكلام، وخفض بصره إلى الأرض. ثم تمتم قائلا: "إنّي آسف... لم أكن أعرف".

لكنّ الأعمى فهم كل شيء، فقال بابتسامة طيّبة وحزينة: "أوه! لا بأس".

حسنا، إنه صلف، لكن لفوتيني قلبا طيّبا وهو ليس سيّئ المشاعر. لم تصدر عنه أي ضحكة طيلة سيرنا.

الثلجة الأولى

السبت 10

وداعا للتنزّه في شارع ريفولي. لقد جاءت صديقةُ الصِبْيَة الجميلة! ها هو أوّل ثلج يتساقط! إنه يتساقط منذ مساء البارحة بقطع كبيرة وكثيفة ومتتالية؛ كأنّه زهور الياسمين. ولقد سررنا أشدّ السرور عندما رأينا الثلج يتساقط هذا الصباح على نوافذ المدرسة ويتكوّم على عتباتها. كان الأستاذ بذاته يتأمّلها وهو يفرك يديه، وكان الجميع مسرورين وهم يفكّرون كيف سيصنعون كرات الثلج، وبالصقيع الذي سيتشكّل وبمدافئ البيت. ستاردي فقط لم يهتم بالأمر كلّه، بل بقي مستغرقا في الدرس وقد كوّم قبضتيه فوق صدغيه. يا للجمال! كم احتفلنا بهذا عند الانصراف! كان الجميع يتمايلون جذلين في الشوارع، ويتصايحون ويتدافعون بالأذرع، ويتلقّون حفنات الثلج ويضربون بأرجلهم فيه كأنهم جِراءٌ وقعت في الماء. أما أقرباؤهم الذين كانوا بانتظارهم خارج المدرسة فقد رفعوا مظلاّتهم التي صارت بيضاء مثل قبّعات الشرطة المدنيّة، ومثل كلّ حقائبنا التي أصبحت في دقائق معدودة بيضاء هي الأخرى. بدا الجميع وكأنّهم خرجوا عن أطوارهم من شدّة الفرح، وكان من بينهم بريكوسّي ابن الحدّاد ذو الوجه الممتقع الذي لا يضحك أبدا، بل إن روبيتّي الذي أنقذ الطفل من تحت الحافلة بدأ هو الآخر يتقافز بعكازيه. أما الكالابريّ الذي لم يلمس الثلج أبدا فقد كوّر كرة وشرع يلتهمها وكأنها ثمرة دراق. وملأ كروسّي ابن بائعة الخضار حقيبته بالثلج، بينما جعلنا المعماري الصغير نتفجر من شدة الضحك عندما دعاه أبي ليأتي إلى بيتنا في الغد فلم يتمكن من الإجابة لأنَ فمه كان مليئا بالثلج، ولم يتمكن من ابتلاعه أو من بصقه. خرجت المعلّمات أيضا مسرعات من المدرسة وهنّ يتضاحكن. أمّا المسكينة معلّمتي في الصفّ الأوّل المتقدّم فكانت تجري

بعكس تساقط الثلج وهي تسعل وتحمي وجهها بخمارها الأخضر. بينما مرّت مئات فتيات المدرسة القريبة وهنّ يصحن ويتقافزن فوق ذلك البساط الأبيض الناصع، أمّا المعلّمون والأذنة والحرس فكانوا يصيحون: "هيّا إلى بيوتكم! إلى البيوت!". ذلك بينما كانوا يبتلعون ندف الثلج التي كانت تصبغ الشوارب والذقون باللون الأبيض. لكنّهم كانوا هم أيضا يضحكون من أمواج التلاميذ المحتفلين بالشتاء...

- إنكم تحتفلون بالشتاء، لكنّ هناك صبية لا يملكون ثيابا ولا أحذية ولا نارا للتدفئة. هناك الآلاف منهم يسيرون لمسافات طويلة نحو القرى ليحملوا بأيديهم التي يدميها الصقيع قطع حطب يدفئون بها مدارسهم. هناك مئات المدارس كالأوكار المدفونة تحت الثلج عارية وكئيبة، فيها فتية يخنقهم الدخان وتصطكّ أسنانهم من البرد وهم ينظرون إلى الموت. الندف البيضاء تتساقط بلا انقطاع وتتراكم فوق أكواخهم البعيدة المهدّدة بالانهيارات. إنكم تحتفلون بالشتاء أيّها الفتية، لكن عليكم أن تفكّروا بآلاف المخلوقات التي يحمل الشتاء إليها البؤس والموت.

أبوك

المعماريّ الصغير

الأحد 11

جاء اليوم "المعماريّ الصغير" بثياب الصيّادين. كان يرتدي ملابس أبيه القديمة التي ما زالت ملوثة بالجصّ والكلس. كان أبي يرغب بقدومه أكثر مني. وكم سُررنا بزيارته. ما إن دخل حتى نزع قبّعته الرثّة المبللة بالثلج ودسّها في جيبه، ثم توجّه نحونا متكاسلا بمشية العامل المنهك. كان يتلفّت يمنة ويسرة بوجهه المستدير كالتفاحة وأنفه الشبيه بالرصاصة. عندما دخل غرفة الطعام، جال بنظره حول الأثاث، وما لبث أن قلّد "سحنة الأرنب" عندما وقع نظره على لوحة تصوّر شخصية ريغوليتّو المهرّج الأحدب. من الصعب الامتناع عن الضحك عند رؤيته وهو يقلّد "سحنة الأرنب". بدأنا باللعب بقطع الخشب؛ فهو يتمتع بمقدرة فائقة على صنع أبراج وجسور معلّقة بأعجوبة، ويبنيها بصبر وأناة الرجال. بين برج وآخر تحدث لي عن عائلته. فهم يعيشون في سقيفة، وأبوه يداوم في مدرسة مسائية ليتعلّم القراءة والكتابة، وأمّه تعمل غسّالة. من المفهوم أنهم يحبّونه لأنه وإن كان يرتدي ملابس الفقراء فإن ملابسه تقيه البرد، وقد أحسنت أمّه تصليحها، وربطت له ربطة العنق بطريقة جيّدة. قال لي إنّ أباه رجل بالفعل، عملاق يكاد لا يدخل من الباب، لكنه طيّب وينعت ابنه دائما بلقب "سحنة الأرنب"، أما الابن فصغير الحجم. في الرابعة، تناولنا معا وجبة خفيفة من الخبز والزبيب ونحن جالسان إلى الأريكة. وعندما نهضنا لا أدري لماذا لم يقبل أبي بأن أنظّف ظهر الأريكة بعد أن تركت سترة المعماريّ الصغير بقعة بيضاء عليه، لقد أمسك يدي وأوقفني، لكنّه ما لبث أن قام بتنظيفها بنفسه في الخفاء. وكان المعماريّ الصغير قد قطع أحد أزرار سترته الصيّادية وهو يلعب معي، فخاطته له أميّ، فاحمرّ وجهه خجلا وكتم أنفاسه وهو ينظر إليها

بدهشة واضطراب. ثم إنّي أعطيته ألبوم صور كاريكاتورية فبدأ من دون إدراك منه يقلّد حركات تلك الوجوه، قلّدها بإتقان؛ حتى إنه أضحك أبي. كان سعيدا جدّا حيث نسي وهو يهمّ بالخروج أن يضع قبّعته الخرقة. لكنه ما إن وصل إلى عتبة السلّم حتى التفت نحوي وقلّد سحنة الأرنب مرة أخرى كنوع من اعترافه بالجميل. اسمه آنتونيو رابوكّو، وعمره ثماني سنوات وثمانية أشهر...

- هل تعرف يا بنيّ لماذا لم أرغب بأن تنظّف الأريكة؟ لأن تنظيفها وهو يشاهدك قد يعني تأنيبه على توسيخه لها. وهذا ليس جيّدا؛ لأنه أوّلا لم يفعل هذا عن قصد منه، وثانيا لأنّه وسّخها بثياب أبيه التي تلوّثت بالجصّ خلال العمل، ولهذا فهو ليس وسخا على الإطلاق، بل مجرّد غبار أو كلس أو دهان أو أي شيء آخر تريده؛ لكنه ليس وسخا. لأن العمل لا يوسّخ. ولا تقل أبدا عن عامل قادم من عمله إنّه وسخ، بل قل إنّ على ثيابه علامات العمل وآثاره. تذكّر هذا. أحبَّ هذا المعماريّ الصغير لأنّه أولا رفيق لك، ولأنه ثانيا ابن عامل.

أبوك

المعلّمات

السبت 17

كان غاروفّي اليوم خائفا مرتعبا وهو ينتظر عقاب أستاذه، لكنّ الأستاذ لم يأتِ، بل إن مساعده غاب أيضا فجاءت السيدة كرومي وهي أقدم المعلّمات، وعندها ابنان كبيران، كما أنها علّمت القراءة والكتابة للكثير من السيدات اللائي يأتين الآن لمرافقة أبنائهنّ إلى مدرسة باريتّي. كانت اليوم حزينة لأن ابنها مريض. ما إن رأوها حتى بدأوا بافتعال الضجيج، لكنها قالت بصوت هادئ وبطيء: "احترموا شعري الأبيض، أنا لست معلّمة فقط بل إنّي أمّ أيضا". لم يجرؤ أحد بعد هذا على الكلام، ولا حتى فرانتي الوقح الذي اكتفى بالسخرية منها في الخفاء. ذهبت إلى صفّ كرومي المعلّمةُ ديلكاتي معلمة أخي، وذهبت عوضا عن ديلكاتي معلّمةٌ كانوا ينعتونها "المتبتّلة الصغيرة" لأنها كانت ترتدي دائما ثيابا قاتمة اللون ومئزرا أسود، بينما كان وجهها صغيرا أبيض، وشعرها أملس، وعيناها فاتحتين جدا، وصوتها ناعما؛ حتى إن من يسمعها يحسبها مستغرقة في تمتمات التسبيح والدعاء. تقول أمي إنّ أحدا لا يفهم ماذا تقول بذلك الصوت الرقيق الذي لا يكاد يسمع، وهي اللطيفة الخجولة التي لا تصرخ أبدا ولا تغضب البتة. ومع هذا، فإنها قادرة على ضبط التلاميذ، فلا يسمع لهم صوت، حتى إنّ الصغار يحنون رؤوسهم حالما تحذّرهم بإصبعها، وهكذا فإن مدرستها تبدو كأنها دار عبادة وهذا سبب آخر لنعتها بالمتبتّلة الصغيرة.

هناك معلّمة أخرى تعجبني أيضا، إنها معلّمة الصف الأول الابتدائي رقم 3، وهي صبيّة لون وجهها وردي، وعلى خدّيها غمّازتان جميلتان، وتضع ريشة ورديّة كبيرة على قبّعتها، كما تضع سلسلة حول رقبتها. إنها دائما مرحة، وتشيع الحبور في الصفّ كلّه لأنها تبتسم على الدوام، وعندما تصيح بصوتها الفضّيّ

يبـدو وكأنّهـا تغنّـي، وهي تضرب بعصاها على الطاولة، وتصفّق بيديها من أجل أن تفـرض الصمـت والسـكوت. أمّـا عندما يخرج التلاميـذ فهي تجري كالطفلة الصغيـرة وراء هـذا وذاك لتعيـد الجميع إلى الطابور، أو لتسـوّي ياقة أحدهـم أو لتزرّر له معطفه كي لا يتسرّب البرد إلى جسمه، بل وتلحق بتلاميذها حتّى إلى الشارع كي لا يتعثّروا، ثم ترجو أهلهم كي لا يعاقبوهم في البيت. وكانت تحمل حبوب الأدوية وتعطيها لمن يسـعل، وتعير معطفها لمن يشـعر بالبرد، ولا تبالي بـأذى صغـار التلاميـذ الذين يلحّون عليها بمداعبات أيديهم، وبطلب القُبل وهم يشـدّونها من خمارها أو من طرف سـترتها، بل تتركهم يفعلون كلّ هذا وتعطي القبـل للجميـع وهـي تضحـك. ثم إنّها تعود كل يوم إلى البيت منفوشـة الشـعر ومبحوحة الصوت لاهثة، ولكنها سعيدة، ويظهر الفرح على غمّازتيها الجميلتين، بل وعلى ريشتها الحمراء. كما أنها تدرّس مادّة الرسم للفتيات وذلك لأنها تعيل بعملها كلاً من أمّها وأخيها.

في بيت الجريح

الأحد 18

كان في صفِّ المعلمة ذات الريشة الحمراء ابن أخِ الموظّف الهرم الذي ضربت عينَه كرةُ الثلج التي سدّدها غاروفّي. رأيناه اليوم في بيت عمّه وهو يعامله مثل ابنه. وكنت قد انتهيت من كتابة القصّة الشهرية الخاصة بالأسبوع المقبل، وهي كاتب فلورنسة الصغير التي أعطاني إياها الأستاذ لأنسخها، قال لي أبي: "فلنذهب إلى الطابق الرابع لنرى حال عين ذلك السيّد. دخلنا غرفة شبه مظلمة، كان العجوز يجلس فيها على سرير ووراء ظهره الكثير من الوسائد، وكانت زوجته تجلس إلى جانب السرير. وفي الزاوية، كان ابن الأخ يتلهّى. كانت عين العجوز مغطّاة بكمّادة طبّية. وقد سرّ جدّا لرؤية أبي، وطلب منّا الجلوس، وقال إنّ وضعه يتحسّن وإنّه لم يفقد عينه، لا بل سيتعافى في غضون أيّام قليلة. وأضاف: "كانت مصيبة. لكنّ ما آلمني حقّا هو الفزع الذي لا بد أنّه نال من ذلك الفتى المسكين". ثم حدّثنا عن الطبيب الذي قال إنّه قادم ساعتها ليعالجه. في اللحظة نفسها قُرع الجرس، فقالت السيدة: "إنه الطبيب". فُتح الباب... ومن رأيت غاروفّي بمعطفه الطويل منتصبا عند الباب، ومنحني الرأس لا يملك شجاعة الدخول. سأل المريضُ: "من هناك؟". فأجاب أبي: "إنّه الفتى الذي قذف كرة الثلج". قال العجوز عندها: "يا للفتى المسكين! ادخل، لا بد أنّك أتيت لتسأل عن أخبار الجريح، أليس كذلك؟ لقد تحسّنت الأمور. اطمئن، لقد تحسّنت الأمور، أكاد أتماثل للشفاء. تعال إلى هنا". اضطرب غاروفّي حتى كاد ألاّ يرى طريقه وهو يقترب من السرير ويسعى جاهدا كي لا يبكي، قام العجوز بمداعبته، لكنه عجز عن الكلام. فقال له العجوز: "شكرا، اذهب وقل لأبيك وأمك إنّ كل شيء على ما يرام وليس عليهما أن يقلقا. لكنّ غاروفّي

لـم يتحـرك، وبـدا أنّ فـي فمه كلاما لا يجرؤ على التفوّه به. "ماذا تريد أن تقول لي؟ ماذا تريد أن تقول؟". "أنا... لا شـيء". "حسـنا، وداعا، إلى اللقاء يا فتى، إذهب بسلام". سار غاروفّي حتى الباب، لكنّه توقّف هناك والتفت نحو ابن الأخ الصغير الذي كان يراقبه ويتتبع حركاته بفضول. فجأة، سحب من تحت معطفه شـيئا ووضعه في يد الفتى وهو يقول له بسـرعة: "هذا لك". ثم اختفى بسـرعة البـرق. حمـل الفتـى ذلك الشـيء إلى عمّه فشـاهدا أنّه كتـب فوقه: "هذه هديتي لك". وعندما شاهدا ما بداخله صاحا صيحة دهشةٍ. كان الألبوم المشهور بكل مجموعة الطوابع التي حملها غاروفّي المسـكين والتي كان يتحدث دائما عنها وبنى عليها الكثير من الآمال بعد أن كلّفته كثيرا من الجهد والتعب. كانت كنز هـذا الفتـى المسـكين، وكان يعتبرهـا بمثابـة الدم الذي يجري فـي عروقه، لكنّه قدّمها هديّة ليغفروا له ذنبه!

كاتب فلورنسة الصغير

قصة شهرية

كان في الصفّ الرابع الابتدائي، وكان فتى جميلا من فلورنسة عمره اثنتا عشرة سنة، أسود الشعر وأبيض الوجه. إنه الابن الأكبر لموظّف في السكك الحديدية يعيش في ضائقة لأنّ عائلته كبيرة وراتبه قليل. كان أبوه يحبّه، وكان طيّبا ومتسامحا معه، متسامحا في كلّ شيء؛ إلاّ في ما يخصّ المدرسة: ففي شؤونها كان شديد التطلّب، ويظهر قساوة لأنّه يريد أن يصبح ابنه قادرا في القريب العاجل على الحصول على وظيفة ليساعد العائلة، وهذا يتطلب منه أن يجهد نفسه كثيرا في وقت قصير. ومع أن الابن كان يدرس فإن أباه كان دائما يحثّه على الدراسة. لقد تقدّم أبوه في السن، وتقدّم فيها قبل الأوان بسبب كثرة العمل والكدح. ولم يكتف بالكدح في عمله لدعم حاجات العائلة، بل سعى إلى الحصول من هنا وهناك على أعمال إضافيّة مثل النسخ؛ مما كان يجبره على قضاء معظم ليله منكبّا فوق طاولة العمل. وقد عمل مؤخّرا لصالح دار نشر تنشر مجلات وكتبا على أجزاء، حيث كلّفوه بكتابة أسماء وعناوين المشتركين على الطرود، وكان يربح من جرّاء هذا العمل ثلاث ليرات على كل خمسمائة لصاقة ورق يكتب عليها بخطّ نظاميّ كبير. كان هذا عملا مرهقا يجبره على التذمر أكثر الأوقات وهو إلى مائدة العشاء مع عائلته، فيقول: "أشعر بعينيّ تذوبان، سينهيني هذا العمل الليلي". لذلك، قال له ابنه ذات مرة: "دعني أعمل بدلا عنك يا أبي، وأنت تعلم أنّي قادر على الكتابة مثلك تماما". لكنّ الأب أجابه: "لا يا بنيّ، عليك أن تدرس، مدرستك أهمّ بكثير من لصاقاتي، وسأندم إن سرقت منك ساعة دراسة. أشكرك لكنّي لا أريد. ولا تكلمني بهذا ثانية أبدا". كان الابن يعلم

أن الإصرار مع أبيه في هذه الأمور ضربٌ من العبث، لذلك لم يصرّ، بل لجأ إلى هذه الطريقة الأخرى: كان يعرف أنّ أباه يتوقف عن الكتابة عند منتصف الليل بالتمام، وأنه يخرج من غُرَيْفة العمل ليذهب إلى غرفة النوم. وقد سمعه عدّة مرات؛ فما إن ترنّ الساعةُ اثنتي عشرة رنّة حتى يسمع صوت الكرسيَ يتحرك، ثمّ وقع خطوات أبيه البطيئة. ذات ليلة، انتظر وصول أبيه إلى السرير، ثم ارتدى ملابسه بصمت وذهب يتلمّس طريقه إلى الغريفة حيث أشعل السراج الزيتي وجلس وراء الطاولة التي وُضعت عليها حزمة كبيرة من اللصاقات وقائمة العناوين، وبدأ بالكتابة مقلّدا خطّ أبيه. كان يكتب عن طيب خاطر ومسرورا، يعتريه شيء من الخوف. كانت اللصاقات تتراكم، بينما كان يتوقّف من حين لآخر كي يفرك كفّيه ويعود للعمل بهمّة أكبر وهو يصغي السمع ويبتسم. كتب مائة وستّين لصاقة: ليرة إضافية! عندها، أعاد القلم إلى مكانه الذي أخذه منه، وأطفأ السراج، ثم عاد إلى سريره على رؤوس أصابع قدميه.

كان الأب في ذلك الصباح رائق المزاج فجلس إلى الطاولة عند منتصف النهار ولم يلاحظ شيئا. كان يقوم بعمله بطريقة آليّة، يقيسه بالساعات ويفكّر بأمور أخرى، ولا يعدّ اللصاقات المكتوبة إلاّ في اليوم التالي. جلس إلى الطاولة رائق المزاج، وضرب على كتف ابنه وهو يقول: "إيه يا جوليو، ما زال أبوك نشيطا في عمله، ماذا تظنّ!؟ لقد أنهيت مساء الأمس في ساعتين أكثر من ثلث ما كنت أقوم به في العادة من عمل. ما زالت يدي نشيطة، وما زالت العينان تقومان بواجبهما". التزم جوليو الصمت رغم سروره العارم، وقال في نفسه: "يا لأبي المسكين، لقد ازداد ربحه، وأدخلت السرور على قلبه عندما ظنّ أنّه ما زال في ريعان الشباب. حسنا، تشجّع".

شجّعه نجاحه، فعاد في الليلة التالية إلى العمل عندما دقّت الساعة اثنتي عشرة دقّة. وهكذا فعل في ليالٍ أخرى. ولم يلحظ أبوه شيئا. إلاّ في إحدى الليالي، إذ أعلن بدهشة وهم يتناولون طعام العشاء: "غريبٌ كم من زيت المصباح ينفد في هذا البيت منذ بعض الزمن!". هزّ الأمر جوليو، لكنّ القضية انتهت عند هذا الحد، فتابع عمله الليلي.

لكنّ السهر كلّ ليلة وعدم أخذ قسط كافٍ من الراحة أدّى بجوليو لأن يستيقظ وهو منهك منذ الصباح، أما في المساء فكان يجد صعوبة في كتابة وظائفه المدرسية وهو مفتوح العينين. بل إنّه اضطرّ لأولّ مرة في حياته أن ينام فوق دفتره؛ مما حمل أباه على أن يصفّق بيديه ويصيح في وجهه: "استيقظ! هيا، إلى العمل!". وهكذا تحرّك ليعود إلى عمله. حدث الشيء نفسه في الأمسية التالية، وفي ما تلاها كان الأمر أسوأ من ذلك: فقد كان ينام فوق الكتب، ويستيقظ متأخرا عن عادته، ويدرس مرهقا ضجرا، غير آبهٍ بالدراسة. لذلك بدأ أبوه يراقبه ويقلق لوضعه ثم بدأ بتأنيبه. ولم يكن يحتاج قبلها لتأنيبه أبدا! قال له ذات صباح: "إنك تخذلني يا جوليو. لست الآن كما كنت دائما. وهذا لا يروق لي. عليك أن تعرف أنّ آمال كلّ العائلة معقودة عليك. إنّي مستاء، هل تفهم!". اضطرب جوليو لهذا التأنيب الذي كان الأوّل من نوعه في مثل هذه القسوة. لذلك قال في سرّه: "بالفعل، لا يمكن للأمور أن تسير على هذا النحو، يجب أن تنتهي الخدعة". غير أنّ أباه جاء مساء ذلك اليوم ليقول في سرور وغبطة: "هل تعلمون أني ربحت من عمل اللصاقات هذا الشهر اثنتين وثلاثين ليرة أكثر من الشهر الماضي!؟". قال هذا وهو يسحب من تحت الطاولة علبة حلوى اشتراها ليحتفل مع أبنائه بهذا الربح الخارق، فما كان منهم كلّهم إلاّ أن صفقوا سعداء فرحين. لذلك استبشر جوليو وقال في قلبه: "لا يا أبي، لن أنقطع عن خداعك، بل سأجهد نفسي لأدرس أكثر طيلة النهار، لكنّي سأواصل العمل في الليل من أجلك ومن أجل الآخرين". أضاف الأب: "اثنتان وثلاثون ليرة إضافية! إنّي سعيد...". ثم قال وهو يشير إلى جوليو: "لكنّ ذلك هناك يسبّب لي أسى وتعاسة". تلقّى جوليو التأنيب بصمت وهو يبتلع دموعه التي كادت أن تنهمر، لكنّه كان يشعر بسعادة حلوة تغمر قلبه.

تابع جوليو عمله الشاقّ. لكنّ التعب تراكم فوق التعب، وأصبح من الصعب عليه أن يقاوم. لقد انقضى الآن شهران على الأمر، وواصل الأب توجيه التأنيب لابنه والنظر إليه بعين الغضب. حتّى إنّه ذهب ذات يوم ليسأل الأستاذ

عن ابنه فقال له الأستاذ: "بلى، بلى، لديه ما يكفي من الذكاء. لكنّه فقد ما كان عنده من رغبة. كثيرا ما يغلبه النعاس، ويتثاءب ويتشتت انتباهه. كما أنه يكتب مواضيع مقتضبة، لا شكّ أنّه كتبها على عجل وبمزاج سيئ. أوه، لا بد أنه قادر على تقديم أداء أحسن من ذلك بكثير". تنحّى الأب بابنه ذلك المساء، وأسمعه كلمات كانت من أخطر وأثقل ما سمعه: "إنك ترى يا جوليو أنّي أعمل، وأنّي أبلي حياتي من أجل العائلة. لكنّك لا تعمل على إرضائي، ولا يعطف قلبك عليّ ولا على إخوتك ولا على أمّك!". "آه، لا! لا تقل هذا يا أبي!". صاح الابن وهو ينفجر في البكاء، وهمّ بأن يفتح فمه ليعترف بكلّ شيء، لكنّ أباه قاطعه قائلا: "إنك تعرف ظروف العائلة، وتعرف أنّ هناك حاجة للنيّة الحسنة ولتضحيات الجميع. ألا ترى أنّه عليّ أن أضاعف عملي أنا بالذات. كنت أظنّ أنيَ سأحصل هذا الشهر على زيادة مائة ليرة من السكك الحديدية، لكنّي عرفت هذا الصباح أنيَ لن أحصل على شيء!". عند سماعه هذا الخبر خنق جوليو الاعترافَ الذي كان بصدد أن يفلت من بين شفتيه، وكرّر بحزم أمام نفسه: "لا يا أبي، لن أقول لك شيئا، بل سأحتفظ بالسرّ لأتمكن من العمل من أجلك، وبهذا أعوّضك أيضا عمّا أسبّبه لك من آلام. أما عن المدرسة فإني سأدرس بما يكفي كي أنجح، وما يهمّني بالفعل هو أن أساعدك لتربح ما يكفي لقوت الحياة وما يخفّف عنك التعب الذي يقتلك". استمرّ على هذا المنوال من العمل الليلي والإرهاق في النهار والجهود اليائسة التي يرافقها تأنيب الأب المرير. والأدهى أنّ علاقة هذا بالفتى بأبيه بدأت تبرد شيئا فشيئا، فهو لا يكلّمه إلاّ نادرا؛ كما لو أنّه ابن عاقّ لا أمل يرجى منه، وكان يتهرب دائما من النظر إليه. شعر جوليو بكلّ هذا وكان يتألم بسببه ويحزن. وعندما كان أبوه يدير له ظهره، كان يرسل له القبلات خلسة ويطل بوجهه بشعور من الإشفاق الحنون والحزين، لكنّ الهزال كان يعتري جسده، وبدأ لون وجهه يبهت من شدة التعب والألم، كما كان يضطر أكثر فأكثر لإهمال دراسته. كان يعرف أشد المعرفة أنّ عليه أن يضع يوما ما حدّا لكلّ هذا، وكان يردّد على نفسه كلّ مساء: "لن أستيقظ هذه الليلة. لكن، ما إن تدق الساعة الثانية عشرة ويعرف أنّ عليه أن يؤكد فعل

ما عزم عليه حتى يعضّه الندم ويتخيل أن بقاءه في سريره انتقاص من واجبه، واختلاس ليرة من أبيه ومن عائلته. فكان ينهض، وكان يفكّر في أن أباه لا بد أن يستيقظ ذات ليلة، ولا بد أن يباغته، أو لا بد أن ينتبه صدفة إلى الخديعة إذا عدّ اللصائق مرتين، وبهذا تنتهي الأمور بطريقة طبيعية ومن دون أن يضطر هو للقيام بمبادرة لا يجرؤ أصلا على القيام بها. وهكذا كان يواصل ويواصل. لكن، حدث ذات مساء على العشاء أن أباه لفظ كلمة كانت حاسمة بالنسبة إليه. نظرت أمّه إليه فرأته شاحب الوجه وباهت اللون كما لم يكن يوما فقالت له: "إنّك مريض يا جوليو". ثم التفتت للأب وقالت له بقلق: "إنّ جوليو مريض. ألا ترى أنّه ممتقع اللون؟ بماذا تحسّ يا حبيبي جوليو؟". رمقه الأب بنظرة عابرة ثم قال: "إنّ النفس الخبيثة تؤدي إلى صحّة سيّئة. إنّه لم يكن هكذا عندما كان طالبا مجتهدا وابنا بارّا". "لكنّه مريض!". صاحت الأم. "لا يهمني أمره الآن في شيء!". أجاب الأب.

فعلت هذه الكلمات فعل السكين في قلب الفتى المسكين. أوه! لا يهمّه الأمر في شيء. أبوه الذي كان يرتجف عندما كان يسمعه يسعل مجرّد سعال. إنه لا يحبّه الآن إذا، لا شكّ في الأمر أبدا، لا بد أنّه مات في قلب أبيه... "لا يا أبي". قال الفتى في نفسه والألم يعتصر قلبه: "لقد انتهى الأمر الآن حقا، لا يمكن لي أن أعيش بدون عطفك وحبّك، أريد عطفك وحبّك كاملين، لذلك سأخبرك بكلّ شيء، ولن أخدعك أبدا. سأعود لأدرس كما كنت أفعل، وليكن ما يكن على أن تعود لتحبّني يا أبي المسكين. وإنّي واثق الآن مما عزمت عليه!".

ومع هذا، نهض تلك الليلة، لكن بفعل العادة ليس إلاّ. وما إن نهض حتى أراد أن يذهب ليحيّي وليرى في سكون الليل للحظات وللمرة الأخيرة تلك الغريفة التي عمل فيها في السرّ بجدّ وبقلب مفعم بالسرور والحنان. عندما وصل إلى طاولة العمل التي وضع عليها القنديل المضيء ورأى تلك اللصاقات البيضاء التي لن يكتب عليها بعد الآن أسماء المدن والأشخاص التي أصبح يحفظها عن ظهر قلب، ألمّ به حزن كبير، فأمسك بالقلم بحزم ليعاود الكتابة.

لكنّـه مـا إن مـدّ يـده حتّى صـدم كتابا فوقع الكتاب علـى الأرض، وصعد الدم إلى وجهه. ماذا لو استيقظ أبوه! إنه لن يضبطه حتما بجرمٍ مشهود؛ خاصة وأنه قرر هو نفسـه أن يقصّ عليه الأمر كلّه. ومع هذا، إنّ سـماع خطى تقترب في الظلام، وأن تتمّ مفاجأته في تلك السـاعة وفي سـكون الليل، وأمّه التي كانت لا بد أن تستيقظ مرعوبة، والتفكير بأنّه سيرى أباه يشعر لأولّ مرة أمامه بالمذلّة بعد أن يعرف كلّ شيء... كل ذلك كاد أن يستميله. مال بأذنه وأصغى السمع بنَفس مقطوع، لكنّه لم يسـمع صوتا. تنصّت باتجاه ثقب الباب وراءه، لكن لا شـيء. كلّ مـن فـي البيت نيام. لم يسـمع أبوه شـيئا إذا، فاطمئـنّ، وبدأ يكتب. وبدأت اللصاقات تتجمع فوق اللصاقات. سمع الوقع الرتيب لخطوات الحرس الليلي في الشـارع المقفر، ثم ضجيج عربة انقطع فجأة، ثم وبعد فترة ضوضاء صـادرة عـن رتـل عربـات تتقـدّم ببطء، ثمّ صمتـا مطبقا يتخلّله نبـاح كلب يأتي متقطّعـا مـن بعيـد. وكان يكتـب ويكتـب. لكنّ أباه كان وراءه منـذ فترة، إذ كان قـد نهـض عندما سـمع صوت وقوع الكتاب علـى الأرض، وبقي ينتظر اللحظة المناسبة، وكان ضجيج العربات قد غطّى على حفيف خطاه، وعلى صرير الباب الخفيف عندما فتحه، لكنّه كان هناك، برأسـه الأبيض فوق رأس جوليو الأسـود الصغيـر. ورأى جريـان القلـم علـى اللصاقات، فحزر فـي هنيهة مجمل القضية، وتذكّر كلّ تفاصيلها، وفهمها كلّها، وهكذا غمر قلبه يأس الندم، ممزوجا بحنان كبير، فتسـمّر في مكانه كالمخنوق وراء طفله. أطلق جوليو صرخة حادة عندما أحاطت ذراعان مختلجتان برأسه. "عفوا يا أبي! العفو وأستميحك العذر!". صاح عندما تعرّف إلى أبيه من صوت بكائه. "أنت الذي يجب أن تسامحني". أجاب الأب وهو يجهش في البكاء ويغمر جبهته بالقبل. "لقد فهمت كل شيء، أعلم كل شيء. أنا، أنا الذي يجب أن أطلب العفو منك، ابني أيّها المخلوق الطاهر. تعال، تعال معي!". ثم دفعه، بل حمله نحو سـرير أمّه التي اسـتيقظت، ثم ألقاه بين ذراعيها وقال لها: "قبّلي هذا الابن البار الذي لم ينم منذ ثلاثة أشهر ليعمل من أجلي، بينما كنت أنا أملأُ بالحزن قلبه، هو الذي كان يكتسـب الخبز لنا!". عانقته أمّه وضمّته إلى صدرها وهي عاجزة عن أن تنبس ببنت شفة، ثمّ قالت:

"إلى النوم. حالا يا طفلي، اذهب للنوم، للراحة! خذه إلى سريره!". حمله الأب بين ذراعيه، وأخذه إلى غرفته، ووضعه في سريره وهو يلهث ويداعبه، ثم سوّى له الوسائد والأغطية. "شكرا يا أبي". كرّر الابن وكرّر، "لكن عليك أن تذهب إلى سريرك الآن. إنّي سعيد، اذهب إلى سريرك يا أبي". لكنّ الأب أراد أن يراه نائما، فجلس على طرف السرير وأخذ يده وقال له: "نم، نم يا ابني!". نام جوليو أخيرا بعدما أنهكه التعب، نام لساعات كثيرة، وقد تلذّذ بالنوم لأوّل مرّة بعد شهور عديدة. كان نوما مطمئنًا تسعده أحلام ضاحكة. وعندما فتح عينيه وقد أشرقت الشمس منذ ردح من الزمن، أحسّ ثم رأى على صدره رأس أبيه الأبيض قرب طرف السرير، وكان قد أمضى الليل على هذا الوضع، وما زال نائما وجبهته على قلبه.

الإرادة

الأربعاء 28

هناك ستاردي في صفّي، ولديه القوّة الكافية التي تمكّنه من فعل ما فعله الفلورنسي الصغير(1). حدث اليوم أمران في المدرسة؛ غاروفّي الذي جنّ من الفرح لأن ألبوم الطوابع أعيد له، وقد أضيفت له ثلاثة طوابع من جمهورية غواتيمالا كان يبحث عنها منذ ثلاثة أشهر، ثم ستاردي الذي حاز على الميداليّة الثانية. فهل سيكون ستاردي الأوّل على الصفّ بعد ديروسّي! دهش الجميع للأمر. من كان بوسعه أن يخمّن هذا؟ ففي تشرين الأول/ أكتوبر قاده أبوه إلى المدرسة محشوّا في داخل ذلك المعطف الأخضر وقال للأستاذ أمام الجميع: "أرجو أن تتحلّى بكثير من الصبر معه لأنه لا يستوعب الأمور إلاّ بكثير من الصعوبة!". لذلك لقّبه الجميع منذ البداية رأس الخشب. لكنّه قال: "إما أن أحترق أو أنجح". ثم استمات في الدراسة ليلا ونهارا، في البيت وفي المدرسة وخلال التمشّي. فتراه يكزّ على أسنانه ويشدّ على قبضتيه، وقد تحلّى بصبر الثيران وعناد البغال. تقدّم بهذه الصفات، يرفس المزعجين غير مبالٍ بالسخريات، ثم ما لبث أن تجاوز الجميع ذلك الأبله العنيد. لم يكن يفهم رقما في الحساب، وكان يملأ مواضيعه بحشو الكلام، ولم يكن قادرا على حفظ أزمان الفعل، لكنّه قادر الآن على حلّ المسائل والكتابة بأسلوب سليم ويغنّي الدرس مثل كبار الفنانين. فمن يخمّن حجم الإرادة الحديدية التي يتمتّع بها ذلك البدين ذو الرأس المستدير الذي لا يستند على عنق، وصاحب اليدين القصيرتين الضخمتين والصوت الخشن!؟ كان يدرس حتى عندما كان

(1) نسبة إلى مدينة فلورنسه أو Firenze وسط إيطاليا.

يقرأ الصحف أو إعلانات المسارح. وكان يشتري كتابا كلّما جمع عشرة دراهم. وهكذا تمكّن من تشكيل مكتبته الصغيرة، بل إنه تسرّع في بعض لحظات الفرح وقال لي إنه سيأخذني إلى بيته لأراها. كان لا يكلّم مخلوقا، ولا يلاعب أحدا، بل كان دائما يتسمّر على المقعد وهو يستمع إلى الأستاذ، وقد أسند قبضتيه على صدغيه ليبدو مثل صخرة جامدة. كم عانى من التعب ستاردي هذا المسكين! حتّى إنّ الأستاذ قالها هذا الصباح، رغم أنه وزّع الميداليات وهو ضجر ومتعكر المزاج: "شاطر يا ستاردي، لا بد أن ينجح المثابرون". لكنّ هذا لم يبد مفتخرا بنفسه، ولم يبتسم، بل ما إن عاد إلى مقعده حتى وضع قبضتيه على صدغيه وتسمّر مصغيا أكثر ممّا كان يفعل. لكنّ الأجمل جاء عند الخروج، إذ كان أبوه في انتظاره، وكان هذا رجلا ضخما مستديرا مثل ابنه، وجهه ضخم وصوته أضخم. لكنه لم يكن يتوقع تلك الميدالية، ولم يصدّق أن ابنه حصل عليها حتى أكّد له الأستاذ ذلك. عندها، ضحك من قلبه، وضرب ابنه بكفّه على عنقه وهو يقول له بصوت مرتفع: "أحسنت أحسنت أيها الشاطر، يا عزيزي الأبله، يا رأس اليقطين، هيا!". قال ذلك وهو ينظر إليه مبتسما بدهشة. وكان جميع الفتيان يبتسمون حوله، عدا ستاردي. وذلك لأنّه كان قد بدأ يدوّر في رأسه الضخم درس صباح الغد.

اعتراف بالجميل

السبت 31

إنّي متأكد أن زميلك ستاردي لا يتذمّر أبدا من أستاذه. قلت إن الأستاذ كان ضجرا متعكر المزاج، وقلت هذا بلهجة حقد. لكن، تذكّر كم مرّة قمت أنت بأعمال تعبّر عن الضجر والتهوّر، وخاصة مع أبيك وأمك، حيث الضجر والتهور في حقّهما جريمة. إنّ أستاذك لديه كلّ الحق في أن يضجر ويفقد في بعض الأحيان صبره! وتذكر أنه يشقّ أنفاسه منذ سنين عديدة من أجل فتيانه الذين وإن وجد بينهم الكثير من المحبّين واللطفاء، فإنّه وجد أيضا آخرين كثيرين من ناكري الجميل؛ ممن استغلّوا لطفه وكرم أخلاقه وأنكروا أتعابه. وللأسف الشديد، لقد تلقّى منكم مرارات أكثر ممّا تلقى من المسرّات. تذكّر أنه لو جلس أكثر الرجال صبرا على سطح الأرض مكانه فلا بد أن يغلبه الغضب في بعض الأحيان. ثمّ ليتك تعلم كم من المرّات يضطرّ الأستاذ لأن يذهب ليلقي الدرس وهو مريض - خاصّة عندما لا يكون مرضه خطيرا لدرجة تجعل المدرسة تعفوه من المجيء - إنّه يفقد الصبر لأنّه يتألم، ويزيده ألما أن لا تلاحظوا الأمر أو أن تستغلّوه! احترم وأحبب أستاذك يا ابني. أحببه لأنّ أباك يحبّه ويحترمه؛ لأنّه يكرس حياته من أجل فتيةٍ كثيرين سينسونه، أحببه لأنّه يفتح لك ذهنك وينوّره ويثقّف نفسك. ولأنك عندما تصبح ذات يوم رجلا، ولن أكون أنا وقتها ولا هو في هذا العالم، فإنّ صورته ستمثل أمامك في كثير من الأحيان إلى جانب صورتي، وعندها ستتذكّر بعض تعابير الألم والتعب على وجهه الطيب؛ وجه الرجل المهذب الصالح، وستتذكّر تلك التعابير التي لا تعيرها الآن انتباها، وسيؤلمك الأمر حتى بعد مرور ثلاثين عاما، وستخجل وستشعر بالحزن لأنّك لم تحبّه وقتئذٍ، ولأنّك أسأت التصرف معه. أحبب أستاذك لأنه ينتمي لعائلة

كبيرة من خمسين ألف معلّم ابتدائي موزّعين في كل إيطاليا، وهم كالآباء الفكريّين لملايين الفتية الذين يكبرون مثلك. إنّهم عمالٌ لا يُعرف عملهم بحقّ، ولا يُكافأ كما يجب، يُعدّون في بلادنا شعبا يجب أن يكون أفضل من الشعب الحاليّ. إنّي لست سعيدا بمحبّتك لي إن لم تُكنَّ مثلها لكلٍّ من يُحسن إليك وأوّلهم أستاذك بعد والديك. أحببه كما تحبّ أخي، أحببه عندما يداعبك وعندما يؤنّبك، عندما يكون عادلا معك أو عندما يبدو لك غير عادل، أحببه عندما يكون مسرورا وودودا، وأحببه أكثر عندما ترى أنّه حزين. أحببه دائما. ولتلفظ على الدوام هذا الاسم باحترام: الأستاذ؛ لأنه بعد اسم الأب، هو الاسم الأكثر نبلا والأشد حلاوة بين الأسماء التي يمكن أن يسمّي بها الإنسان إنسانا آخر.

أبوك

المعلم البديل

الأربعاء 4

كان أبي على حقّ، فالأستاذ كان متعكّر المزاج لأنّ صحته كانت سيئة، فقد حلّ محلّه منذ ثلاثة أيام أستاذٌ بديل، ذاك القصير بدون لحية، والذي يبدو لهذا صغير السنّ. حدث أمرٌ سيّئ هذا الصباح. ففي اليوم الأول والثاني أحدث الطلبة ضجيجا في المدرسة جابهه الأستاذ البديل بكثير من الصبر وبقوله: "اصمتوا، اصمتوا، أرجوكم". لكنّ الأمور تعدّت اليوم كلّ الحدود، إذ علا الضجيج ليصبح طنينا علا على صوته وهو يحذّر ويرجو من دون فائدة. حتّى إنّ المدير أطلّ مرتين على المدخل ونظر. لكنه ما إن يذهب حتّى يتزايد الصخب وكأنّنا في السوق. هنا صدرت عن غاروني وديروسّي لفتةٌ جميلة، إذ بدأا يشيران لزملائهما بأن يعقلوا لأن ما يفعلونه عيب. لكنّ أحدا لم يكترث. ولم يبق هادئا إلاّ ستاردي. كوعا يديه على الطاولة، وقبضتاه على صدغيه؛ ربّما كان يفكّر بالمكتبة الشهيرة. كان هناك أيضا غاروفّي ذو الأنف المعقوف والطوابع، إذ كان مشغولا بترتيب جدول بأسماء المسجَّلين في قائمة من سيدفع قرشين في يانصيب محبرة الجيب. أمّا الآخرون فكانوا يثرثرون، ويتضاحكون، ويعزفون برؤوس أقلامهم المغروزة في المقاعد، ويترامون بكرات من الورق يرمونها بمطاط جواربهم. كان البديل يمسك مرة هذا ومرة ذاك من ذراعه ليسحبه وقد أوقف أحدهم تجاه الجدار، ولكن عبثا. لم يعد يعرف لمن عليه أن يتوجّه، فكان يرجوهم: "لماذا تتصرّفون بهذه الطريقة؟". ثم كان يضرب بقبضته على الطاولة ويصرخ بصوت غضب وبكاء: "اصمتوا! اسكتوا! اصمتوا!". كان منظره يثير الحزن. لكنّ الصخب كان يزداد ويزداد، بل إنّ فرانتولي رماه بسهم من ورق، وقلّد آخرون

مواء القطط، بينما بقي آخرون يتضاربون؛ إنه منظر لا يمكن وصفه. دخل الآذن فجأة وقال: "إنَ المدير يستدعيك أيها السيد الأستاذ". نهض الأستاذ وخرج بسرعة وهو يقوم بإشارة يائسة. ازداد عندها الصخب وأصبح أقوى وأقوى. لكنّ غاروني ما لبث أن قفز بوجهٍ مضطرب وقبضتين مشدودتين وصرخ بصوت يخنقه الغضب: "أنهوا هذه الفوضى! لستم إلاّ وحوشا؛ فأنتم تستغلّون الوضع لأنّ الأستاذ طيّب. لكنّه لو حطّم عظامكم فإنّكم كنتم ستهدأون مثل الكلاب. لستم إلاّ قطيع جبناء. سأترصّد لأوّل شخص يهزأ به خارج المدرسة لأحطّم أسنانه، أقسم على هذا، وسأفعل ذلك تحت عيون آبائكم". صمت الجميع. آه! ما أجمل رؤية غاروني وعيناه تقدحان شررا. بدا وكأنّه شبل غاضب. ثم نظر إلى كلّ واحد من الأكثر جرأة فردا فردا، فطأطأوا رؤوسهم جميعا. وعندما دخل البديل بعينين حمراوين لم يسمع في الصف حتّى نفَسا يعلو. دُهش للأمر. لكنّه ما إن رأى غاروني وهو ما زال مشتعلا ومرتعشا، حتّى أدرك الوضع فقال له بإشارة محبّة وتقدير كما لو أنّه يكلّم أخاه: "شكرا لك يا غاروني".

مكتبة ستاردي

ذهبت إلى بيت ستاردي مقابل المدرسة، وشعرت بحسد حقيقي عندما شاهدت مكتبته. إنّه ليس غنيّا، ولا يستطيع شراء الكثير من الكتب، لكنّه يحافظ باهتمام كبير على كتبه المدرسية وتلك التي يهديها إليه أقرباؤه، كما أنه يوفّر ما يهبونه إيّاه من نقود لينفقها لاحقا عند بائع الكتب؛ وبهذا تمكّن من تكوين مكتبته الصغيرة. كما أنّ أباه عندما لاحظ هذه الهواية، اشترى رفّوفا للمكتبة من خشب الجوز، ووضع عليها ستارة خضراء، كما ساعده على تجليد كلّ الكتب بالألوان التي تعجبه. يستطيع الآن أن يسحب حبلا فترتفع الستارة الخضراء وتظهر ثلاثة صفوف من الكتب بكلّ الألوان وبكلّ التنسيقات؛ برّاقة، وبعناوين مذهّبة أطرافُها، كتبُ روايات، ورحلات وأشعار، بل وكتبٌ مصوّرة. لا بد أنّه حاذقٌ أيضا في تنسيق الألوان؛ لأنّه وضع الكتب البيضاء إلى جانب تلك الحمراء ووضع الصفراء إلى جانب السوداء، والزرقاء إلى جانب البيضاء، وهكذا يستطيع المرء أن يميّزها ويتولّد لديه انطباع جيد. ثمّ إنّه يتسلى بتغيير التنسيق. وقد وضع فهرسا للكتب وكأنّه أمين مكتبة عامّة. ويحرص دائما على كتبه ويعتني بها، فيزيل الغبار عنها، ويتصفّحها، ويتفحّص جلودها. ولا بد من رؤية الحرص الذي يفتح به الكتاب بيديه القصيرتين الضخمتين، وينفخ بين الصفحات؛ لهذا تبدو كأنّها جديدة. أمّا أنا فقد أبليت كلّ كتبي! في كلّ مرة يشتري فيها كتابا جديدا يبدو أنّه يقيم حفلة لتلميعه ووضعه في مكانه، ثم يأخذه ويقلّبه في كل الاتجاهات ويحفظه مثلما تحفظ الكنوز. لم يُرني غير هذه المكتبة خلال ساعة كاملة. كان يعاني من ألم في عينيه بسبب كثرة القراءة. على حين غرّة، مرّ بالغرفة أبوه، وهو ضخم ومدوّر مثله وله رأس ضخم مثل رأسه، ضربه ضربتين أو ثلاث ضربات على رقبته وهو يقول لي بصوته الأجشّ: "ما قولك إذا بهذا الرأس البرونزي؟ أؤكد لك أنّه رأس شخص سينجح في صنع شيء

ما!". كان ستاردي يغمض عينيه تحت وقع تلك المداعبة الخشنة مثلما تفعل كلاب الصيد. لا أعلم، لكنّي لم أجرؤ على المزاح معه، ولم أكن أصدّق أنّه أكبر منّي بسنة واحدة فقط. وعندما ودّعني عند الباب بوجهه المتجهّم كما هي العادة وقال "وداعا"، شعرت كأنّي سأجيبه: "مع احترامي". أي كما يقال لرجل كبير. قلت بعدها لأمي في البيت: "لا أفهم، ليس ستاردي عبقريا، وسلوكه ليس أنيقا، ويكاد مظهره أن يكون مضحكا، ومع هذا فهو يثير الرهبة في نفسي". أجابتني أمّي: "لأنّ له شخصية". فأضفت: "أمضيت معه ساعة لم يلفظ خلالها أكثر من خمسين كلمة، لم يعرض أمامي لعبة، لم يضحك مرّة واحدة، ومع هذا أمضيت معه وقتا ممتعا". فأجاب أبي: "لأنّك تحترمه".

ابن الحدّاد

أجـل، لكنّـي أحتـرم بريكوسّـي أيضـا، ولا يكفـي أن أقـول إنّـي أحترمـه. بريكوسّي، ابن الحدّاد، ذلك الصغير البليد، ذو العينين الطيّبتين الحزينتين، يعطي انطباعـا بأنّـه فـزع وخائف، لكنّه خجل فقط. ويقول دائما للجميع: "العفو". تراه ضعيفـا واهـن القـوى على الدوام، ومع هـذا فهو يدرس كثيرا. يعود أبوه للبيت فاقدا رشده تحت تأثير الشراب، ويبدأ بضربه بدون أيّ سبب في العالم، ويبعثر له الكتب والدفاتر بقلبة واحدة. ولهذا، يأتي إلى المدرسة والكدمات على وجهه، بل يأتي أحيانا بوجه متورّم وعينين ملتهبتين من كثرة البكاء. لكن، لا يمكن أبدا وعلى الإطلاق حمله على أن يقول إنّ أباه هو الذي ضربه. يسأله زملاؤه: "هل أبـوك الـذي ضربـك؟". فيصرخ في الحال: "هذا ليس صحيحا، ليس صحيحا!". لأنّه لا يريد أن يُساء إلى أبيه. وعندما يقول له الأستاذ وهو يعرض عليه الوظيفة نصف المحروقة: "لست أنت طبعا من أحرق هذه الورقة!". فإنّه يجيب بصوت مرتجف: "بلى، أنا الذي تركتها تسقط في النار". لكنّنا نعلم جميعا أنّه كان يكتب وظيفتـه عندمـا رفـس أبـوه الطاولـة بقدمه فوقـع القنديل على كلّ مـا عليها من أوراق. إنه يسـكن في سـقيفة يؤدي إليها الدرج الثاني من بناء بيتنا. تسـرّ البوّابة بكلّ شيء لأمّي. كما سمعته أختي سيلفيا ذات يوم وهو يصرخ من على الشرفة لأنّ أباه دفعه فهوى من على الدرج؛ وذلك لمجرد أنّه طلب منه نقودا ليشتري كتاب القواعد. أبوه يحتسـي الشـراب ولا يعمل، والعائلة تعاني من الجوع. كم مرّة جاء بيروسّي المسكين صائما إلى المدرسة أو وهو يقضم في السرّ سندويشا قدّمها له غاروني، أو تفاحة قدّمتها له المعلّمة ذات الريشة الحمراء التي كانت تدرّسـه فـي الصـف الأول الابتدائـي! لكنّـه لم يقل أبدا إنه جائـع، أو إنّ أباه لا يوفّر له الطعام. يأتي أبوه في بعض المرّات ليأخذه من المدرسة عندما يمرّ من هناك صدفة. إنّه شاحب اللون، وفيه بعض العرج، كما أنه متجهّم الوجه، يتناثر

شعره على وجهه وطاقيّته مقلوبة. أمّا الفتى المسكين فيرتجف عندما يراه على الطريق. ومع هذا، فإنّه يذهب ليلاقيه مبتسما؛ حتّى لو لم يعره أبوه أيَ انتباه وهو يفكّر بأمور أخرى. يا بريكوسّي المسكين! يخيط دفاتره الممزقة، ويستعير الكتب ليراجع دروسه، ويغرز الدبابيس في قميصه بدل الأزرار، ويثير الشفقة عندما تراه يلعب في درس الرياضة؛ إذ تتمرّغ قدماه في حذائه، ويجرّ بنطاله وسترته الطويلة وقميصه ذا الكمين الملفوفين حتى الكوعين. ومع هذا، فهو يدرس بجدّ، وقد يصبح الأول لو توفّر له أن يدرس باطمئنان في بيته. جاء هذا الصباح إلى المدرسة وعلى خدّه خدش أظافر، فقال له الجميع: "إنّه أبوك، لا يمكن لك أن تنكر هذه المرّة. أبوك هو الذي فعل بك هذا. أخبر المدير، وسيستدعيه إلى المخفر". لكنّه نهض محمرّ الوجه وقال بصوت يرتجف من الغضب: "ليس صحيحا! هذا ليس صحيحا! أبي لا يضربني أبدا!". لكنّ دموعه تساقطت على المقعد أثناء الدرس، وعندما كان أحدهم ينظر إليه كان يحاول أن يبتسم كي لا يكشف الأمر. يا لبريكوسّي المسكين! سيأتي غدا إلى بيتي كلّ من ديروسّي وكوريتّي ونيلّلي. أريد أن أقول له ليكون معنا، وسأطلب منه أن يشاركني الترويقة، كما أريد أن أعطيه بعض الكتب، وأن أقلب البيت رأسا على عقب لكي أسلّيه، ثم أملأ جيوبه بالفواكه لأراه مرّة مسرورا، يا لبريكوسّي المسكين، إنه طيّب جدا وشجاع جدا!

زيارة جميلة

الخميس 12

هذا يومٌ من أجمل أيام الخميس بالنسبة لي في هذا العام. ففي تمام الساعة الثانية جاء إلى بيتي كلّ من ديروسّي وكوريتّي مع نيلّلي الأحدب. أما بريكوسّي فلم يسمح له أبوه بالمجيء. كان ديروسّي وكوريتّي ما زالا يتضاحكان لأنّهما صادفا في الطريق كروسّي ابن بائعة الخضار ذا اليد المعطوبة والشعر الأحمر، وكان يحمل رأس قرنبيط كبيرا يريد أن يبيعه ليشتري بثمنه قلما، وكان مسرورا جدا لأن أباه كتب لهم من أميركا بأن ينتظروا قدومه في أيّ يوم. آه ما أجمل تينك الساعتين اللتين أمضيناهما معا! ديروسّي وكوريتّي من أكثر طلبة الصف مرحا، وقد أحبّهما أبي حبّا شديدا. كان كوريتّي يرتدي سترة صوفية بلون الشوكولاته وقبّعة من وبر القطّ. إنّه شقيّ؛ يريد أن يتحرّك دائما وأن يثير البلبلة وأن يُحدث الفوضى. حمل على كتفيه منذ الصباح الباكر حمولة نصف عربة من الحطب، ومع هذا فقد اندفع في أرجاء البيت، وراقب كلّ شيء من دون أن ينقطع عن الكلام. كان نشيطا وفطنا كالسنجاب، وعندما مرّ بالمطبخ سأل الطبّاخة: كم يطلب البائعون ثمنا لحمولة الحطب؟ وقال لها إنّ أباه يبيعها بخمسة وأربعين قرشا. يتحدّث دائما عن أبيه عندما كان جنديا في الكتيبة التاسعة والأربعين، وفي معركة كوستوزا، وعندما وجد نفسه في سريّة الأمير اومبرتو، وأنه كان لطيفا حسن السلوك! لا يهم إذا كان قد ولِدَ وترعرع بين الحطب، فقد أصبح اللطف في دمه وفي قلبه، كما يقول أبي. وقد تسلّى ديروسّي كثيرا. إنّه يعرف الجغرافيا مثل الأستاذ. كان يغمض جفنيه ويقول: "إنّي أرى كلّ إيطاليا، جبال الأبنين التي تمتدّ حتّى البحر الأيوني، وأرى الأنهار التي تجري هنا وهناك، والمدن البيضاء، والخلجان، والمرتفعات الزرقاء، والجزر الخضراء.

وكان يذكر الأسماء بطريقة صحيحة؛ بانتظام وبسرعة فائقة، كما لو أنّه يقرأ من على الورق. كنّا جميعنا نتأمّله بإعجاب عندما كنّا نراه برأسه المرتفع، وشعره الأجعد الأشقر، وعينيه المغمضتين، مرتديا ثيابا فيروزية بأزرار مذهّبة، ومستقيما ومنتصبا كالتمثال. تمكّن من أن يحفظ في ساعة واحدة حوالى ثلاث صفحات كان عليه أن يلقيها عن ظهر غيب بعد الغد بمناسبة جنازة الملك فيتّوريو[1] كان نيلّلي يراقبه أيضا بدهشة ومحبة وهو يحكّ بطانة مئزره ذي القماش الأسود، ويبتسم بتينك العينين الحزينتين فاتحتي اللون. لقد أثارت تلك الزيارة سروري حقّا، وتركت في ذهني وفي قلبي أثرا يشبه الشرر. جلّ ما أعجبني أيضا أنّي رأيتهم يذهبون ونيلّلي المسكين وسط الاثنين الآخرين الضخمين والقويين وهما يقودانه إلى بيته ممسكين بذراعيه. وهكذا، فقد أجبراه على أن يضحك كما لم يضحك على الإطلاق. عندما رجعت إلى غرفة الطعام، لاحظت أنّ اللوحة التي تمثّل ريغوليتّو، المهرّج الأعرج، غير موجودة. لقد رفعها أبي كي لا يراها نيلّلي.

---

(1) الملك فكتور عمانوئيل الثاني 1820-1878، كان ملكا لجزيرة سردينيا من عام 1849، وفي 17 آذار 1861 أصبح أولّ ملك لإيطاليا الموحدة منذ القرن السادس. وقد احتفظ بلقب ملك إيطاليا حتى موته عام 1878. لذلك سماه الإيطاليون "أب الوطن". (عن موسوعة ويكبيديا)

جنازة فيكور عمانوئيل[1]

الثلاثاء 17

اليوم، عند الساعة الثانية دخل الأستاذ المدرسة ونادى في الحال ديروسّي، فاتّجه هذا الأخير نحو الطاولة وجلس إلى جانبها مقابل الطلاب، وبدأ يتلو بصوته الجهوري الصافي وهو يرفع تباعا حدّته ويتلوّن وجهه:

- في مثل هذا اليوم قبل أربع سنوات، وفي مثل هذه الساعة، وصلت إلى أمام مبنى البانتيون[2] في روما العربة الجنائزيّة التي تحمل جثمان فيتّوريو ايمانويلى الثاني، أول ملك لإيطاليا. مات بعد تسعة وعشرين عاما حكم خلالها وطننا الكبير الذي انبعث في دولة واحدة حرّة مستقلة، بعد أن كان مجزّأ في سبع دويلات، ويضطهده الأجانب والطغاة. بعد حكم دام تسعة وعشرين عاما، تمكّن بولائه وجرأته خلال المخاطر، وحكمته خلال الانتصارات، وثباته خلال المحن، من جعل هذا الوطن وطنا جليلا وبرّاقا ومفيدا. وصلت عربة الجنازة محمّلة بالورود بعد أن اجتازت شوارع روما تحت وابلٍ من أمطار الزهور، ووسط صمت جماهير حزينة محتشدة جاءت من أرجاء إيطاليا، كان يتقدمها لفيفٌ من كبار قادة الجيش، وحشد من الوزراء والأمراء ومبعوثي ثلاثمائة مدينة، فمثّل الجميع قوّة هذا الشعب ومجده الرفيع. وصلت العربة أمام المعبد الأوغستياني حيث كان الضريح بانتظارها. في تلك اللحظة، تقدّم اثنا عشر فارسا ليحملوا النعش من العربة. في تلك اللحظة، ودّعت إيطاليا للمرة الأخيرة مليكها الميت، مليكها الكبير الذي طالما أحبّته، ودّعت إيطاليا للمرة الأخيرة جنديّها، وأباها، وتسعة وعشرين عاما من أوفر أعوام تاريخها حظا وبركة.

---

(1) Vittorio Emanuele راجع الهامش السابق.

(2) Pantheon معبد روماني قديم تم تحويله في القرن السابع الميلادي إلى دار عبادة. ويعتبر الآن معلما دينيا ومزارا أثريا له أهميته السياسية الرمزية.

كانت لحظة عظيمة ومجيدة. كانت نظرات الجميع تتنقّل وأرواحهم تخفق بين الجثمان ورايات حداد ثمانين من كتائب الجيش الإيطالي التي يحملها ثمانون ضابطا اصطفّوا لمروره. كانت كلّ إيطاليا موجودة عبر تلك الرايات الثمانين التي تذكّر بآلاف الموتى وبسيول الدماء وبأمجادنا وتضحياتنا الطاهرة وآلامنا القاسية العظيمة.

عندما مرّ الجثمان محمولا على أيدي الفرسان، نُكّست تحيّة له رايات الكتائب الجديدة، ورايات قديمة بالية تمثّل معارك غويتو، وباسترينغو، وسانتا لوشيا، ونوفارا، وكريميا، وباليسترو، وسان مارينو، وكاستيل فيداردو، كما سقط ثمانون وشاحا أسود، وارتمت مائة ميدالية على التابوت. وكان صخب الأصوات المضطرب ذاك يخلط دماء الجميع ببعضها ليُعبّر بصوت واحد عن ألف صوت بشري تصدح جميعها في الوقت نفسه، وتقول:

الملك فكتور عمانوئيل الثاني

وداعا أيّها الملك الطيّب، أيّها الملك الشجاع، أيّها الملك النزيه! إنّك ستعيش في قلب شعبك ما أشرقت الشمس على إيطاليا. بعدها، ارتفعت الأعلام بكبرياء نحو السماء، بينما كان جثمان الملك فيتّوريو يسجّى في مجد ضريحه.

فرانتي المطرود من المدرسة

السبت 21

هنــاك واحــدٌ فقــط بإمكانه أن يضحك بينما كان ديروسّــي يتكلم عن جنازة الملك، وقد ضحك فرانتي. إنّي أحتقر هذا الشخص. إنّه شرير، تراه يتلذّذ كلّما أتى أبٌ إلى المدرســة ليشــتكي من ابنه، وتراه يضحك عندما يرى أحدا يبكي. يرتجف أمام غاروني، لكنّه يضرب المعماري لأنّه صغير، ويضايق كروسّي لأنّ ذراعــه معطوبــة، ويســخر من بريكوسّــي مــع أن الجميع يحترمونه، بــل إنّه يهزأ حتــى مــن روبيتّــي مــن الصف الثاني، والذي يمشــي على عكّازيــن بعد أن أنقذ طفــلا. إنــه يســتثير جميع من هــم أضعف منه، وعندما يلاكــم يتوحّش ويضرب ضربــا مؤذيــا. عنــده ما يســاعد على رســم الازدراء على جبينــه المنخفض، وفي عينيــن مضطربتيــن يخبئهمــا تحــت واقيةِ قبّعته المصنوعة من قماش مشــمّع. إنه لا يخاف شــيئا، ويضحك في وجه الأســتاذ، ويســرق عندما يتمكن من الســرقة، وينكر الأمر بسحنته الزجاجيّة. تراه دائما في نزاع مع أحد الأشخاص، ويأتي إلى المدرســة بالدبابيس ليَخِز من يكون قربه، وينزع أزرار ســترته وأزرار الآخرين. أمّا حقيبته ودفاتره وكتبه فكلّها مثنيّة ومجعّدة وممزقة وقذرة، ومسطرته مهترئة، وقلمــه مأكــول، وأظافــره مقضومــة، وثيابه مليئة بالبقع والخــروق نتيجة نزاعاته. يقــال إن أمّــه مرضــت بعدمــا ســبّب لهــا الكثير من الآلام، وإن أبــاه طرده ثلاث مــرات مــن المنــزل. من حين لآخر، تأتي أمــه لتطلب معلومات عنه، ولا تخرج إلاّ وهي تبكي. إنّه يكره المدرسة، ويكره زملاءه، ويكره الأستاذ. لذلك يتجاهل الأستاذ بعض الأحيان مقالبه، لكنّ هذا يدفعه لأن يفعل ما هو أسوأ منها. حاول أن يعامله بالحســنى لكنّه ســخر منه. وعندما أســمعه كلمات قاســية غطّى وجهه بيديه كما لو أنّه يبكي، لكنّه كان يضحك. طردوه لمدّة ثلاثة أيام من المدرسة،

لكنّه عاد أسوأ ممّا كان وأشدّ وقاحة. ذات يوم، قال له ديروسّي: "انتهِ عن هذا، فالأستاذ يعاني كثيرا من الأمر". فما كان منه إلاّ أن هدّده بغرز مسمار في بطنه. وفي نهاية الأمر، طُردَ هذا الصباح من المدرسة مثلما يُطردُ الكلب. فبينما كان الأستاذ يعطي غاروني مسودة "طبّال سردينيا الصغير"، وهي رواية شهر كانون الثاني/يناير، لكي ينسخها، رمى فرانتي بمفرقعة انفجرت وانتشر صوتها في أنحاء المدرسة كما لو أنه صوت إطلاق نار. اهتز الجميع في الصفّ، ونهض الأستاذ واقفا وقال: "فرانتي، إنّك مطرود من المدرسةّ!". فأجاب: "لم أكن أنا!". لكنّه كان يضحك. كرّر الأستاذ: "اخرج!". فأجاب: "لن أتحرّك". عندها، فقد الأستاذ رشده، وهجم عليه، ثمّ أمسك به من ذراعيه ونزعه من مقعده نزعا. كان يقاوم ويصرّ أسنانه، لكنّ الأستاذ تمكّن من سحبه إلى الخارج بالقوّة، وكاد أن يحمله حملا إلى غرفة المدير. ثمّ عاد إلى الصفّ وحيدا، وجلس إلى الطاولة وهو يمسك برأسه بين يديه. كان يلهث، وتنمّ تعابيره عن التعب والإعياء والمعاناة، حتّى إن كلّ من رآه استاء من ذلك. ثمّ قال بحزن وهو يهوي برأسه: "بعد ثلاثين سنة من التدريس...". ولم ينبس أحد ببنت شفة. كانت يداه ترتجفان من شدة الغضب، وبدت التجعيدة العميقة المستقيمة مثل الجرح في منتصف جبهته.
يا للأستاذ المسكين! أشفق الجميع عليه. نهض ديروسّي وقال: "لا تحزن أيّها السيّد الأستاذ. إنّنا جميعا نحبّك". عندها، هدأ بعض الشيء وقال: "سنستأنف الدراسة يا أولاد".

طبّال سردينيا الصغير[1]

قصة شهرية

في 24 تموز/ يوليو 1848، خلال أوّل يوم من معركة كوستوزا، تمّ إرسال حوالى ستّين جنديًا من كتيبة مدفعيّة في جيشنا ليحتلّوا بيتا منعزلا في أعلى هضبة، لكنّهم وجدوا أنفسهم عرضة لهجوم مفاجئ شنّته تشكيلتان من الجنود النمساويين. بدأ هؤلاء بإطلاق النيران من مختلف الجهات، فلجأ جنودنا إلى البيت وأسرعوا في إغلاق أبوابه، مخلّفين بعض الموتى والجرحى في الميدان. وبعد أن أغلقوا الأبواب، توجّهوا حالا نحو نوافذ الطابق الأرضي والطابق الأول، وبدأوا بإطلاق نيران كثيفة على المهاجمين الذين تقدّموا خطوة خطوة على شكل نصف دائرة وهم يجيبون على النيران بشدّة. كان يقود الجنود الإيطاليين الستّين ضابطان بالتناوب، بالإضافة إلى نقيب طويل وكبير في السنّ، نحيف وقاسي المظهر، شعره وشارباه بلون أبيض، وكان معهم طبّال سرديني؛ فتى لا يزيد عمره كثيرا عن أربعة عشرة سنة، بل يبدو أنّ عمره أقلّ من اثنتي عشرة سنة. وهو صغير، وجهه أسمر زيتوني، وعيناه صغيرتان سوداوان عميقتان لامعتان.

كان النقيب يدير الدفاع من غرفة في الطابق الأول، وكان يصدر أوامر كضربات المسدّس من دون أن تبدو على وجهه الحديدي أيّ علامة انفعال. أمّا الطبّال، فكان ممتقع اللون بعض الشيء لكنه ثابت على قدميه، وقد صعد على طاولة ومدّ عنقه وهو يتمسّك بالجدران ليستطيع أن يراقب ما وراء النافذة. وقد رأى عبر الدخان في الحقول بذّات النمساويّين البيضاء وهم يتقدّمون ببطء. كان البيت مبنيّا على قمّة منحدر حادّ، ولم يكن فيه من جانب المنحدر إلاّ

(1) من جزيرة سردينيا.

نافذة واحدة عالية داخل غرفة النوم، لذلك لم يهدّد النمساويون البيت من ذلك الجانب، وبقي المنحدر خاليا بينما كانت النيران تضرب الواجهة والجانبين الآخرين. كانت النيران جهنّمية، عاصفة من بَرَدِ الرصاص تشقّق الجدران وتهوي بقطع الآجرّ. وفي الداخل، كان السقف والأثاث والنوافذ والمصاريع تتحطّم، وتتناثر في الهواء شظايا الخشب وغيوم من كلس الجدران وحطام الأواني والزجاج. كلها تُصفِّر وتتقافز وتصدم كلّ شيء في طريقها محدثة ضجيجا ينصهر له النخاع. بين حين وآخر، كان واحد من بين الجنود الذين يصوّبون من النوافذ يسقط إلى الوراء على الأرض فينحّونه جانبا. بينما كان آخرون يترنّحون بين الغرف وهم يضغطون على جروحهم. بل كان هناك ميت في المطبخ، مشقوق الجبهة. هذا فيما كانت نصفُ دائرة العدو تتقدّم. وفي لحظة ما، شوهد النقيب الذي لم يكن يظهر على وجهه أيّ تعبير، وهو يقوم بحركة تدلّ على القلق، ثم خرج بخطى سريعة من الغرفة يتبعه رقيب. بعد ثلاث دقائق، عاد الرقيب مسرعا، ونادى الطبّال مشيرا إليه بأن يتبعه. تبعه الفتى وهو يجري على السلّم الخشبي، ثم دخل معه سقيفة فارغة، فرأى النقيب وهو يكتب بالقلم على ورقة مستندا إلى النافذة، وكان هناك عند قدميه على الأرض حبلٌ يستعمل في البئر. طوى النقيب الورقة، وقال بحدّة وهو ينظر إلى الفتى بعينيه الرماديّتين الباردتين اللتين كان كل الجنود يرتجفون أمامهما: "أيّها الطبّال!". فوضع الطبّال يده على قبّعته.

قال له النقيب: "أنت شجاع وقويّ الشكيمة".

لمعت عينا الفتى، وأجاب: "نعم سيّدي النقيب".

قال له النقيب وهو يدفعه نحو النافذة: "انظر إلى أسفل السهل، إلى بيوت فيلاّفرانكا حيث تلمع البنادق. هناك توجد جماعة منّا، جامدين. خذ هذه الورقة، وتعلّق بالحبل، وانزل من النافذة، وأسرع عبر ذلك المنحدر. اعبر الحقول حتى تصل إلى جماعتنا. عندها، أعط هذه الورقة إلى أوّل ضابط تراه. تخلّص من الحزام وحقيبة ظهرك.

خلع الطبّال حزامه، وألقى حقيبة ظهره، ووضع الورقة في جيب صدره. عندها، ألقى الرقيب الحبل ممسكا بأحد طرفيه، بينما ساعد النقيب الفتى على

عبور النافذة وظهره نحو البساتين.

قال له: "انتبه، إنّ سلامة المفرزة في شجاعة قدميك".

فأجاب الطبّال وهو يتدلّى خارجا: "ثق بي سيدي النقيب".

أردف النقيب وهو يمسك بالحبل مع الرقيب: "انحنِ في المنحدر لا تخف. كان الله في عونك".

لامس الطبّال الأرض في دقائق معدودة، فسحب الرقيب الحبل وغاب. أمّا النقيب، فقد أطلّ متهوّرا من النافذة، ورأى الفتى وهو يطير فوق الهضبة.

كان يأمل في أن ينجح بالتسلل خفية عندما رأى خمس أو ست غيوم غبار ترتفع على الأرض من أمام الفتى وخلفه، فعَلِمَ أنّ النمساويين قد رأوه من دون شك. وبالفعل، بدأوا بإطلاق النار عليه من أعلى المرتفع. لا بد أن تلك الغيوم الصغيرة هي التراب الذي أثارته طلقاتهم في الهواء. لكنّ الطبّال تابع جريه بلا هوادة، ثمّ سقط على حين غرّة. "لقد قُتل!". صاح النقيب وهو يعضّ على قبضته. لكنّه لم يكد ينهي كلمته حتى رأى الطبّال وهو ينهض ثانية. فتنفّس الصعداء وقال في نفسه: "إذا، كانت مجرّد سقطة". وفي الواقع، تابع الطبّال جريه بكل ما أوتي من قوة؛ رغم أنه كان يعرج. ففكّر النقيب: "إنّه مجرد التواء قدم". لكنّ سحبا أخرى من الغبار ارتفعت ثانية حول الفتى الذي ما زال يبتعد. لقد نجا. أطلق النقيب صيحة انتصار، لكنّه ثابر على متابعته بنظره وهو في أشدّ حالات الهلع؛ لأنّها مسألة لحظات: فإن لم يصل إلى الأسفل بأسرع ما يمكن ومعه الورقة التي فيها طلب المساعدة العاجلة فإنّ جميع جنوده سيسقطون قتلى، أو سيضطرّون للاستسلام وهو معهم. كان الفتى يجري بسرعة لفترة ثم يتباطأ وهو يعرج، ثم يعود ليجري من جديد وقد أخذ منه التعب كل مأخذ، ثم يتعثّر بين الفينة والأخرى ويتوقّف. فكّر النقيب: لا بد أنّ طلقة قد خدشته. وتابع مراقبة كلّ حركاته مرتعشا ومرتجفا. وكان يشجّعه ويكلّمه كما لو أنّه يسمعه. كان لا ينقطع بعينيه المتلهّفتين عن حساب المسافة بين الفتى الهارب والأسلحة التي رأى أنّها كانت تلمع أسفل السهل بين حقول الحنطة التي تعطيها الشمس لونا ذهبيّا. كان يتابع خطى الطبّال البعيدة بينما كان يسمع صفير الطلقات في

الغرف السفليّة، وصرخات الضبّاط والرقباء الآمرة الغاضبة، وأنين الجرحى الحاد، وتساقط الأثاث وكلس الجدران. وكان يصرخ: "هيا! تشجّع! اركض! لقد توقّف، اللعين! آه، لقد استأنف جريه". جاء ضابط يلهث ليخبره أنّ الأعداء قد لوّحوا بقطعة قماش بيضاء ليفرضوا الاستسلام لكنّهم لم يوقفوا إطلاق النار. "لا تستجيبوا!". صاح من دون أن يبعد نظره عن الفتى الذي وصل إلى السهل رغم أنّه توقّف عن الجري وبدأ يجر نفسه بصعوبة بالغة. "هيا! اركض!". قال النقيب وهو يصرّ على أسنانه ويكمش قبضتيه. "انتحر، مُت، يا شرّير، هيا!". ثم أطلق شتيمة فظيعة. "آه! أيها المُقعد القذر، لقد جلس!". والواقع أنّ الفتى غاب كليا عن الأنظار كما لو أنه وقع، بعد أن كان رأسه يظهر فوق سنابل الحنطة. لكن، ها هو رأسه يظهر بعد لحظة من جديد، ثم غاب وراء الأكمات، ولم يعد النقيب يرى له أثرا.

عندها، نزل بسرعة. كانت الطلقات تنهمر، وكانت الغرف ملأى بالجرحى، وكان بعضهم يتلوّى كالأفعى، ثم يتمسّك بقطع الأثاث. وكانت الجدران والأرض ملطّخة ببقع الدم، والجثث مرميّة قرب الأبواب، كما قطعت طلقةٌ ذراع الملازم اليمنى، وكان الغبار والدخان يغطّيان كلّ الأشياء. "تشجعوا! ستصل المساعدة. المزيد من الشجاعة!". لكنّ النمساويين اقتربوا أكثر فأكثر، فكان من المستطاع مشاهدة وجوههم من بين الدخان، وسماع صيحاتهم الوحشية بين صخب الأعيرة الناريّة. كانوا يشتمون، ويطلبون الاستسلام، ويهددون بالمجازر. كان بعض الجنود يبتعد عن النافذة خائفا فزعا فكان الرقباء يدفعونه إلى الأمام. لكنّ نيران الدفاع بدأت تخفّ، وبدا الإحباط واضحا على وجوه الجميع، ولم يكن من الممكن المضيّ قدما في الدفاع. لكنّ ضربات النمساويين خفّت على حين غرّة، ثم أرعد صوت بالألمانيّة أوّلا ثم بالإيطالية: "استسلموا!". فصاح النقيب من إحدى النوافذ: "لا!". فعاودت النيران انطلاقها بشكل أشد حدّة وأكثر غضبا من الجانبين. سقط المزيد من الجنود، وأكثر من نافذة كانت بلا دفاع. اللحظة الحاسمة كانت قريبة، وكان النقيب يصيح من بين أسنانه بصوت مرتجف: "لم يأتوا! لم يأتوا!". وكان يجري هنا وهناك غاضبا وهو يلوي سيفه

بيده المرتجفة. لقد صمّم أن يموت. فجأة، نزل رقيب من السقيفة وأطلق صيحة عالية: "وصلوا!". فردّد النقيب بصيحة فرح: "وصلوا!". في تلك اللحظة، توجّه الجميع أصحّاء وجرحى رقباء وضبّاطا نحو النوافذ، واستعادت المقاومة قوّتها مرّة أخرى. بعد لحظات، ظهر نوع من التردّد وبداية فوضى بين الأعداء. وفي الحال، جمّع النقيب على عجلٍ تشكيلة في غرفة أرضيّة لتخرج البنادق، ثمّ طار مرّة أخرى نحو الأعلى. وما إن وصل حتى سُمع صخبٌ عنيف تصاحبه هتافات عالية، وظهرت من خلال النوافذ القبّعات ذات الرأسين التي يحملها الجنود الإيطاليون من سلاح الكارابنييري[1]. كانوا يتقدّمون عبر الدخان، على رأسهم سربٌ يزحف بسرعة كبيرة، بينما بريق النصول يلمع في الهواء؛ على الرؤوس، وعلى الأكتاف والظهور. عندها، اقتحمت التشكيلة الباب، وخرجت وقد أخفضت حراب بنادقها. تعثّر الأعداء، وعمّت فيهم الفوضى، ثم قفلوا إلى الوراء، وأخلوا الميدان وتحرّر البيت. بعد قليل، احتلّت كتيبتا مدفعيّة إيطاليتان المرتفع ونصبتا مدفعين عليه.

انضمّ النقيب ومن بقي من جنوده إلى فرقتهم، وتواصل القتال، ثمّ جرحته رصاصة طائشة جرحا خفيفا في يده اليسرى خلال آخر معركة بالبنادق.

انتهى النهار بانتصار قوّاتنا.

لكنّ المعارك استؤنفت في اليوم التالي. ورغم الدفاع العنيد الذي أبداه الإيطاليون فقد فوجئوا بعديد النمساويين الضخم، ممّا حتّم عليهم أن يأخذوا صباح السادس والعشرين طريق التقهقر المؤلم، فانسحبوا نحو نهر مينشو.

تقدّم النقيب رغم أنّه جريح، وتابع سيره على الأقدام مع جنوده المرهقين الصامتين. وما إن وصل مع المغيب إلى غويتو على نهر مينشو حتى بدأ يبحث عن الملازم ذي الذراع المكسورة الذي حملته سيارة الإسعاف، فلا بد أنّه وصل قبله إلى المكان. دلّوه على دار عبادة نُصب فيها على وجه السرعة مشفى ميداني. ذهب إلى هناك. كانت دار العبادة ملأى بجرحى ممدّدين على صفّين من الأسرّة

(1) سلاح الكارابنييري هو أقدم فرق الجيش الإيطالي، وما زال فرقة من فرقه، ونوعا من الشرطة العسكرية المكلّفة بحماية المدنيين والعسكر على السواء.

والفرش المفروشة على الأرض، وكان هناك طبيبان والعديد من الخدم يتنقّلون جيئة وذهابا منهكين، وسط الصيحات المخنوقة وأنّات الشكوى.

دخل النقيب ثم توقّف ليجيل النظر في ما حوله بحثا عن ضابطه.

في تلك اللحظة، سمع صوتا ضعيفا يناديه عن قرب: "أيها السيّد النقيب!".

التفت؛ كان الطبّال.

كان ممدّدا على سرير ميداني، ومغطّى حتى صدره بستارة خشنة من ستائر النوافذ ملوّنة بمربعات حمراء وبيضاء. وكانت ذراعاه ممدودتين خارج الستارة. كان هزيلا وممتقع الوجه، لكنّ عينيه ما زالتا تلمعان مثل جوهرتين سوداوين.

- هل أنت هنا؟! سأله النقيب بدهشة ممزوجة بالحزم. "شاطر. لقد أدّيت واجبك".

- قمتُ بما أستطيع القيام به. أجاب الطبّال.

- إذا، لقد جُرحت. أردف النقيب وهو يجيل نظره بحثا عن ضابطه في الأسرّة القريبة.

- ما العمل!؟ قال الفتى بعد أن تشجّع وتجرّأ بالكلام، فهو جريح هذه المرّة، وإلاّ فكيف له أن يفتح فاه أمام ذلك النقيب!؟ "لقد اضطررت لأن أجري طويلا مثل الأحدب، لكنّهم رأوني في الحال. كان بوسعي أن أصل قبل عشرين دقيقة إن لم يصيبوني. لحسن الحظّ، سرعان ما وجدت نقيبَ أركان وسلّمته الورقة. لكنّ ذلك النزول كان متعبا حقّا بعد تلك المداعبة! كنت أموت من العطش، وبدأت أخشى ألاّ أصل على الإطلاق، كدت أبكي من الغضب وأنا أفكّر أنّ كل دقيقة تأخّر تعني انتقال أحد الأشخاص هناك إلى العالم الآخر. كفى، لقد قمت بما أستطيع أن أقوم به. إنّي سعيد. لكن، اسمح لي سيّدي النقيب أن أنبّهك بأنّ الدم يسيل منك".

والواقع أن بعض قطرات الدم كانت تقطر من يد النقيب وتسيل من راحة كفّه التي لم تربط كما يجب.

"هل تريد أن أوثق رباط جرحك يا سيّدي النقيب؟ مدّها دقيقة".

مدّ النقيب يده اليسرى، وساعد الفتى باليمنى على فكّ العقدة وإعادة

وثاقها، لكنّ الفتى ما إن نهض بعض الشيء عن وسادته حتى امتقع وجهه واضطرّ لأن يسنده مرة أخرى.

"كفى، كفى". قال النقيب وهو يرى وضعه، ثم سحب يده المربوطة بعد أن أبقاها الفتى في يده. "انظر في أمورك بدل أن تفكر في أمور الآخرين، فالأمور الخفيفة قد تصبح خطيرة إن أُهملت".

فهزّ الطبّال رأسه.

فأردف النقيب قائلا وهو ينظر إليه بانتباه: "لكن، لا بد أنك فقدت كثيرا من دمك كي تكون على هذه الهيئة".

"تقول إنّي فقدت كثيرا من الدم؟". أجاب الفتى وهو يبتسم. "لقد فقدت غير الدم. انظر".

ثم كشف الستارة بسرعة، فتراجع النقيب إلى الوراء مذعورا.

لم تبق للفتى إلاّ قدم واحدة، فقد قطعوا له قدمه اليمنى من فوق الركبة، وكان مكان القطع ملفوفا برباطٍ دامٍ.

في تلك اللحظة، مرّ طبيب عسكريّ صغير وسمين، يرتدي قميصا بنصف كمّ، فقال على عجل وهو يشير إلى الطبّال: "آه، أيها السيد النقيب، هذه حال مؤسفة، كان يمكن إنقاذ قدمه بسهولة لو أنه لم يرهقها بتلك الطريقة الجنونية. لقد أصابه التهاب لعين، وكان لا بد من البتر على هذا الشكل. آه، لكنّه فتى شاطر، كن على ثقة من هذا، خاصة وأنه لم يذرف دمعة واحدة، ولم يطلق صرخة. أقسم بشرفي إني عندما أجريت له العملية شعرت بالفخر لأنه فتى إيطالي. إنّه والله من جنس طيّب!".

ثم ذهب على وجه السرعة.

قطّب النقيب حاجبيه الكثيفين الأبيضين وحدّق بالطبّال وهو يغطّيه بالستارة، ثمّ واصل التحديق به، وقام وكأنه لا يدرك ما الذي يفعله برفع يده إلى رأسه وخلع قبّعته تحية له.

"أيها السيّد النقيب!". صاح الفتى مندهشا. "ماذا تفعل أيها السيد النقيب؟".

عندها أجاب ذلك الجندي الخشن الذي لم يقل في حياته كلمة حلوة

لأي شخص أدنى منه، وبصوت لطيف وحنون بما يفوق الوصف: "أنا لست إلا نقيبا، أما أنت فبطل".

ثم انهال مفتوح الذراعين على الطبّال وقبّله ثلاث مرة فوق قلبه.

البيت الذي يقال إن الطبّال انطلق منه.

صورة قطعة الرخام الموضوعة فوق البيت الذي يقال إن الطبّال انطلق منه. وقد كتب عليها:من هذا البيت خرج الطبّال السرديني ليدخل التاريخ والأساطير التي أشعلها قلب الكاتب إدوموندو دي آميشيس من أجل أولاد إيطاليا.

محافظة فيرونا تعبيرا عن الرأي العام - سنة 1954

حبّ الوطن

الثلاثاء 24

بما أنّ قصة الطبّال هزّت قلبك فلا بد أن يسهل عليك أن تكتب هذا الصباح موضوع الفحص: لماذا تحبّون إيطاليا؟ لماذا أحبّ إيطاليا؟ ألم يحضرك في الحال مائة جواب؟ إني أحبّ إيطاليا لأن أميّ إيطالية، لأنّ الدم الذي يجري في عروقي دمٌ إيطالي، لأن الأرض التي دُفن فيها الأموات الذين تبكي عليهم أميّ ويجلّهم أبي إيطالية، لأنّ المدينة التي ولدت فيها واللغة التي أتكلّم بها إيطاليتان، وكذلك الكتب التي تثقفني، ولأنّ أخي وأختي ورفاقي والشعب الكبير الذي أعيش في وسطه، والطبيعة الجميلة التي تحيط بي، وكلّ ما أراه وأحبّه وأدرسه وما يعجبني؛ كل ذلك إيطالي. أوه، قد لا يكون بوسعك حتى الآن أن تشعر بكلّ هذه المحبّة، لكنّك ستشعر بها عندما تصبح رجلا، عندما تعود من رحلة طويلة، وتغيب غيابا طويلا، ثم تطلّ ذات صباح من على شرفة السفينة فترى أمامك في الأفق جبال بلادك الزرقاء الشاهقة، ستشعر به عندها يتقلّب حتى داخل الموجة العاتية بالحنين مما يملأ عينيك بالدموع وينتزع الصرخة من قلبك. ستشعر بذلك في مدينة ما كبيرة بعيدة، بفعل حافز روحاني يدفعك بين جماهير مجهولة نحو عاملٍ لا تعرفه عندما تسمع منه خلسة كلمة بلغتك وأنت تمرّ قربه. ستشعر بها في خضمّ الازدراء المؤلم والرائع الذي يجعل الدم يصعد من عروقك نحو رأسك عندما تسمع من فم أجنبيّ إهانة لبلدك. ستشعر بها بصورة أشدّ حدّة ونبلا يومَ يثير تهديد شعب عدوّ عاصفة من النار في وطنك؛ فترى الأسلحة تثور في كلّ مكان، والشباب يجرون نحو الفيالق، والآباء يقبّلون الأبناء ويقولون لهم: "تشجعوا!". والأمهات يودعونهم ويقلن لهم: "انتصروا!". ستشعر بها وكأنها فرح غامر إذا كنت محظوظا بأن ترى الكتائب المنهكة تعود

إلـى مدينتـك ضعيفـة رثّة الثياب فظيعة المنظر، لكنّ بهاء النصر يشـعّ من عيون أفرادها، والرايات مزّقتها الطلقات وتتبعها فلول مبادة من شجعان يرفعون عاليا رؤوسهم المضمّدة، والمشوّهون يمشون وسط جمهور جنّ جنونه، وهو يغطّيهم بالورود والتحيات والقُبل. عندها، سـتدرك ما هو حبّ الوطن، وستشـعر عندها بالوطـن يـا أنريكـو. إنّـه أمـر كبير ومهمّ جدّا؛ حتى إنـيّ إذا رأيتك يوما ما عائدا سـليما معافى من معركة خضتها لأجله، إذا رأيتك سـليما أنت الذي من لحمي ومن روحي، إذا علمت أنك سلِمْت لأنك اختبأت من الموت، فإنّي - أنا أبوك الذي أسـتقبلُك الآن بفرحٍ غامر عندما تعود من المدرسـة - سأسـتقبلك حينها بغصّة حزن، ولن أسـتطيع أن أكِنّ لك أيّ محبّة في قلبي، بل سـأموت وذلك الخنجر في صدري.

أبوك

حسد

الأربعاء 25

كان ديروسّـي أفضل الجميع في من كتبوا موضوعا عن الوطن. بينما كان فوتينـي متأكّـدا مـن أنّه سـيحوز علـى الميداليّة الأولى! إني أحـبّ فوتيني؛ رغم أنّه مغرور بعض الشـيء وكثيرا ما يختال بنفسـه. كنت جالسـا في مقعده، فأثار اشـمئزازي عندما عرفت أنّه يحسـد ديروسّـي. إنّه يتوق لأن ينافسه، ولذلك فإنّه يـدرس ويـدرس لكنّـه لا يسـتطيع أن يتغلّـب عليه بأيّ طريقـة؛ خاصّة وأنّ هذا يسبقه عشر مرّات في كلّ المواد، وهكذا فإنّه لا يتبقّى أمام فوتيني إلاّ أن يعضّ على أصابعه. ورغم أنّ كارلو نوبيس يحسده أيضا، إلاّ أن كبرياءه تمنعه من أن يُظهر شـيئا من ذلك. وهذا ما يعجز فوتيني عن تقليده، لذلك يتذمّر في البيت من علاماته، ويبرّرها بقوله إن الأسـتاذ غير عادل. أمّا عندما يرى أنّ ديروسّـي حاضـر البديهـة ويجيـب دائما على الأسـئلة بطريقة صحيحة، فإنه يغتمّ ويطأطئ رأسـه، ثم يتصنّع أنه لم يسـمع شـيئا أو يبدأ بالضحك ضحكة صفراويّة. يعرف الجميع أسـاليبه هذه، لذلك ما إن يمدح الأسـتاذ ديروسّـي حتّى يلتفت الجميع ليشـاهدوا ردّة فعل فوتيني وهو يلوك سـموم نفسـه بينما يحاول المعماريّ أن يغيظـه بحـركات وجهـه. أمّا اليوم، فقد عانى أشـدّ العذاب عندما دخل الأسـتاذ المدرسة وأعلن نتائج الفحص: "ديروسّي عشرة على عشرة والميدالية الأولى". عطس فوتينـي عطسـة عظيمة، فنظر إليه الأسـتاذ لأنّ الأمـر كان واضحا، وقال لـه: "لا تـدع يـا فوتينـي حيّة الحسـد تتغلغل في قلبك، إنّها حيّـة تقرض النخاع وتُفسـد القلب". نظر إليه الجميع عدا ديروسّـي. أراد فوتيني أن يجيب لكنّه لم يتمكـن، بـل بقـي صامتـا وكأنّما تحجّـر بوجهه الأبيض. ثم وبينما كان الأسـتاذ يعطي الدرس، بدأ يكتب على ورقة بأحرف كبيرة: أنا لا أغار من أولئك الذين

يحصلون على الميدالية الأولى ظلما وبالمحسوبية. كانت بطاقة أراد إرسالها إلى ديروسّي. هذا بينما كنت أرى أنّ جيران ديروسّي يتهامسون في الآذان ويتآمرون في ما بينهم، ثم قطع أحدهم ورقة بالمِشْرَط وجعلها على هيئة ميدالية كبيرة رسموا عليها حيّة سوداء كبيرة. لاحظ فوتيني الأمر. وعندما خرج الأستاذ لبضع دقائق، قام جيران ديروسّي وقدّموا الميدالية الورقية بكلّ احترام إلى فوتيني. حضّر جميع من في الصفّ أنفسهم لمتابعة المشهد. كانت أعضاء فوتيني كلّها ترتجف. لكنّ ديروسّي صاح: "أعطوني إيّاها!". فأجابوا: "هذا أحسن، أنت الذي يجب أن تحملها". أخذ ديروسّي الميدالية ومزّقها إربا. عاد الأستاذ واستؤنف الدرس. كنت أراقب فوتيني، ورأيت أن وجهه أصبح أحمر مثل الجمر، ثم أخذ الورقة ببطء شديد كما لو أنه يفعل ذلك سهوا، وكوّرها خفية، ثم سلكها في فمه، وعلكها قليلا ثم بصقها تحت المقعد... وعند الانصراف من المدرسة، مرّ فوتيني أمام ديروسّي وألقى الورقة أمامه وهي لم تجفّ بعد. التقطها ديروسّي بلطف ووضعها له في حقيبة ظهره، ثم ساعده على ربط وثاق الحقيبة. لكنّ فوتيني لم يجرؤ على رفع رأسه.

أمّ فرانتي

السبت 28

لكنّ فوتيني فاسدٌ عنيد. البارحة، سأل الأستاذ ديروسّي خلال الدرس وبحضور المدير إذا كان يحفظ غيبا بيتين من كتاب القراءة، فأجاب ديروسّي بالنفي. فانبرى فوتيني في الحال، وقال وهو يبتسم ابتسامة أراد أن يسخر بها من ديروسّي: "أنا أعرف!". لكنّ السخرية انقلبت عليه لأنّه لم يتمكن من إلقاء القصيدة، فقد دخلت أمّ فرانتي الصفّ فجأة وهي تلهث، وكان شعرها الرمادي منفوشا وهي مبلّلة بالثلج، وكانت تدفع أمامها ابنها المفصول من المدرسة لمدة ثمانية أيام. أيّ مشهد حزين كان علينا أن نرى! كادت المرأة المسكينة أن تركع أمام المدير، وضمّت يداها وتوسّلت: "الرحمة والعطف أيّها السيد المدير، أعد هذا الفتى إلى المدرسة. منذ ثلاثة أيام وأنا أحاول أن أخفيه في البيت؛ لأن أباه سيذبحه إذا اكتشف الأمر. الرحمة، لم أعد أعرف كيف أتصرّف! أتوسّل إليك بكلّ جوارحي!". حاول المدير أن يخرجها لكنّها قاومت وهي ترجو وتبكي. "آه، لو كنت تعرف مقدار الآلام التي سبّبها لي هذا الابن لرأَفْت بي! اصنع معي هذا المعروف! إنّي أرجو أن يتغيّر. إني لن أعيش طويلا أيها السيد المدير، أشعر بالموت هنا، لكنّي أريد أن أراه قد تغيّر قبل أن أموت، لأنّه... وانفجرت في بكاء وعويل.. "ابني، وأنا أحبّه. قد أموت يأسا، أرجعه مرّة أخرى أيها السيّد المدير كي لا تحدث مأساة في عائلتنا، افعل هذا رأفة بامرأة مسكينة!". ثم غطّت وجهها بيديها وهي تنتحب. كان فرانتي مطأطئا رأسه وتعابير وجهه جامدة. نظر إليه المدير، وبقي يفكّر لبرهة ثمّ قال: "اذهب يا فرانتي إلى مقعدك". رفعت المرأة عندئذ يديها عن وجهها وقد اطمأنّ قلبها، وبدأت بتقديم الشكر تلو الشكر من دون أن تفسح المجال للمدير كي يتكلّم، ثمّ توجّهت نحو الباب وهي

تجفف عينيها وتقول بعجالة: "أوصيك يا ابني. ليصبر الجميع عليه. شكرا أيّها السيد المدير، لقد صنعت معروفا كبيرا. كن صبيّا مؤدّبا يا بنيّ. نهاركم سعيد أيّها الفتيان. شكرا وإلى اللقاء أيّها السيد الأستاذ. اعذروا جميعا هذه الأمّ المسكينة". ثمّ خرجت. ألقت نظرة استعطاف أخيرة على ابنها، وذهبت وهي تلمّ الشال المسحوب وراءها. كانت ممتقعة الوجه، منحنية الظهر، مرتجفة، بل سمعناها وهي لا تزال تسعل خلال نزولها على الدرج. نظر المدير بثبات إلى فرانتي وسط صمت الصفّ المطبق، ثمّ قال له بلهجة مزعزعة: "إنك تقتل أمّك يا فرانتي!". التفت الجميع ليشاهدوا ردّة فعل فرانتي، لكنّ ذلك الحقير كان يبتسم.

ميدالية في محلّها

السبت 4

جاء هذا الصباح مفتش التعليم ليقدّم الميداليات، وهو سيّد ذو لحية بيضاء ويرتدي ملابس سوداء. دخل بصحبة المدير قبل نهاية الدوام بقليل، ثمّ جلس إلى جانب الأستاذ. وبعد أن سأل الكثيرين قدّم الميدالية الأولى لديروسّي، وأمضى بعض الوقت وهو يستمع للأستاذ والمدير وهما يكلّمانه همسا قبل أن يقدّم الثانية. كان الكلّ يتساءل: "لمن سيعطي الثانية؟". قال المفتش بصوت مرتفع: "حاز على الميدالية الثانية هذا الأسبوع التلميذ بييترو بريكوسّي، وقد استحقّها لمواظبته على وظائفه المنزلية وعلى دروسه وحسن خطّه وسلوكه وكلّ شيء". التفت الجميع ليشاهدوا بريكوسّي، وكان واضحا أنهم شعروا كلّهم بالارتياح. نهض بريكوسّي وهو مضطرب وكأنّه لا يعرف أين هو. خاطبه المفتش قائلا: "تعال إلى هنا". فقفز بريكوسّي من على مقعده، وذهب إلى جانب طاولة الأستاذ. نظر المفتّش بانتباه إلى ذلك الوجه الصغير ذي اللون الشمعيّ، وذلك الجسم النحيل المغلّف بأرديةٍ مشمورة غير لائقة، وتينك العينين الطيّبتين الحزينتين اللتين تهربان من نظراته رغم أنّهما تفصحان عن قصص مؤلمة، ثمّ قال له بصوت مفعم بالعطف وهو يعلّق الميدالية على كتفه: "أمنحك يا بريكوسّي هذه الميداليّة. ليس هناك من هو أجدر منك في حملها. إني لا أمنحك إيّاها تقديرا لذكائك وحُسن نواياك فقط، بل أمنحها أيضا لقلبك الطيّب ولشجاعتك ولشخصيتك؛ شخصية الابن الصالح الحاذق المفلح". ثمّ أضاف متوجّها نحو الصفّ: "أليس صحيحا أنه استحقّها لهذه الأسباب أيضا؟". فأجاب الجميع بصوت واحد: "بلى، أجل". قام بريكوسّي بحركة في عنقه كما لو أنه سيبتلع شيئا، لكنه ألقى بنظرة حلوة نحو المقاعد عبّرت عن امتنانه العميق. فقال له

المفتّش: "اذهب الآن يا بنيّ العزيز! وليحرسك الله! حانت ساعة الانصراف". فخرج صفّنا قبل الجميع. وعندما بلغنا الباب الخارجي: مَن رأينا في ردهة المدخل؟ كان هناك أبو بريكوسّي الحدّاد، وكان ممتقعا مثل عادته، بوجهه البغيض وشعره المنسدل على عينيه وطاقيته المائلة، غير ثابت على قدميه. رآه الأستاذ في الحال، فهمس في أذن المفتّش الذي سارع للبحث عن بريكوسّي. وعندما وجده، أخذ بيده واصطحبه نحو أبيه. كان الفتى يرتجف. اقترب المدير والأستاذ أيضا، كما تجمّع الكثير من الطلبة حولهما. سأل المفتّشُ الحدّادَ بنوعٍ من المرح كما لو أنّهما صديقان قديمان: "إنّك أبو هذا الفتى، صحيح؟". ثمّ أردف بدون أن ينتظر الجواب: "أهنئك، انظر لقد ربح ابنك الميدالية الثانية على أربعة وخمسين زميلا، استحقّها في الإنشاء والحساب، بل في كلّ شيء. إنه فتى حادّ الذكاء وقويّ الإرادة وسيحقّق الكثير لأنه حاذق، وقد حاز على محبّة الجميع وتقديرهم. يحقّ لك أن تفتخر به، أؤكد لك". أصغى الحدّاد لكلّ هذا فاغر الفم، وحدّق في المفتّش والمدير، ثم حدّق بابنه الذي كان أمامه خافض النظر مرتجفا. بدا أنّه تذكّر وأدرك للمرّة الأولى كلّ ما سبّبه من آلام لذلك المسكين الصغير؛ تلك الآلام التي تحمّلها بكلّ طيبة، بل وببطولة متواصلة. فجأة، ظهر على وجه الأب نوع من الدهشة الغبيّة مصحوبة بالتقطيب والعبوس، وتحوّل كلّ هذا إلى حنان حزين عميق جعله يقوم بحركة سريعة ليمسك برأس الفتى ويضمّه إلى صدره. مررنا جميعنا أمامه، أمّا أنا فقد دعوته ليأتي إلى بيتي يوم الخميس بصحبة غاروني وغروسّي، ثم حيّاه آخرون. وهناك من مدّ يده مداعبا أو ليلمس الميدالية، والجميع قالوا له ما قالوه. كان الأب يشاهد المنظر مندهشا، وهو لا يزال يضمّ رأس ابنه إلى صدره، بينما كان الفتى يجهش في البكاء.

نوايا حسنة

الأحد 5

سببّت تلك الميدالية التي قُدِّمت لبريكوسّي بعضا من تأنيب الضمير لي. لي أنا الذي لم أحصل حتّى على واحدة منها! إنيّ لا أدرس منذ بعض الوقت، ولست راضيا عن نفسي، كما أنّ الأستاذ وأبي وأميّ غير راضين عنيّ. إنّي لا أشعر الآن باللذة نفسها التي كنت أشعر بها في الماضي عندما كنت أتسلّى، عندما كنت أعمل من كلِّ قلبي، ثمّ أقفز من الفرح وأترك طاولتي لأذهب إلى ألعابي مفعما بالسرور؛ كما لو أنيّ لم ألعب بها منذ شهر. ولا أجلس الآن إلى مائدة الطعام مع أهلي بالسرور السابق نفسه. أشعر كما لو أنّ هناك نوعا من الظلّ يخيّم على نفسي، بل وبعض الأصوات التي تقول لي: "هذا غير جيّد! غير جيّد!". في المساء، أرى في الساحة كثيرا من الفتية العائدين من العمل وسط جماعات من العمّال منهكين، لكنْ مسرورين، يغذّون السير مشتاقين للوصول إلى بيوتهم ليأكلوا، وهم يتكلّمون بصوت مرتفع، ويتضاحكون ويربتون على أكتاف بعضهم بعضا بأيديهم السوداء الملوّثة بالفحم أو البيضاء الملوّثة بالكلس. عندها، يخطر في بالي أنّهم عملوا منذ طلوع الفجر وحتى هذه الساعة، وهناك كثيرون آخرون أصغر منهم عملوا طيلة النهار فوق الأسطح أو أمام الأفران أو بين الآلات أو داخل المياه، أو تحت الأرض، ولم يأكلوا إلاّ قطعة خبز، فأشعر عندها بالخجل لأنّي لم أعمل سوى أنّي أخربش وعن سوء خاطر على أربع صُفيحات لا غير. إنّي مستاء وغير راض بالفعل. وقد تحقّقت من أنّ أبي مستاء أيضا؛ وإن كان يسوؤه أن يفاتحني في الأمر، لهذا فهو ينتظر. يا أبي العزيز الذي تجهد نفسك في العمل، يا أبي العزيز الذي دبّرت لنا كلّ شيء، كلّ ما أراه حولي في البيت، كلّ ما ألمسه، كلّ ما ألبسه وما آكله، كلّ ما يرشدني وما

يسلّيني، كلّ هذا من ثمرات عملك، كل هذا كلّفك هموما وتضحيات وأحزانا وجهودا، بينما أنا لا أجهد نفسي في شيء! أبدا، ليس في هذا أيّ عدل وإنّه يؤلمني. أريد أن أبدأ منذ اليوم، أريد أن أجدّ في دراستي مثل ستاردي، يجب أن أشدّ قبضتيّ، وأن أكزّ على أسناني، وأن أكرّس كلّ جهودي وأستجمع كل قوّة في إرادتي وفي قلبي. أريد أن أتغلّب على النعاس في المساء، وأن أقفز باكرا من سريري، وأن أنغّص رأسي بلا توقّف، وأن أجلد الكسل بدون شفقة، وأتعب بل وأتألّم وأعاني وأمرض على أن أنهي هذه الحياة السيّئة الفاترة الكسولة التي تسمّم قلبي وتُحزن الآخرين حولي. هيا، تشجّع، إلى العمل بكلّ عزمك وبكلّ أعصابك، إلى العمل الذي سيضمن لك حلاوة الراحة والمسرّة في اللعب ووجبة عشاء مرحة، إلى العمل الذي سيعيد لي ابتسامة طيّبة من أستاذي وقبلة مباركة من أبي.

القطار البخاري

الجمعة 10

جاء بريكوسّي البارحة إلى بيتنا، جاء مع غاروني. أظنّ أنّهما لو كانا ابنَي أميرين لما تمّ استقبالهما بمثل تلك الحفاوة. كانت تلك هي المرة الأولى التي يزورني فيها غاروني، لأنّه مثل الدبّ ويخجل من أن يرى الناس، فهو رغم ضخامته ما زال في الصفّ الثالث. ما إن قرع الجرس حتى ذهبنا كلّنا لنفتح الباب. لم يأت كروسّي لأن أباه وصل أخيرا من أميركا بعد ست سنوات غياب. قبّلت أمّي بريكوسّي في الحال، بينما كان أبي يقدّم لها غاروني قائلا: "ها هو. هذا ليس فتى طيّبا وحسب، بل إنّه أيضا رجل نزيهٌ ونبيل". فطأطأ هذا رأسه الكبير المحلوق، بينما كان يضحك في السرّ أمامي. اصطحب بريكوسّي ميداليّته، وكان مسرورا لأنّ أباه استأنف العمل وانقطع عن الشرب منذ خمسة أيام، ولأنّه يريد منه أن يرافقه في الورشة بعد أن بدا أنّه أصبح إنسانا آخر. بدأنا باللعب، فأخرجت كل ما لديّ من ألعاب، وبدا أنّ بريكوسّي قد سحرته لعبة قطار السكّة الحديديّة الذي يتحرك بطريقة آليّة بعدما يُشدّ حبله ليُربط نابضه. يبدو أنّه لم ير مثله من قبل. كان يلتهم بعينيه تلك العربات الحمراء والصفراء. وقد أعطيته المفتاح لكي يلعب، فجثا وبدأ باللعب ولم يرفع عنه رأسه. لم أشاهده هكذا مسرورا من قبل. كان يكرّر في كلّ مناسبة: "عفوا! عفوا!". وكرّرها هذه المرّة، خاصة وهو يدفعنا بيديه حتى لا نوقف الآلة. ثمّ كان يستعيد ويعيد العربات بحرص شديد كما لو أنها مصنوعة من زجاج قابل للكسر، بل إنّه كان يخشى من أن يغشّيها بأنفاسه، فكان يمسحها ويقلّبها لينظر إليها من تحتها ومن فوقها وهو يبتسم لوحده. كنّا جميعنا نراقبه ونحن واقفون، نراقب ذلك العنق الدقيق، والأذنين المسكينتين اللتين رأيتهما ذات يومٍ داميتين، والسترة المهلهلة، بالكمّين

الملفوفين اللذين تخرج منهما يدان هزيلتان كثيرا ما كانتا ترتفعان لتحميا وجهه من الضرب.... يا الله، كم كنت أودّ عندئذٍ أن أضع تحت قدميه ألعابي وكلّ كتبي، كم كنت أودّ أن أنزع من فمي آخر قطعة خبز لأقدّمها له، بل كان بودّي أن أخلع كلّ ملابسي على أن يكتسي بها، كان بودّي أن أجثو على قدميّ لأقبّل يديه. ثم فكّرت: يجب على أقلّ تقدير أن أعطيه هذا القطار. لكن، عليّ أن أطلب الإذن من أبي. في تلك اللحظة، شعرت بقصاصة ورق توضع في يدي، فقرأتها، ووجدت أنّها مكتوبة بقلم أبي الرصاص وخطّه، وجاء فيها: أرى أنّ قطارك قد أعجب بريكوسّي، وهو لا يملك أيّ لعبة، ألا يوعز إليك قلبك بشيء؟ أمسكت حالا بالقطار وعرباته ووضعتها كلّها بين ذراعيه وقلت له: "خذها، إنّها لك". فنظر إليّ من دون أن يفهم. فكرّرت: "إنّها ملكك، أهديها لك". نظر عندئذ إلى أبي وقد ازدادت دهشته ثمّ سألني: "ولماذا؟". فأجابه أبي: "يقدّمها أنريكو هدية لك لأنّك صديقه ولأنّه يحبّك... احتفالا بحصولك على الميداليّة". سأل بريكوسّي على استحياء: "هل آخذها إلى بيتي؟". فأجبنا: "بالطبع!". وصل إلى الباب لكنّه لم يجرؤ على الخروج. كان سعيدا! كان يعتذر، وشفتاه ترتعشان، وهو يضحك. ساعده غاروني على لفّ القطار في المنديل. وما إن انحنى حتى تكسّرت قطع الكعك التي ملأ بها جيوبه، ثمّ قال لي بريكوسّي: "يجب أن تأتي ذات يوم إلى الورشة لترى أبي وهو يعمل. سأعطيك بعض المسامير". ثمّ غرزت أمّي في عروة سترة غاروني ورودا على شكل باقة صغيرة لكي يقدّمها باسمها لأمّه. فقال لها غاروني بصوته الضخم: "شكرا". وذلك من دون أن يرفع ذقنه عن صدره، لكنّ عينيه كانتا تشرقان بطيبة روحه ونبلها.

غطرسة

السبت 11

كيف أقول إنّ كارلو نوبيس ينظّف كمّه بتصنّع ملحوظ إذا لمسه بريكوسّي وهو يمشي أمامه! هذا الشخص هو الغطرسة بعينها، ولماذا؟ لمجرّد أنّ أباه غنيّ. لكنّ أب ديروسّي غنيّ أيضا! إنه يودّ لو أنّ له مقعدا خاصّا به يجلس عليه وحده خوفا من أن يوسّخه الآخرون، وهو ينظر إلى الجميع من رأس أنفه، من علٍ، وتعلو شفتيه ابتسامة ازدراء: ويا للمصيبة إن داس شخص ما على قدمه عندما يخرج الجميع مصطفين مثاني! لأدنى سبب تراه يقذف في وجوه الآخرين الشتائم الوقحة، أو يهدّد باستدعاء أبيه إلى المدرسة. والحقيقة أنّ أباه خذله عندما أساء معاملة ابن الفحّام! إنّي لم أسمع بتلميذٍ بغيضٍ كهذا! لا أحد يكلّمه، لا أحد يودّعه عندما يغادر، لا يوجد كلبٌ يرضى بتلقينه الجواب إذا فشل في الإجابة أثناء الدرس. أمّا هو فلا يستطيع أن يتحمّل أحدا، بل ويظهر ازدراءه لديروسّي بالذات وقبل الجميع، لمجرّد أنّه الأول، وكذلك لغاروني لأنّ الجميع يحبّونه. لكنّ ديروسّي لا يعيره انتباها، بل ولا يراه رغم طوله. أمّا غاروني فقد أجاب عندما أخبروه أنّ نوبيس يستغيبه بالسوء: "إنّ غروره يجعله غبيّا لدرجة أنّه لا يستحقّ مجرّد ضربة منّي". كما أنّ كوريتّي قال له عندما رآه يسخر من قبّعته المصنوعة من وبر القطط ويزدريها: "اذهب لعند ديروسّي وتعلّم منه سلوك السادة!". ذهب البارحة لعند الأستاذ ليشتكي من الكالابريّ بعد أن لمس ساقه بقدمه، فسأل الأستاذ الكالابريّ: "هل قمت بهذا عمدا؟". فأجابه بصدق: "لا، يا سيّدي". قال الأستاذ عندها: "إنّك سريع الغضب يا نوبيس". فأجاب نوبيس بترفّعه المعتاد: "سأخبر أبي إذا". عندها استشاط الأستاذ غضبا وقال: "سيقول لك أبوك إنّك على خطأ، تماما كما قال لك في السابق. ثمّ لا تنسَ أنّ الأستاذ

هو وحده الذي يحكم ويعاقب في المدرسة". لكنّه أردف بلطف: "هيّا يا نوبيس، أحسن صحبة رفاقك، وكن لطيفا معهم. ألا ترى أنّ هناك أبناء عمّال وأبناء علّية القوم، أولاد أثرياء وأولاد فقراء، وأنّهم كلّهم يحبّون بعضهم بعضا، ويتعاملون كإخوة، وهم إخوة بالفعل؟ لماذا لا تسلك أنت أيضا سلوك الآخرين؟ قد لا يكلّفك شيئا أن تكون طيّبا مع الجميع، بل إنّ هذا سيسعدك أنت أيضا! ألا تجيب بكلمة؟". لكنّ نوبيس الذي كان يستمع بابتسامته المزدرية المعتادة، أجاب ببرودة: "لا، يا سيّدي". فقال له الأستاذ: "اجلس. إني أرثي لك، إنّك فتى بدون قلب". بدا أن الأمور انتهت على هذا الشكل، لكنّ المعماري الذي كان في المقعد الأوّل التفت بوجهه المستدير نحو نوبيس الجالس في المقعد الأخير وقلّد أمامه سحنة الأرنب المضحكة الجميلة فغرق كلّ من في الصفّ في ضحك صاخب. ومع أنّ الأستاذ وبّخه لكنّه اضطرّ إلى وضع يده على فمه لكي يخفي ضحكته. بل إنّ نوبيس نفسه ضحك لكنّه لم يكن مسرورا.

جرحى العمل

الاثنين 13

يمكن لنوبيس أن يُقارَن بفرانتي؛ فلا هذا ولا ذاك انفعلا أمام المشهد الفظيع الذي مرّ هذا الصباح أمام أعيننا. عندما خرجت من المدرسة، وقفت مع أبي لنتفرّج على أوغاد الصفّ الثاني الذين جثوا على الأرض وبدأوا بتسوية الثلج بستراتهم وطواقيهم ليجعلوه صالحا للانزلاق. فجأة، رأينا في آخر الشارع أناسا يسيرون بسرعة متجهّمي الوجوه، وهم يتهامسون في ما بينهم مرعوبين. كان في وسطهم اثنان من شرطة البلديّة يتقدّمان رجلين يحملان محفّة. جرى الفتية من كلّ جانب بعد أن اتّجه الحشد نحونا. كان هناك رجلٌ ممتقع الوجه ممدّد على المحفّة كالجثّة، وكان رأسه مرميّا على كتفه، وشعره متشابك وملطّخ بالدم الذي يسيل من فمه ومن أذنيه. كانت تسير إلى جانب المحفّة امرأة تحمل طفلا على يدها، وكانت تبدو كالمجنونة وهي تصيح بين الفينة والأخرى: "مات! مات!". وكان يسير وراء المرأة فتى يتأبّط حقيبة وهو يجهش في البكاء. سأل أبي: "ما الأمر؟". فأجابه شخص قريب منه أنّ الرجل كان عامل بناء سقط من الطابق الرابع بينما كان يعمل. توقّف حَملةُ المحفّة قليلا، فأشاح كثيرون بوجوههم بعد أن أرعبهم المنظر. رأيت المعلّمة ذات الريشة الحمراء وهي تسند معلّمتي في الصفّ الأوّل التي أغمي عليها. شعرت في الوقت نفسه بضربة على ذراعي. كان المعماريّ ممتقعا ويرتعش من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه. لا بد أنّه كان يفكّر بأبيه. بل إني فكّرت به أنا أيضا. لكنّي كنت من جهتي مرتاحا من هذه الناحية، فعندما أكون في المدرسة أكون متأكّدا من أنّ أبي يعمل وراء طاولته في البيت بعيدا عن كلّ المخاطر، لكنّ عددا كبيرا من رفاقي يفكرون في آبائهم وهم يعملون إمّا فوق جسر مرتفع أو قرب عجلات الآلات، حيث

يضحّي الشـخص بحياته ثمنا لزلّة صغيرة أو لفتة خاطئة. هؤلاء مثل الكثير من أبناء الجنود الذين يشترك آباؤهم في المعركة.

كان المعمـاريّ ينظـر ويراقب، فتشـتد رعشـاته. لاحظ أبـي الأمر فقال له: "اذهب إلى البيت يا فتى. اذهب لعند أبيك وستجده سليما معافى. هيا انطلق!". ذهب المعماريَ لكنّه بقي يتلفّت وراءه عند كلّ خطوة. بدأ الحشد يتحرك والمرأة تصـرخ بمـا يمـزّق القلوب. وكانت الأصوات هنا وهناك تؤكّد: مات! مات! لقد مـات! أو، لـم يمـت! لا، مـا زال حيّا! لكنّ المرأة لـم تعر الأصوات انتباها، بل مضت تنزع شعرها. سمعتُ عندها صوتا يقول بلهجة احتقار: "أوَتضحك؟". ثمّ رأيت رجلا ملتحيا يراقب وجه فرانتي وهو لا يزال يبتسم. فما كان من الرجل إلاّ أن صفعه وأسـقط قبّعته على الأرض، وهو يؤنّبه قائلا: "اكشـف عن رأسـك أيّها النذل عندما يمرّ أمامك جريحُ عمل". كان كلّ الحشـد قد تفرّق فشـوهدت في الشارع بقعة دمٍ على طول الشارع.

السجين

الجمعة 17

لا بد أنّ هذه أغرب حالة حدثت هذا العام! فلقد أخذني أبي صباح الأمس إلى ضواحي مونكاليري لكي نعاين فيلاّ سنستأجرها في الصيف المقبل، حيث إنّنا لن نذهب هذه السنة إلى كييري. عرفنا أنّ المفاتيح موجودة لدى شخص يعمل أستاذ مدرسة، وهو سكرتير صاحب الفيلاّ. أخذنا هذا الشخص لنرى البيت، ثم قادنا إلى غرفته وقدّم لنا الشراب. رأيت بين الكؤوس الموضوعة على طاولته محبرة خشبيّة مخروطيّة الشكل ومنحوتة بطريقة فريدة. عندما رأى الأستاذ أنّ أبي يتفحّصها قال له: "لهذه المحبرة قيمة كبيرة عندي، وليتك تعرف يا سيّدي قصّتها!". ثمّ بدأ يرويها، وأخبرنا أنه قبل سنوات كان يعمل أستاذا في مدينة تورينو، وقد ذهب طيلة الشتاء ليدرّس السجناء في السجون القضائيّة. كان يعطي الدروس في دار العبادة في السجون، وهي عبارة عن بناء مستدير محاط بجدران مرتفعة عارية، تعلوها نوافذ كثيرة مربّعة محميّة كلّها بقضيبين حديديين متصالبين، ووراء كلّ منها زنزانة صغيرة جدًا. كان يعطي الدروس وهو يتجوّل في دار العبادة المظلمة الباردة، بينما كان تلاميذه يطلّون من تلك الثقوب وهم يسندون دفاترهم على قضبان الحديد، ولا يرى في الظلّ منهم سوى وجوههم الشاحبة المقطّبة ولحاهم الرماديّة الكثّة وعيونهم الجاحظة كعيون القتلة واللصوص. لكنّ واحدا منهم في الرقم 78 كان أشدّ انتباها من الآخرين، وكان يدرس كثيرا، وينظر إلى الأستاذ نظرة احترام وعرفان بالجميل. كان شابّا له لحية سوداء، وبدا تعيس الحظّ أكثر من كونه شريرا. كان يعمل نجّار أثاث، واضطر خلال لحظة غضب أن يرمي مُعلّمَهُ الذي كان يضطهده منذ بعض الوقت بأداة ثقيلة، فجرحه في رأسه جرحا قاتلا، لهذا حُكم عليه بالسجن لبضع

سنين. تمكّن هذا الشاب أن يتعلّم القراءة والكتابة خلال ثلاثة أشهر، وكان يقرأ باستمرار، وكلّما ازداد تعلّما ازداد طيبة وندما على الجريمة التي اقترفها. ذات يوم بعد انتهاء الدرس، أشار إلى الأستاذ بإيماءة ليدعوه إلى الاقتراب من النافذة، وأبلغه بحزن أنه سيسافر صباح الغد من تورينو ليمضي زمن عقوبته في سجون مدينة البندقيّة. ثمّ ودّعه وتوسّل إليه بصوت متواضع ومنفعل أن يعطيه يده، وعندما سحب الأستاذ يده رأى أنّها مبللة بالدموع. لم يره بعد هذا أبدا. مضت على القصة ست سنين. وأردف الأستاذ قائلا: "لم أكن أفكّر أبدا بذلك التعيس عندما جاءني صباح قبل البارحة شخصٌ مجهول، بالي الثياب، لحيته سوداء كثّة بدأ يخطها بعض الشيب، وقال لي: هل أنت أيّها السيد الأستاذ فلان الفلاني؟ فسألته: ومن أنت؟ فأجاب: أنا السجين رقم 78 الذي علّمتني القراءة والكتابة قبل ست سنوات، إذا كنت تذكر فقد أعطيتني يدك بعد الدرس الأخير. لقد قضيت مدّة حكمي، وها أنذا هنا.. أتيت لأرجوك أن تتفضّل بقبول هذه الذكرى منّي، إنّه شيء صغير لا يُذكر صنعته في السجن. فهل تقبل هذه الذكرى أيّها السيّد الأستاذ؟ فوقفت حائرا بلا كلام. وعندما ظنّ أنّي لا أقبلها، نظر إليّ نظرة تقول: ألم تكفِ ست سنين لتطهير يديّ! ونظر إليّ نظرة تنبض بالآلام ممّا دفعني لأن أمد يدي في الحال لتناول الهديّة. هذه هي القصة". نظرنا إلى المحبرة بانتباه: بدا أنها حُفِرت برأس مسمار وبصبر عظيم جدّا. حُفر عليها قلمٌ مائل على دفتر وكتب حولها: "إلى أستاذي - ذكرى من رقم 78"، وكتب في الأسفل أيضا بحروف صغيرة: "دراسة وأمل...". توقّف الأستاذ عن الكلام، فذهبنا. لكنّي لم أتمكّن طيلة الرحلة من مونكاليري إلى توريتو من أن أنزع من رأسي صورة ذلك السجين وهو يطلّ من كوّة زنزانته، ثمّ توديعه لأستاذه، وتلك المحبرة الوضيعة التي صنعت في السجن والتي تعبّر عن أشياء كثيرة، بل إنّي رأيت كلّ ذلك في أحلامي تلك الليلة، وفكّرت فيها هذا الصباح... من غير أن أحسب حساب المفاجأة التي كانت تنتظرني في المدرسة! فقد جلست على مقعدي الجديد إلى جانب ديروسّي، ثمّ كتبت مسألة الحساب للفحص الشهريّ، وبدأت أروي لرفيقي قصّة السجين والمحبرة وشكل المحبرة والقلم

المائل على الدفتر والكتابة المخطوطة عليها: "ست سنوات". قفز ديروسّي عند سماع هذه الكلمة، وبدأ ينظر إليّ حينا وحينا إلى كروسّي ابن بائعة الخضار الذي كان يجلس في مقعده أمامنا. كان يدير ظهره لنا، وكان مستغرقا في حلّ المسألة. قال: "ولا كلمة!". همس بعدها في أذني وهو يمسك بذراعي. "ألا تعلم؟ قال لي كروسّي قبل البارحة إنّه رأى خفية محبرة خشبيّة في يد أبيه العائد من أميركا؛ محبرة مخروطيّة مصنوعة باليد، وعليها صورة دفتر وقلم. إنّها هي، ستّ سنوات! كان يقول إنّ أباه كان في أميركا، لكنّه كان في السجن. كان كروسّي صغيرا وقت الجريمة، ولا يذكر عنها شيئا، وهكذا فقد خدعته أمّه، وهو لا يعرف شيئا عن الأمر، فلا تقل حرفا واحدا عن هذا!". تعطّلت لغة الكلام عندي، وعيناي مثبّتتان على كروسّي. بعدها، حلّ ديروسّي المسألة ومرّرها من تحت المقعد إلى كروسّي. أعطاه قصاصة ورق، وأخذ منه القصّة الشهريّة عن ممرّض تاتا التي كلّفه الأستاذ بنسخها لكي ينسخها هو عوضا عنه. أهداه بضعة أقلام، وضربه على كتفه مداعبا، ثم استحلفني بشرفي ألاّ أقول أي شيء عن الأمر لأيّ كان. وعندما خرجنا من المدرسة، قال لي على عجل: "جاء أبوه البارحة ليأخذه، وسيأتي هذا الصباح أيضا، فافعل مثلما أفعل أنا". خرجنا إلى الشارع، كان أبو كروسّي هناك، كأنّما على طرف من الشارع. كان رجلا بلحية سوداء يخطها بعض الشيب، رثّ الثياب، ممتقع الوجه متأمّلا. شدّ ديروسّي على يد كروسّي بطريقة تلفت الانتباه، وقال له بصوت مرتفع وهو يمرر يده أسفل ذقنه: "وداعا يا كروسّي". ففعلت مثلما فعل. في هذه الأثناء، تحوّل لون ديروسّي إلى القرمزي، وكذلك أنا. لأن أبا كروسّي حدّق إلينا وتأمّل فينا بلطف، لكنّ نظرته كانت تنمّ عن تعابير قلقٍ وشكّ أرعبتنا.

ممرّض تاتا

قصّة شهريّة

في صباح يوم ممطر من أيّام آذار، مثل فتى في ثيابٍ ريفيّة ممرّغةٍ بالماء والوحل، وهو يتأبّط رزمة من الملابس، مثل أمام بوّاب مستشفى نابّولي الكبير ليسأل عن أبيه بعد أن عرض عليه رسالة في يده. كان له وجهٌ جميل بيضاوي ذو لون أسمر ممتقع، وعينان متأمّلتان، وشفتان مكتنزتان شبه مفتوحتين تنكشفان عن أسنانٍ بيضاء ناصعة. كان من قريةٍ من ضواحي نابّولي. ترك أبوه البيت قبل سنة ليسافر بحثا عن عمل في فرنسا، لكنّه عاد إلى إيطاليا، وحطّ به الرحال قبل أيّام في نابّولي حيث انتابه المرض على حين غرّة لكنّه تمكّن من أن يكتب بسرعة سطرين لعائلته ليعلمها بوصوله وبدخوله المستشفى. تألّمت زوجته لهذا الخبر، لكنّها لم تتمكن من التحرّك من بيتها لأنّ لها طفلة مريضة وأخرى رضيعة، لذلك أرسلت إلى نابّولي ابنها الكبير وحمّلته بعض النقود ليساعد أباه، أو تاتا كما كان ينعت الأب في ذلك المكان. وقد قطع الفتى عشرة أميال سيرا على الأقدام.

ألقى البوّاب نظرة على الرسالة، ثم نادى أحد الممرّضين وطلب منه أن يقود الفتى إلى مكان أبيه.

سأل الممرّض: "أيّ أب؟".

قال الفتى الاسم وهو يرتجف خشية أن يسمع خبرا سيّئا.

لكنّ الممرّض لم يتذكر ذلك الاسم.

فسأل: "هل هو عامل عجوز جاء من الخارج؟".

أجاب الفتى: "أجل، إنه عامل. لكنّه ليس عجوزا، وقد جاء بالفعل من

الخارج".

سأل الممرّض: "متى دخل المستشفى؟".

ألقى الفتى نظرة على الرسالة وقال: "قبل خمسة أيام كما أعتقد".

وقف الممرّض يفكّر هنيهة، ثمّ قال كما لو أنه تذكّر فجأة: "آه! الصالة الكبيرة الرابعة، السرير الأخير".

سأل الفتى بقلق شديد: "هل مرضه شديد؟ كيف حاله الآن؟".

نظر إليه الممرّض من دون أن يجيبه، ثم قال له: "تعال معي".

صعدا فرعين من الدرج، وتوجّها نحو صدر الممرّ العريض حيث كان باب الصالة الكبيرة مفتوحا، وفيها صفّان من الأسِرَّة. "تعال". كرّر عليه الممرّض القول وهو يدخل. تشجّع الفتى وتبعه وهو يجول بنظراته المرعوبة يمنة ويسرة على وجوه المرضى الشاحبة المصفرّة. رأى أنّ البعض أغمضوا عيونهم ليبدوا كالأموات، بينما بدا الآخرون خائفين وهم يشخصون بعيونهم الكبيرة وأنظارهم الثابتة في الهواء. كان الكثيرون يتأوّهون مثل الأطفال، وكانت الصالة معتمة، وهواؤها مضمّخ برائحة الأدوية الثاقبة. وكانت هناك أختان من المبرّة تتنقّلان بزجاجات الأدوية.

ما إن بلغا آخر الصالة حتّى توقّف الممرّض على رأس السرير، وفتح الستارة وقال: "هذا أبوك".

انفجر الفتى في البكاء، فوقعت منه رزمة الملابس، ثمّ أسند رأسه على كتف المريض، وأمسك بيده ذراعه التي كانت ثابتة وممدّدة فوق غطاء السرير. لكنّ المريض لم يتحرّك.

نهض الفتى وأمعن النظر بأبيه فانفجر ثانية في البكاء. عندها، توجّه إليه المريض بنظرة مديدة نمّت عن أنّه عرفه. لكنّ شفتيه لم تتحرّكا. تاتا المسكين، كم تغيّر! ليس سهلا على ابنه أن يتعرّف عليه. فلقد ابيضّ شعره وطالت لحيته وانتفخ وجهه واحمرّ بلون دامغ، وتمدّد جلده ولمع، وتقلّصت عيناه، وتضخّمت شفتاه فتبدّلت كلّ هيئته، ولم يبق شيء مما كان عليه سوى جبهته وقوس حاجبيه. كان يتنفّس بصعوبة. قال له الفتى: "تاتا، تاتا حبيبي! هذا أنا،

ألم تعرفني؟ أنا تشيشيليو، حبيبك تشيشيليو، جئت من البلد، أرسلتني أمّي. انظر إليّ، أمعن النظر، ألم تعرفني؟ كلّمني، قل كلمة".

لكنّ المريض أغمض عينيه بعد أن أمعن النظر فيه.

- تاتا، تاتا، ماذا حلّ بك؟ أنا ابنك، حبيبك تشيشيليو.

لم يتحرك المريض أبدا، بل بقي يتنفّس ببالغ الصعوبة.

تناول الفتى كرسيّا وهو يبكي، وجلس وبقي ينتظر من دون أن يرفع نظره عن أبيه.

فكّر: لا بد أن يمرّ طبيب ليزوره، فيخبرني عن حاله. ثم غرق في أفكاره الحزينة وهو يتذكّر الكثير من الأمور عن أبيه الطيّب، وعن يوم السفر؛ عندما حيّاه تحيّة الوداع قرب السفينة، وعن الآمال التي وضعتها العائلة في تلك الرحلة، وأحزان أمّه عندما استلمت تلك الرسالة، ثم فكّر بالموت. رأى أباه ميّتا وأمه في ثياب الحداد والعائلة في البؤس. بقي لفترة على هذا الوضع، وعندما لمست يد خفيفة كتفه، انتفض؛ كانت الأخت الممرضة. فسألها في الحال: "ممّ يشكو أبي؟". قالت الأخت بلطف: "هل هو أبوك؟". "أجل، إنه أبي وقد جئت. ما به؟". أجابت الأخت: "تشجّع يا فتى، سيأتي الطبيب في الحال". ثم ابتعدت من دون أن تضيف شيئا آخر.

بعد نصف ساعة، سمع ضربة جرس، ورأى الطبيب يدخل من طرف الصالة المقابل، وكان يرافقه مساعده وتتبعه الأخت وممرّض. بدأت الزيارات الطبّية والتوقّف عند كل سرير. بدا الانتظار أبديّا بالنسبة للفتى، وكان عذابه يزداد كلّما تقدّم الطبيب خطوة. أخيرا، وصل إلى السرير المجاور. كان الطبيب كبيرا في السنّ، وطويلا، ومنحني القامة، وذا وجه جدّيّ. انتصب الفتى واقفا قبل أن يغادر الطبيب السرير المجاور، ثم بدأ يبكي عندما اقترب.

نظر إليه الطبيب.

فقالت الأخت: "إنه ابن المريض، وصل هذا الصباح من بلدته".

وضع الطبيب يده على كتفه، ثم انحنى على المريض، فحص نبضه، ولمس جبهته، ووجّه بعض الأسئلة للأخت، وعندما أجابته: "لا شيء جديد". صمت

لفترة ثم قال: "استمرّوا مثل السابق".

عندها، تشجّع الفتى وسأل بصوت باكٍ: "ممّ يشكو أبي؟".

فأجابه الطبيب وهو يربت على كتفه: "تشجّع يا بنيّ. إنّه مصاب بالتهاب جلديّ في وجهه. وضعه خطير، لكنْ ما زال هناك أمل. ساعده. فوجودك إلى جانبه مفيدٌ له".

- لكنّه لا يعرفني. عقّب الفتى بلهجة يائسة.

- سيعرفك... ربما غدا. نرجو خيرا، تشجّع.

ودّ الفتى أن يسأل أسئلة أخرى لكنّه لم يجرؤ على ذلك. كما أنّ الطبيب تجاوز سرير أبيه إلى سرير آخر. عندها بدأ حياته التمريضيّة التي لا يعرف عنها شيئا، فقام بتسوية أغطية السرير، وبلمس يده من حين لآخر، وطرد البرغش، كما كان ينحني فوقه كلمّا سمعه يتأوّه، وعندما كانت الأخت تأتيه بالماء كان يأخذ الكأس أو الملعقة من يدها ليقدمها له عوضا عنها. كان المريض ينظر إليه أحيانا من دون أن يبدو عليه أنّه قد عرفه. مع أنّ نظرته كانت تتركّز أكثر فأكثر عليه، وخاصّة عندما كان يقرّب المنديل من عينيه. وهكذا انقضى اليوم الأوّل. في الليل، نام الفتى على كرسيين في إحدى زوايا الصالة، وعندما أشرق الصباح استأنف عمله برأفة وحنان. في ذلك اليوم، بدا أنّ عيني المريض بدأتا تفصحان عن شيء من الإدراك والوعي. بل إنّ الحنان الذي تردّد في صوت الفتى كان يثير نوعا من التعبير عن الامتنان يلمع في الحدقتين، كما حرّك مرّة شفتيه وكأنّه يريد أن يقول شيئا ما. كان يسهو لفترات قصيرة، ثم يفيق ويفتح عينيه فيبدو أنّه يبحث بنظراته عن ممرّضه الصغير. حتى إن الطبيب الذي زاره مرّتين لاحظ ذلك التحسّن الطفيف. وفي المساء، قرّب الفتى الكأس من الشفتين المنتفختين فظنّ أنّ ظلّ ابتسامة قد بزغ بينهما. عندها، بدأ يرتاح ويأمل. ثم بدأ يكلّمه على أمل أن يتمكّن من فهمه ولو بعض الشيء، وكان يكلّمه أكثر فأكثر مستعملا كلمات عذبة وحارّة عن أمّه وعن أختيه الصغيرتين وعن العودة إلى البيت، ثمّ يحثّه على أن يتشجّع. كان يثابر على الكلام مع أنّه يشكّ في أغلب الأحيان بأنّ كلامه لا يُفهم؛ لأنّه كان يعتقد أن المريض مع أنه لا يفهم فإنه يصغي

بنـوع مـن الســرور إلى ترانيم صوتـه المفعمة بمزيج غريب من المحبّة والحزن. قضى على هذه الطريقة يومه الثاني والثالث والرابع، وذلك بين تحسّـن طفيف وتراجع مفاجئ، وكان الفتى مسـتغرقا كلّ الاسـتغراق في علاجه، حتى إنّه كان لا يأكل إلا لقيمات يلتقمها مرّتين في اليوم، وهي ليسـت إلا القليل من الخبز مـع القليـل مـن الجبـن تأتي بها الأخـت، وكان لا ينظر إلى ما يجري حوله مع مرضى في حالة النزع الأخير، والأخوات في سعيهنّ الدائم ثم جريهنّ المباغت خلال الليل، وبكاء الزوّار وفزعهم وهم يخرجون قانطين. كانت مناظر مؤسـية ومرعبـة مـن حيـاة المستشـفيات قد تثير ذهوله وفزعه في مناسـبة أخرى. كانت السـاعات والأيـام تنقضـي، وهـو دائمـا هناك إلـى جانب حبيبه تاتـا؛ يحنو عليه يقظـا، ويخفـق قلبـه كلّما تنهّد أو أجال النظر، ويتقلّب بلا راحة بين آمالٍ تنعش روحه ويأسٍ يجمّد قلبه.

في اليوم الخامس، ساءت فجأة حال المريض.

وعندمـا سـئل الطبيـب، هزّ رأسـه وكأنّه يقول إنها النهايـة. مال الفتى على الكرسيّ وهو يجهش في البكاء. ومع ذلك، كان هناك أمر يعزيّه. فرغم أنّ حال المريض كانت تصبح أكثر سوءا فإنّه كان يستعيد ببطء شيئا من ذاكرته. كان ينظر إلى الفتى بنظرات أشـدّ ثباتا تنمّ عن تعابير تزداد حلاوتها، كما امتنع عن أخذ الماء والأدوية إلاّ من يده، وغالبا ما كان يحرّك شـفتيه بتلك الحركة القسـريّة، كما لو أنّه يريد أن يلفظ كلمة ما، وكان يقوم بها أحيانا بطريقة واضحة؛ حتى إنّ ابنه كان يشـدّ بعنفٍ على ذراعه بعد أن يرفع أملٌ مباغت معنويّاته، فكان يقول له بنبرة سرور: "تشجّع، تشجّع تاتا، يا حبيبي، ستُشفى، وسنعود إلى البيت لعند أمّي، يكفيك أن تتحلّى بمزيد من الشجاعة!".

كانت الساعة الرابعة مساء، وكان الفتى قد استسلم لإحدى نوبات الحنان والأمل عندما سمع عبر باب الصالة القريب وقع خطى تبعه صوت قويّ بكلمتين فقط: "وداعا أيتها الأخت!". نهض على قدميه لدى سماعه الكلام وقد اختنقت الصرخـة فـي حنجرتـه. في اللحظة نفسـها، دخل رجلٌ الصالة وهو يحمل رزمة كبيرة في يده وتتبعه الأخت.

أصدر الفتى صرخة حادّة وتسمّر في مكانه.

التفت الرجل ونظر إليه لبرهة، وأطلق صرخة هو أيضا: "تشيشيليو!". ثمّ ارتمى عليه.

كاد الفتى أن يختنق وهو يسقط بين ذراعي أبيه. وأسرعت الأخوات نحوهما، وجرى الممرضون ووقفوا جامدين وقد ملأتهم الدهشة.

لم يتمكّن الفتى من إصدار أي صوت.

صاح الأب بعد أن حدّق بانتباه بالمريض: "يا حبيبي تشيشيليو". ثم قبّل الفتى وقبّله مرّات أخرى. "يا حبيبي تشيشيليو. كيف حال هذا المريض؟ لقد أخذوك إلى سرير رجل آخر، بينما بدأت أشعر باليأس من رؤيتك، خاصة بعد أن أخبرتني أمّك أنها أرسلتك. مسكين يا تشيشيليو! منذ متى وأنت هنا؟ كيف حدثت هذه الخديعة؟ لقد تدبّرت أمري بالقليل، فهل تعرف؟ إنيَ الآن بصحّة جيّدة. وأمّك؟ وكونشيتّا؟ ويونيللينو، ما هي أحوالهن؟ سأخرج من المستشفى. هيا بنا. يا الله، من كان بوسعه أن يحزر هذا!؟".

تردّد الفتى في قول أيّ كلمة فيها أخبارٌ عن عائلته، بل تمتم قائلا: "كم أنا سعيد! كم أنا سعيد! كم قضيت من أيام تعيسة!". ولم يشبع من تقبيل أبيه. لكنّه لم يتحرّك.

قال له أبوه: "إذا، هيّا بنا. ما زال بوسعنا أن نصل إلى البيت هذا المساء. هيّا بنا". ثمّ سحبه نحوه.

التفت الفتى لينظر إلى مريضه.

فسأله أبوه بدهشة: "لكن، هل ستأتي أم لا؟".

ألقى الفتى نظرة أخرى على المريض الذي تمكّن في تلك اللحظة من فتح عينيه والتحديق فيه.

عندها، تفجّر قلبه عن فيض من الكلام: "لا، تاتا، انتظر... هاك، إني لا أستطيع. هذا العجوز هنا. أنا هنا منذ خمسة أيام. إنه ينظر إليّ باستمرار. كنت أظنّه أنت. لقد أحببته. إنّه ينظر إليّ. أنا الذي أقدّم له الماء، وهو يريدني أن أبقى إلى جانبه. لقد تدهورت صحّته الآن، تحلّى بالصبر لأني لا أستطيع، لا

أدري، هذا يؤلمني. سأعود غدا إلى البيت، اتركني هنا لفترة أخرى، فليس من المستحسن أن أتركه، شاهد كيف ينظر إليّ، إني لا أعرف من هو، لكنّه يريدني، سيموت وحيدا، اتركني هنا يا حبيبي تاتا!".

فصاح المساعد: "رائع أيها الصغير!".

بقي الأب في حيرة من أمره وهو يشاهد الفتى الواقف والمريض في سريره. ثم سأل: "ومن هو؟".

أجاب المساعد: "فلاّح مثلك أتى من الخارج، دخل المستشفى في اليوم نفسه الذي دخلت فيه أنت. جاءوا به فاقدَ الوعي، ولم يتمكّن من قول أيّ شيء. ربّما كانت له عائلة بعيدة، وأبناء. يظنّ أنّه منكم. لكم".

ولم ينقطع المريض عن النظر إلى الفتى.

فقال الأب لتشيشيليو: "ابقَ!".

تمتم المساعد: "لم يبقَ إلا القليل وسيستعيد حريته".

كرر الأب: "ابقَ، قلبك كبير. سأذهب أنا حالا إلى البيت كي أخفّف من قلق أمّك. هاك سكودا[1] تنفقه على حاجاتك. وداعا يا بنيّ الطيّب. إلى اللقاء".

عانقه وهو يحدّق فيه، ثمّ قبّل جبهته وانطلق.

عاد الفتى ليلزم السرير، فبدا الارتياح على وجه المريض. استأنف تشيشيليو عمله ممرّضا. انقطع عن البكاء، لكنّه بقي على ما كان عليه من التزام وصبر، واستأنف تقديم الماء له وتسوية السرير ومداعبة يده ومحادثته بلطف وتشجيعه. رعاه طيلة النهار، بل وطيلة الليل، ثم لازمه في اليوم التالي. لكنّ حال المريض كانت تزداد سوءا؛ فتلوّن وجهه بلون قرمزيّ، وتضخّم نفسه، وزاد اضطرابه، وبدأت صرخات متقطعة تصدر عنه، وصار الورم مرعبا. وعندما زاره الطبيب في المساء قال إنّه لن يتعدى الليل. ضاعف تشيشيليو عنايته به، فلم يتركه يغيب لحظة عن ناظريه. كان المريض ينظر إليه، ثم ينظر وينظر ويحرّك بصعوبة بالغة وشيئا فشيئا شفتيه كما لو أنه يقول كلمة ما. كما كان تعبير مفعم باللطف يعبر مرّة بعد أخرى عينيه اللتين ما فتئتا تصغران وتتبرقعان بمثل الغمام. سهر الفتى

(1) بقي السكود عملة مستعملة حتى القرن التاسع عشر، وكان يعادل خمس ليرات فضّية.

تلك الليلة حتى لمع أوّل خيوط النهار خلف الستائر وظهرت الأخت. اقتربت هذه من السرير، وألقت نظرة على المريض، ثمّ ذهبت مسرعة، لتعود بعد دقائق بصحبة مساعد الطبيب وممرّض يحمل مصباحا.

قال الطبيب: "إنّه في النزع الأخير".

أمسك الفتى بيد المريض، ففتح هذا الأخير عينيه وحدّق فيه ثم أغمضهما.

بدا للفتى حينئذ أنّ المريض يضغط على يده.

فصاح: "لقد ضغط على يدي".

بقي الطبيب هنيهة منحنيا فوق المريض ثمّ نهض.

صاح الفتى: "لقد مات".

قال له الطبيب: "اذهب يا بنيّ. لقد أتممت عملك مشكورا. اذهب وليصحبك حظّ سعيد، فأنت تستحقّه. رعاك الله. وداعا".

بعد أن ابتعدت الأخت لدقيقة، عادت ومعها باقة بنفسج أخذتها من كأس كانت على النافذة، وقدّمتها للفتى قائلة: "ليس عندي شيء آخر أعطيك إياه، خذها كذكرى من المستشفى".

أجاب الفتى: "شكرا". وأمسك الباقة بيده، بينما بدأ يمسح دموعه باليد الأخرى. "لكنّ أمامي طريقا طويلة أمشيها سيرا على الأقدام، وسيذبل البنفسج أثناءها". لذلك فكّ الباقة، ونثر زهور البنفسج على السرير، وهو يقول: "أتركها في ذكرى ميتي هذا المسكين. شكرا لك أيتها الأخت، شكرا أيها السيد الطبيب". ثم التفت نحو الميت وقال: "وداعا...". وبينما كان يبحث عن اسم يسمّيه به، انبثق من قلبه ونبست شفتاه بالاسم الذي ناداه به لمدة خمسة أيام: "وداعا يا تاتا المسكين!".

قال ذلك، ثم تأبّط رزمة ثيابه وذهب بخطى بطيئة وقد حطّمه التعب، فيما كان الفجر يشرق.

الورشة

السبت 18

جاء بريكوسّي مساء البارحة ليذكّرني بالذهاب لرؤية ورشته في آخر الشارع. ذهبت إليها هذا الصباح عندما خرجت بصحبة أبي. وعندما اقتربنا من الورشة، رأينا غاروفّي يخرج منها مسرعا وهو يحمل طردا في يده، بينما كان معطفه العريض يتطاير وهو يغطّي مشترياته. أوه! لقد عرفت الآن إلى أين يذهب ذاك المقايض المحتال غاروفّي ليختلس قطع الحديد التي يبيعها مقابل الصحف القديمة! عندما أطللنا على المدخل، رأينا بريكوسّي جالسا على كومة آجرّ وهو يراجع دروسه، بينما وضع كتابه على رجليه. نهض في الحال وأدخلنا: المحل عبارة عن غرفة كبيرة كلّها غبار وفحم، وقد وضعت على الجدران مجموعات من المطارق والكمّاشات والقضبان وحديد من كل الأنواع، بينما كانت النار تشتعل في فرن في أحد أركان المحلّ ينفخ فيه منفاخ، وقد أدخل أحد العمّال قضيب حديد في النار. قال الحدّاد عندما رآنا وهو يرفع قبّعته تحيّة لنا: "آه! هذا هو، هذا هو الفتى الذي أهداك قطار السكّة الحديديّة! أتى ليشاهد العمل، أليس كذلك؟ سترى ذلك حالا". قالها، وكان هذه المرة يبتسم، وليس بوجه عبوس ونظرات شرّيرة كما كان يحدث سابقا. أعطاه العامل قضيب حديد طرفه أحمر ملتهب فوضعه الحدّاد على السندان. كان يحني القضبان ليصنع منها سياجا حديديّا للشرفات. رفع مطرقة كبيرة وبدأ بالضرب، وهو يدفع الطرف الأحمر، بين رأس السندان ومنتصفه، إلى هنا ساعة وإلى هناك ساعة أخرى. ثمّ يبدأ في ليّها بطرائق مختلفة. كان من المدهش رؤية الحديد وهو ينحني تحت الضربات الصائبة السريعة، ليتّخذ في النهاية أشكالا جميلة تشبه ورق الورد الملفوف أو الأنبوب أو حسبما يشكّله بيده. في هذه الأثناء، كان ابنه يراقبنا بنوع من

الافتخار وكأنّما ليقول: أترياان كيف يعمل أبي!؟ ثمّ سـألني الحدّاد: "هل رأيت هـذه الصنعـة أيها السـيّد الصغيـر؟". عندما أنهى، عرض عليّ القضيب الذي بدا مثل العصا ثمّ وضعه جانبا وأدخل واحدا آخر في النار. قال له أبي: "إنّه عملٌ متقـن بالفعـل". وأضـاف: "عدنا إلى العمل إذا؟ وعادت الرغبة بالعمل". فأجاب العامل وهو يجفّف عرقه، وقد احمرّ وجهه بعض الشيء: "عادت بالطبع! وهل تعـرف مـن الـذي جعلها تعود؟". تصنّع أبي أنه لم يفهم المقصود، فقال الحدّاد وهو يشـير بإصبعه إلى ابنه: "ذاك الابن الصالح هناك، كان يدرس ليشـرِّف أباه، لكـن أبـاه كان يعربـد ويعاملـه معاملة الكلاب. عندما رأيت تلك الميدالية... آه! يـا صغيـري الأصغـر مـن قطعـة جبن، تعال إلـى جنبي لأتأمـلّ وجهك!". جرى الفتـى فـي الحـال، فأخذه الحدّاد ووضعه على السـندان وهو يمسـكه من تحت إبطيـه ويقـول لـه: "نظِّـف قليلا وجه أبيك هذا الوحش". فانهال بريكوسّـي على وجه أبيه الأسـود، وصار يغمره بالقبل حتى اسـودّ هو أيضا. فقال الحدّاد: "هذا رائع بالفعل". ثمّ وضعه على الأرض من جديد". فهتف أبي مسرورا: "نعم، إنّه رائـع يـا بريكوسّـي". ودّع بعدهـا الحـدّاد وابنه، وقادني أمامـه إلى الخارج. قال لـي بريكوسّـي وأنـا ذاهـب: "العفـو!". ثمّ وضـع في جيبي حزمة من المسـامير، فدعوتـه ليشـاهد احتفـالات الكرنفـال من بيتي. قال لي أبـي ونحن في الطريق: "لقد أهديته قطار السـكة الحديديّة. لكن، حتّى لو كان ذاك القطار مصنوعا من الذهب ومحمّلا باللؤلؤ فإنّه لن يكون إلاّ مجرّد هديّة صغيرة قُدِّمت لذلك الابن الكريم الصالح الذي تمكّن من تقويم قلب أبيه".

المهرّج الصغير

الاثنين 20

كانت المدينة تغلي كلّها بسبب الكرنفال الذي اقترب من نهايته. انتصبت في كلّ ساحة خيام المهرّجين والمشعوذين وساحات الملاهي، بل كان هناك تحت نافذة بيتنا خيمة سيرك تقدّم العروض، فيها فرقةٌ صغيرة من مدينة البندقيّة تملك خمسة أحصنة. انتصب السيرك في قلب الساحة، وعلى طرفها ثلاث عربات كبيرة ينام فيها المهرّجون ويغيّرون ثيابهم فيها، وهي عبارة عن ثلاثة بيوت متحرّكة على عجلات، لها نوافذ، وفيها مدافئ تصدر الدخان. وكانوا ينشرون قماطات أطفالهم بين نافذة وأخرى. كانت هناك امرأة مرضع تحضّر الطعام وترقص على الحبل! ناس مساكين! يسمّى المهرّجون بهذا الاسم على سبيل الإهانة، مع أنّهم يحصّلون دخلهم بشرف وأمانة ويسلّون الجميع. أما عن تعبهم فحدّث ولا حرج! فهم يجرون طيلة النهار بين السيرك والعربات، ولا يرتدون إلاّ القمصان في البرد القارس، ويتناولون لقمتين على عجل، وقوفا، بين العرض والآخر. ويحدث أحيانا أن يتعرّض السيرك المزدحم لريح تهبّ فتعصف بالخيمة وتطفئ المصابيح، ووداعا للعرض! في هذه الحال، يضطرون لإرجاع النقود وللعمل طيلة الليل على إصلاح الخيمة. هناك فتيان يعملان عرف أبي أحدهما بينما كان يعبر الساحة؛ إنّه ابن صاحب السيرك الذي رأيناه في العام الفائت يلاعب الأحصنة في سيرك ساحة فيتّوريو ايمانويلى. لقد كبر، لا بد أنّه أصبح في الثامنة من عمره، وهو فتى ذو وجه طفوليّ جميل وأسمر، تتدلى خصلات شعره الأجعد السوداء من تحت قبّته المخروطية، ويرتدي ملابس المهرّجين فيبدو وكأنّه قد دُكَّ داخل كيسٍ ذي كمين. رداؤه أبيض مطرّز بسواد، وينتعل حذاء من القماش. إنّه شيطانٌ صغير، يعجب الجميع ويفعل كلّ

شيء. كنّا نراه في الصباح الباكر ملتفّا بعباءة، بينما يحمل الحليب إلى بيته الخشبي، ثمّ يذهب ليأخذ الأحصنة إلى إصطبل شارع بيرتولا. يحمل طفلا صغيرا بين ذراعيه، ويقوم بنقل كلّ أدوات السيرك من قضبان ومساند وحبال، وينظّف العربات ويوقد النار. أما في أوقات الراحة فيبقى متعلّقا بأمّه. كان أبي يراقبه دائما من النافذة، ولا يتكلّم إلا عنه وعن أهله الطيّبين. ذهبنا ذات مساء إلى السيرك، وكان الطقس باردا فكاد يكون فارغا، لكنّ المهرّج الصغير كان يتحرّك بسرعة ليُضحك ذلك الجمهور القليل. كان يقفز قفزات قاتلة، ويتعلّق بأذناب الأحصنة، ويسير وقدماه في الهواء، ويقوم بالعرض وحيدا، وهو يغنّي، وعلى وجهه الأسمر الجميل ابتسامة دائمة. أمّا أبوه فكان يرتدي قميصا أحمر وسروالا أبيض، وينتعل جزمة عالية، وفي يده سوط. كان يراقبه وعلى وجهه مسحة حزن. وقد أشفق عليه أبي، حتّى إنّه تكلّم عنه مع الرسّام ديليس الذي جاء لزيارتنا. أولئك الناس المساكين يقتلون أنفسهم ليعملوا، ولا يربحون إلاّ القليل. إنّه معجب بذلك الفتى أيّما إعجاب! كيف يمكنه أن يساعدهم؟ خطرت فكرة في رأس الرسّام. فقال له: "اكتب مقالة وافية عنهم في صحيفة غاتزيتّا. إنّك تحسن الكتابة، اروِ ما يقوم به المهرّج الصغير وأنا سأرسم صورته. جميع الناس يقرأون صحيفة غاتزيتّا، وهكذا فإنّ السيرك سيحتشد لأوّل مرة بالناس". وهكذا فعلا. كتب أبي مقالة جميلة مليئة بالدعابات، تتحدّث عن كلّ ما نراه من النافذة، وتشجّع على التعرّف إلى ذلك الفنّان الصغير ومداعبته، كما رسم الرسّام صورة له لطيفة وشبيهة به. نشرت المقالة مساء السبت، فانهمر الجمهور صباح الأحد على السيرك؛ حيث أُعلن أنّ العرض سيكون لصالح ما سمّته المقالة بالمهرّج الصغير. قادني أبي إلى مقاعد الصفوف الأولى، وقد علّقوا قرب باب الخيمة صحيفة غاتزيتّا. كان السيرك مزدحما، وكان أكثر الحضور يحملون الصحيفة في أيديهم، بل ويعرضونها على المهرّج الصغير الذي كان يضحك لهم ويقفز سعيدا من شخصٍ لآخر. صاحب السيرك كان سعيدا أيضا. بالطبع! لم تقلّده أيّ صحيفة مثل هذه الشرف، كما أنّ الصندوق امتلأ بالنقود. جلس أبي إلى جانبي. وجدنا بين الحضور أشخاصا نعرفهم. رأينا إلى جانب مدخل الأحصنة أستاذ الرياضة

الـذي كان مـع غاريبالـدي، وكان واقفا على قدميه. كما جلس قربنا على مقاعد الصفّ الثاني المعماريّ الصغير بوجهه المستدير إلى جانب أبيه العملاق... وما إن رآني حتّى قلّد وجه الأرنب. في صفٍّ أبعد، رأيت غاروفّي وهو يحصي عدد المتفرجيـن، ويحسـب علـى أصابـع يديه مـا يمكن أن تربحـه الفرقة. كان هناك علـى أحـد مقاعـد الصـفّ الأوّل أيضا وعلـى مقربة منّا روبيتّي المسـكين الذي أنقذ الطفل من تحت الحافلة، وقد أسـند عكّازيه بين قدميه واسـتند إلى جنب أبيه الضابط في المدفعيّة، وقد وضع هذا يده على كتف ابنه. بدأ العرض، فقدّم المهرّج الصغير ما أدهش الجميع على سرج الحصان أو متعلّقا بذنبه. الكثيرون صفّقـوا لـه أو شـدّوا خصلات شـعره. ثمّ قـام آخرون بتقديـم مختلف التمارين والألعاب على الحبل المشدود وعلى الأحصنة بملابسهم الضيّقة الفضيّة البرّاقة. غير أنّه بدا أنّ الناس يتذمّرون عندما لا يكون الفتى موجودا. فجأة، رأيت أستاذ الرياضة الذي كان واقفا أمام مدخل الأحصنة يهمس شيئا ما في أذن صاحب السيرك، فحوّل هذا نظره نحو المتفرّجين كما لو أنه يبحث عن شخص معيّن. ومـا لبـث أن توقّـف نظـره عندنـا. انتبه أبي للأمر، وأدرك أنّ الأسـتاذ قد قال له إنّـه كاتـب المقالـة، فهرب في الحال كي لا يُشـكر علـى صنيعه، وقال لي: "ابقَ هنـا يـا أنريكـو، سـأنتظرك في الخارج". تبادل المهـرّج الصغير بضع كلمات مع أبيـه، ثـمّ قـام ببعـض التمارين منتصبا علـى حصانٍ يعدو، وتنكّـر بثيابِ البحّارة والجنود ولاعبي الخفّة، لكنّه كان ينظر إليّ كلّما مرّ أمامي. وعندما ترجّل، بدأ يدور حول السيرك وهو يحمل قبّعة المهرّج بين يديه، فكان كثيرون يلقون فيها النقـود وملبّـس الحلـوى. هيّأت بدوري بضعة دراهـم، لكنّه عندما وصل أمامي لـم يقـدّم لـي القبعـة، بل سـحبها إلى الخلف ونظر إليّ ثمّ ذهب قُدما. شـعرت بالخـزي. لمـاذا عاملنـي بهذه الفظاظة؟ انتهى العرض، فشـكر صاحب السـيرك الجمهـور. عندئـذ نهـض الجميـع ليحتشـدوا أمام المخرج. اختلطـت أنا بينهم، وكنـت فـي طريقـي للخروج عندما شـعرت بأحدهم يلمس يـدي. التفتّ فرأيت المهرّج الصغير بثوبه البنيّ الجميل وخصلات شـعره السـوداء يبتسـم لي: كانت يداه مليئتين بملبّس الحلوى. عندها، أدركت الموقف، وسمعته يقول لي بلهجة

أهـل البندقيـة: "هـل تقبـل قطـع الحلوى هذه مـن المهرّج؟". فأومـأت بالقبول، وأخـذت ثـلاث أو أربـع قطع، فأضـاف: "إذا، خذ أكثر". فأجبت: "أعطني اثنتين أخريين منها". ثمّ قربت وجهي منه، فما كان منه إلا أن مسح وجهه المدهون، ووضع ذراعه حول عنقي، وطبع قبلتين على وجنتيّ وهو يقول: "خذ، انقل إلى أبيك إحداهما".

اليوم الأخير من الكرنفال

الثلاثاء 21

أيّ منظر محزن شاهدناه اليوم خلال عروض الكرنفال! كانت النهاية سعيدة، لكنّ مصيبة كبيرة كانت ستحدث. ففي ساحة سان ماركو المزيّنة بأكاليل صفراء وحمراء وبيضاء تجمهرت حشود كثيرة، وكانت تتوالى أقنعة من كلّ الألوان، وتمرّ عربات مذهّبة نصبت عليها الأعلام، ووضعت كذلك أشكالٌ مختلفة لمجسّمات أروقة المسارح، ولزوارق عليها مهرّجون مرقّشون ومحاربون وطبّاخون وبحّارة وراعيات غنم. ضربت الفوضى أطنابها، حيث لم يعد يعرف المرء أين ينظر، خاصّة وأنّ ضجيج الأبواق والقرون والصنوج التركيّة يصمّ الآذان. كما كان لابسو الأقنعة على العربات يحتسون الشراب ويغنّون ويستنهضون الناس السائرين في الشوارع والناس الواقفين قرب النوافذ فيجيبون كلّهم بحناجرهم المبحوحة، بل ويلقون بحبّات البرتقال وملبّس الحلوى. وعلى مدّ النظر، كانت تُرى فوق العربات والحشود راياتٌ تخفق وخوذٌ تلمع بريشها البرّاق، كما كانت رؤوسٌ من الكرتون تتمايل مع تمايل ألبسة الرأس الضخمة والأبواق العملاقة والأسلحة الغريبة والطبلات ومجسّمات الثعابين والطواقي الحمراء والقناني. بدا الجميع كمجانين حقيقيين. عندما دخلت عربتنا الساحة، تقدّمتها عربة أخرى رائعة تجرّها أربعة أحصنة مسرّجة بسروج مذهّبة ومزيّنة بكاملها بزهور اصطناعيّة. كان في العربة أربعة عشر أو خمسة عشر رجلا مقنّعين في هيئة أشراف القصور الفرنسيّة، يرتدون ثيابا حريريّة برّاقة، وتعلو رؤوسهم باروكات شعر مستعار أبيض، ويحملون تحت أذرعهم السيوف وقبّعات عليها ريش، كما زيّنوا صدورهم بعقد من الشرائط والأربطة: كانوا رائعين. كانوا يغنّون مع بعضهم أغاني فرنسيّة، وهم يرمون الحلوى إلى الناس، بينما كان الناس يصفّقون ويصرخون. رأينا على حين غرّة رجلا على يسارنا يرفع فوق الحشود طفلة لا يزيد عمرها عن خمس أو ست سنين. كانت المسكينة تبكي يائسة وتلوّح

بذراعيها كما لو أنّها في نوبة تشنّج. شقّ الرجل طريقه نحو عربة الأشراف، وعندما انحنى أحدهم نحوه، قال له الرجل بصوت مرتفع: "خذ هذه الطفلة، لقد فقدت أمّها بين الجماهير، خذها وارفعها على ذراعيك، لا بد أنّ أمّها قريبة من هنا وهكذا فإنّها ستراها، لا توجد طريقة أخرى". أخذ الرجل الطفلة بين يديه، وتوقّف الجميع عن الغناء، بينما واصلت الطفلة بكاءها وصراخها وتشنّجاتها. خلع الرجل قناعه، وسارت العربة ببطء. وقد أخبرونا في ما بعد أنّ امرأة مسكينة شقّت في تلك الأثناء الزحام في الطرف المقابل من الساحة، وقد بدت شبه مجنونة، وهي تدفع الجميع بكوعيها وتصرخ: "ماريّا! ماريّا! لقد فقدت ابنتي! سرقوها! خنقوا طفلتي!". منذ ربع ساعة وهي تهذي يائسة بتلك الطريقة، وتذهب إلى هنا وهناك بين الزحام، ولا أحد يفسح أمامها الطريق. بينما كان الرجل على العربة يمسك بالطفلة مشدودة إلى أشرطة صدره وهو يدور بناظريه وسط الساحة، ويحاول أن يهدّئ من روع الطفلة التي كانت تغطّي وجهها بيديها وهي لا تعرف أين هي، وتجهش في بكاء يمزّق القلب. كان الرجل منفعلا، ويظهر أنّ صراخ الطفلة قد أثّر في نفسه، وكان الجميع يقدّمون للطفلة البرتقال والحلوى لكنّها كانت ترفض كلّ شيء وهي في أشدّ حالات الخوف والرجفة. كان الرجل يصرخ في الناس: "ابحثوا عن أمّها! ابحثوا عن أمّها!". فكان الجميع يتلفّتون يمنة ويسرة، ولا أحد يجد الأمّ. أخيرا، وعلى مقربة من مفرق شارع روما، شوهدت امرأة تنطلق نحو العربة... آه، لن أنساها أبدا! لم تكن لها هيئة مخلوق بشريّ بشعرها المحلول ووجهها النكد وثيابها الممزّقة. اندفعت إلى الأمام وهي تصرخ صرخة لا يعرف إن كانت صرخة فرح أو حزن أو غضب، ثم مدّت يديها مثلما تُمدّ المخالب لتمسك بابنتها. توقّفت العربة، فقال لها الرجل وهو يعطيها ابنتها بعد أن قبّلها: "ها هي!". ثم وضعها بين ذراعي أمّها التي ضمّتها إلى صدرها بكلّ سرعة... لكنّ يدا من يديها الصغيرتين بقيت هنيهة بين يدي الرجل، فخلع هذا من يمينه خاتما ذهبيّا عليه ألماسة كبيرة، ووضعه بحركة سريعة في إصبع من أصابع الصغيرة وهو يقول لها: "خذي، هذا لنقدك عندما تتزوجين". انبهرت الأمّ، وانفجرت الحشود في التصفيق، فلبس الرجل قناعه من جديد، واستأنف رفاقه الغناء، وانطلقت العربة ببطء وسط عاصفة من تصفيق الأيدي.

الفتية العميان

الخميس 23

الأستاذ مريض جدّا، فأرسلوا أستاذ الصفّ الرابع بدلا عنه. وكان هذا أستاذا في معهد المكفوفين، وهو أكبر الجميع سنّا، الشيب شديدٌ في شعره، حتى إن الناظر إليه يظن أنّ على رأسه باروكة شعر مستعار مصنوع من القطن. وهو يتكلّم بطريقة تجعل المرء يحسب أنّه يغنّي أغنية حزينة، لكنّه يجيد الكلام ويعرف الكثير. عندما جاء إلى المدرسة، رأى أنّ عين أحد الصبية معصوبة، فاقترب من مقعده، وسأله عن السبب، ثمّ قال له: "انتبه إلى عينيك يا فتى". عندها، سأله ديروسّي: "هل كنت حقّا أيها السيد الأستاذ معلّم عميان؟". فأجاب: "أجل، لعدّة سنين". فأردف ديروسّي قائلا بهمس: "حدّثنا عنهم".

فذهب الأستاذ ليجلس إلى طاولته.

وصاح كوريتّي بصوت مرتفع: "معهد العميان في شارع نيتزا".

قال الأستاذ: "إنكم تقولون كلمة عميان، مثلما تقولون مرضى وفقراء وما شابه ذلك. لكن، هل تفهمون حقّا معنى هذه الكلمة؟ فكّروا بها قليلا. كلمة عميان تعني عدم رؤية أيّ شيء على الدوام! وعدم التفريق بين الليل والنهار، وعدم رؤية السماء ولا الشمس ولا الوالدين، ولا أيّ شيء ممّا هو حولنا أو ممّا نلمسه. أن نغرق في ظلامٍ دائم هو كأن نُدفن في باطن الأرض! جرّبوا أن تغمضوا أعينكم لفترة وجيزة، لكن فكّروا أنّكم ستبقون على هذا الوضع إلى الأبد. لا بدّ أنكم ستشعرون بالأرق والفزع، وستعرفون أنّكم لن تقاوموا، بل ستصرخون، وسيمسّكم الجنون أو ستموتون... ومع هذا، فعندما تزورون لأول مرة معهد مكفوفين خلال الاستراحة وتسمعونهم وهم يعزفون على الكمان وينفخون في الناي في كل الجهات، ويتسامرون بأصوات مرتفعة ويتضاحكون،

ثم يصعدون ويهبطون على الدرج بخطى رشيقة، ويتجوّلون في الممرات والمهاجع بكلّ سهولة، فإن أحدا لن يقول إنّ هؤلاء هم أولئك التعساء أنفسهم. يجب أن نحسن مراقبتهم. هناك بينهم فتية في السادسة أو السابعة عشرة من العمر أقوياء ومرحون، ويتحمّلون عمى عيونهم بنوع من اللامبالاة، بل وبشيء من الجرأة. لكنّ تعابير الاستياء والفخر التي تعلو وجوههم تنبئ عن مدى ما قاسوه من آلام قبل أن يستسلموا لهذه المصيبة. هناك آخرون وجوههم ممتقعة لكنّها لطيفة، نرى فيها حالا معالم الاستسلام، ومع ذلك فهي حزينة، وتوحي بأنّهم يبكون في السرّ أحيانا. آه، يا أبنائي. فكّروا كيف أنّ بعضهم فقد بصره في أيام قليلة، وآخرين فقدوا أبصارهم بعد سنين من التضحية أو بعد عمليّات جراحيّة فظيعة، أو أنّهم ولدوا على هذا الوضع؛ ولدوا في ليلة ليس لها فجر بالنسبة لهم، ودخلوا هذا العالم كما يدخل المرء قبرا واسعا ضخما، وهم لا يعرفون كيف هي صورة وجه الإنسان! تخيّلوا كم عانوا وكم سيعانون عندما يفكّرون باضطراب بالفرق الكبير بينهم وبين المبصرين الذين يروننا، ويتساءلون في أنفسهم: "لماذا هذا الفرق ونحن لم نرتكب ذنبا؟". عندما أتذكر ذلك الصفّ، أنا الذي أمضيت سنين عديدة بينهم، عندما أتذكّر كلّ تلك العيون المختومة المغلقة إلى الأبد، كلّ تلك المقل التي لا نظر فيها ولا حياة، أتذكّرها ثمّ أنظر إليكم... فأتخيّل أنّه لا يمكن لكم إلاّ أن تكونوا سعداء. فكّروا: هناك حوالى ستّة وعشرون ألف مكفوف في إيطاليا! ستّة وعشرون ألف شخص لا يرون النور، هل تفهمون معنى هذا؟ إنّه جيشٌ يستغرق مروره أمام نوافذنا أكثر من أربع ساعات!".

صمت الأستاذ، ولم يُسمَع نفس في كل الصفّ. ثمّ سأل ديروسّي إذا كان صحيحا ما يُقال، وهو أنّ حاسّة اللمس عند المكفوفين أقوى ممّا هي لدينا.

فقال الأستاذ: "هذا صحيح. بل إنّ كلّ حواسّهم أقوى؛ لأنّها تعمل لتعوّض عن حاسّة البصر التي يفتقدونها، وهي تتأهّل عندهم بصورة أفضل مما هو الأمر عند البصير. عندما يستيقظون في الصباح، يسأل أحدهم الآخر في المهجع: هل هناك شمس؟ لذلك، إن أسرعهم في ارتداء ملابسه يجري إلى الرواق ويحرّك

يديه في الهواء ليستشعر ما إذا كان هناك دفء شمس، ثم يجري ثانية ليبشّر بالخبر: توجد شمس! إنّهم يكوّنون فكرة عن قامة الشخص من صوته. وإذا كنّا نحن نحكم على نفسيّة الشخص من خلال عيوننا، فإنّهم يستعملون صوته لذلك. إنّهم يتذكّرون لسنين عديدة النغمات واللكنات. ويعرفون ما إذا كان في الغرفة أشخاص عديدون، حتّى إذا تكلّم واحد منهم فقط وبقي الآخرون جامدين بلا حراك. وهم يعرفون باللمس مدى نظافة الملعقة. الطفلات منهم يميّزن بين الصوف المصبوغ والصوف ذي اللون الطبيعي. إنهم يمشون مثاني في الشارع، ويعرفون كلّ الدكاكين من رائحتها؛ حتى لو كنّا نحن لا نشمّ في بعضها أيّ رائحة وهم يسحبون حبل اللولب ويذهبون مباشرة من دون أدنى خطأ ليستعيدوه لأنّهم يعرفون مكانه من صوت أزيزه. وهم يدوّرون الطارات، ويلعبون البولينغ، ويقفزون على الحبال، ويبنون مجسّمات البيوت بالحصى، ويقطفون البنفسج كما لو أنهم يرون، ويصنعون الحصر والسلال بسرعة من القشّ بمختلف الألوان. كلّ ذلك بفضل حاسّة اللمس المتطوّرة لديهم. اللمس هو بصرهم الذي يرون به. ومن أعظم مسرّاتهم أن يلمسوا، وأن يشدّوا، وأن يحزروا شكل الأشياء من ملمسها. من المثير مشاهدتهم عندما يأخذونهم إلى المتحف الصناعي، حيث يتركونهم يلمسون ما يشاءون لمسه، فتراهم كأنما يتراقصون وهم يرتمون على الأجسام الهندسية ومجسّمات البيوت والأدوات، أو وهم يتلمّسون ويجسّون ويفركون ويقلّبون بين أيديهم كل شيء ليروا كيف صُنع. وهم الذين يقولون "ليروا"!

قاطع غاروفّي الأستاذ ليسأله عما إذا كان الفتية المكفوفون ينفّذون العمليات الحسابيّة بشكل أفضل من الآخرين.

فأجاب الأستاذ: "هذا صحيح. إنّهم يتعلّمون الحساب والقراءة. ولديهم كتب وضعت خصّيصا من أجلهم، فيها حروف بارزة يمرّون عليها بأصابعهم، فيتعرّفون إلى الحروف، ويلفظون الكلمات، ويقرأون بسلاسة. ويجب أن ترى كيف تحمرّ وجوه أولئك المساكين عندما يرتكبون خطأ ما. وهم يكتبون أيضا؛ لكن بدون حبر. يكتبون على ورق سميك وقاس بواسطة مخرز معدني يقوم

بتشكيل ثقوب متلاحمة وفقا لأبجديّة خاصّة. تبرز هذه الثقوب خلف الورقة فيتمكّنون من قراءة ما كتبوه، أو ما كتبه الآخرون بلمس النتوءات. بهذه الطريقة يؤلّفون مواضيع الإنشاء ويتبادلون الرسائل في ما بينهم. يكتبون بالطريقة نفسها الأرقام، ويجرون الحسابات. كما أنّهم يجرون الحسابات في أذهانهم بسهولة خارقة، لأنّ أذهانهم لا تتشتّت برؤية الأشياء مثلما تتشتّت أذهاننا. وعليك أن ترى كيف يتولّهون بسماع قراءة الآخرين، وكم ينتبهون لها ويتذكّرون كل شيء، وكيف يتناقشون في ما بينهم - حتى لو كانوا صغارا - في أمور التاريخ واللغة، وكلّ أربعة أو خمسة منهم جالسون على مقعد واحد، لا يلتفت أحدهم إلى الآخر، ويتحادث الأول مع الثالث، والثاني مع الرابع، معا وبصوت مرتفع من غير أن تضيع على أحدهم كلمة واحدة، وذلك لأنّ أذانهم حادّة السمع وعالية الجاهزيّة! وأؤكد لكم أنّهم يعطون الفحوص أهمية أكثر مما تعطونها إيّاها، أنتم كما أنّهم يتعلّقون أكثر منكم بأساتذتهم. وهم يتعرّفون إلى الأستاذ من خلال وقع خطواته ورائحته، ويعرفون ما إذا كان متعكّر المزاج أو حسن المزاج، وما إذا كان بصحّة جيدّة أو غير جيّدة؛ كلّ ذلك لدى سماعهم كلمة واحدة يقولها. يطلبون من الأستاذ أن يلمسهم عندما يمدحهم أو يشجّعهم، فيجسّون يديه وذراعيه تعبيرا عن امتنانهم. إنهم يحبّون بعضهم بعضا، ويحسنون صحبة بعضهم بعضا. تراهم يتجمّعون وقت الراحة في الجماعات نفسها. ففي شعبة الفتيات مثلا، يشكّلن مجموعات كثيرة بحسب الأداة الموسيقيّة التي يعزفن عليها، فترى عازفات الكمان أو البيانو أو الناي في مجموعات لا تنفصم أبدا. وعندما يتعلّقون بحبّ شخص ما فمن الصعب أن يبتعدوا عنه. فهم يجدون في الصداقة راحة وعزاء. وهم يحكمون على بعضهم بالعدل، ويملكون أفكارا واضحة وعميقة عن الخير والشر. لا أحد يبزّهم في الحماسة عند السماع عن عمل كريم أو أمر عظيم".

سأل فوتيني عمّا إذا كانوا يحسنون العزف.

فأجاب الأستاذ: "إنّهم يحبّون الموسيقى بحرارة. إنّها مسرّتهم، والموسيقى حياتهم. هناك أطفال مكفوفون يقفون بعد أن يدخلوا المعهد، ويتجمدّون على

أقدامهم لمدّة ثلاث أو أربع ساعات ليسمعوا العزف. وهم يتعلّمون بسهولة، ويعزفون من كلٍّ قلوبهم. عندما يقول الأستاذ لأحدهم إنّه غير موهوب بالموسيقى، فإنّ هذا يشعر بألم عميق، ثمّ يتفانى في تكريس نفسه للدراسة. آه! لو سمعتم الموسيقى التي في أعماقهم، ولو رأيتموهم وهم يعزفون مرتفعي الجباه، وتعلو الابتسامات شفاههم، وهم متوقّدو الوجوه، يرتعشون من شدّة الانفعال، أو يتصلّبون جامدين وهم يستمعون بنشوة إلى ذلك التناغم الذي يجيبهم في الظلام اللامتناهي الذي يحيط بهم. ستعرفون وقتها أنّ الموسيقى سلوان لهم. إنّهم يبتهجون ويتألّقون من السعادة عندما يقول الأستاذ لأحدهم: ستصبح فنّانا. ويعتقدون أنّ الأوّل في درس الموسيقى هو الذي يحسن أكثر من غيره العزف على البيانو أو الكمان، وهذا سيصبح ملكا بالنسبة إليهم، وسيحبّونه كثيرا. وإذا نشأ خصام بين اثنين منهم فإنّهم يتوجّهون إليه، وإذا تنازع صديقان فهو الذي يصلح بينهما. أمّا الصغار فيعاملون من يعلّمهم العزف كأبٍ لهم. وقبل التوجّه للنوم، يذهبون كلّهم إليه ليتمنّوا له ليلة سعيدة. إنهم يتكلّمون باستمرار عن الموسيقى. ويلجأون إلى أسرّتهم في المساء متأخّرين، ومنهكين بسبب الدراسة والعمل، وشبه نائمين، لكنّهم يواصلون النقاش بصوت منخفض حول أعمال الأوبرا وقوّاد الأوركسترا وأدوات الموسيقى وفرق الأوركسترا. ومن أشدّ أنواع العقوبة التي تحلّ عليهم حرمانهم من درس الموسيقى أو القراءة. إنهم يتألّمون عندها ألما شديدا، حتّى إنّ أحدا لا يملك ما يكفي من الشجاعة ليعاقبهم بتلك الطريقة. إنّ ما هو نور بالنسبة لعيوننا هو الموسيقى بالنسبة لقلوبهم".

سأل ديروسّي عمّا إذا كان الذهاب لزيارتهم صعبا.

فأجاب الأستاذ: "يمكن. لكنّ من الأفضل ألاّ تذهبوا الآن، بل بعد حين، أي عندما تكونون قادرين على أن تدركوا عظمة تلك المصيبة، وأن تشعروا بكلّ الشفقة التي تستحقّها. إنّه يا بنيّ مشهدٌ حزين. يمكن أحيانا أن تشاهدوا هناك فتية جالسين أمام نافذة مفتوحة يستنشقون الهواء العليل، ووجوههم جامدة، حيث تحسبهم يتمتّعون بمشاهدة السهول الخضراء الفسيحة والجبال الزرقاء التي ترونها... ولكنهم لا يرون شيئا من كلّ ذلك، ولن يروا أبدا شيئا من ذلك

الجمال المطلق. إنّ صدوركم ستضيق عندها كما لو أنّكم أصبحتم عميانا أنتم أيضا. إنّ الذين ولدوا مكفوفين ولم يسبق لهم أن رأوا العالم البتّة لن يتحسّروا على شيء لأنّهم لا يتصوّرون شيئا؛ أولئك يثيرون مقدارا أقلّ من الشفقة. أمّا الفتية الذين أصبحوا مكفوفين منذ شهور قليلة وما زالوا يتذكّرون كلّ شيء ويدركون كلّ شيء فقدوه، فإنّهم يتألّمون أكثر بسبب العتمة التي تمحو من أذهانهم شيئا فشيئا كلّ يوم صور الأعزّاء عليهم، وبسبب انهيار أحبّتهم أمواتا في مخيّلاتهم. قال لي يوما أحد أولئك الفتية بحزنٍ لا يوصف: "أودّ لو عاد إليّ بصري للحظة واحدة لأرى وجه أمّي الذي لم أعد أذكره". لذلك عندما تذهب أمهاتهم لزيارتهم فإنّ كلاّ منهم يلمس وجه أمّه من أعلى الجبين وحتى أسفل الذقن، ثمّ أذنيها ليعرفوا هيئتها وكأنهم غير مقتنعين بأنهم لن يتمكّنوا من رؤيتها، ثمّ ينادونها بالاسم مرّات عديدة كما لو أنهم يرجونها أن تسمح لهم بأن يروها ولو لمرّة واحدة. كم منهم يخرج من الزيارة وهو يبكي حتى لو كان رجلا قاسي القلب! وعندما نخرج، نشعر كما لو أننا الاستثناء، كما لو أنّها ميزة لا نستحقّها أن نتمكّن من رؤية الناس والبيوت والسماء. آه، إنّي متأكّد أنّه لا يوجد بينكم من هو ليس على استعداد عندما يخرج من هناك لأن يحرم نفسه شيئا من بصره لكي يعطي وميضا منه على الأقلّ لأولئك الأطفال المساكين الذين لا نور للشمس بالنسبة إليهم ولا وجه للأمّ.

الأستاذ المريض

السبت 25

ذهبت مساء البارحة بعد الانصراف من المدرسة لزيارة أستاذي المريض. لقد مرض من كثرة العمل. فهو يعطي خمس ساعات تدريس كلّ يوم، ثمّ ساعة رياضة، ثمّ ساعتين في المدرسة المسائيّة؛ ممّا يعني قلّة النوم، والأكل على عجالة، والعمل بلا تنفّس منذ الصباح وحتى المساء؛ وهكذا أفسد صحته. هذا ما تقوله أمّي. انتظرتني أمّي عند باب عمارته، فصعدت وحدي، واجتمعت على الدرج مع الأستاذ كواتّي ذي اللحية السوداء الذي يرعب الجميع ولا يعاقب أحدا. حدّق فيّ بعينيه الواسعتين، وزأر ليمازحني لكن من دون أن يضحك. ضحكت بالفعل وأنا أقرع الجرس في الدور الرابع. لكنّي استأت بالفعل عندما أدخلتني الخادمة غرفة فقيرة نصف مظلمة كان أستاذي مستلقيا فيها على سرير حديديّ صغير وقد طالت لحيته. رفع يده فوق جبينه ليرى بصورة أفضل، ثمّ هتف بصوته الحنون: "أوه، أنريكو!". اقتربت من السرير، فربت بيده على كتفي وقال: "أحسنت يا بنيّ. نعمَ ما فعلته بمجيئك لزيارة أستاذك المسكين. لقد صرت في أسوأ حال كما ترى يا بنيّ العزيز أنريكو. كيف حال المدرسة؟ كيف حال رفاقك؟ هل كلّ شيء على ما يرام؟ حتّى بدوني. أموركم بخير على ما يبدو؛ رغم أنّ معلمّكم العجوز ليس بينكم. أليس كذلك؟". كنت أودّ أن أجيب بالنفي، لكنّه قاطعني: "هيّا، هيّا، أعرف أنّكم لا تحبونني". ثمّ تنهّد. بينما كنت أنا أنظر إلى بعض صوره المعلّقة على الجدار. ثمّ أردف يقول لي: "هل ترى؟ كلّهم فتية أعطوني صورهم على مدى عشرين سنة، فتيةٌ صالحون، هذه هي ذاكرتي. وعندما أشعر أنّي سأموت سألقي على صور هؤلاء الفتية الذين قضيت بينهم حياتي آخر نظراتي. لا بد أنّك ستعطيني أنت أيضا صورتك عندما تنهي

دراستك الابتدائيّة، أليس كذلك؟". ثمّ تناول برتقالة كانت موضوعة إلى جانبه على طاولة صغيرة ووضعها في يدي. وقال: "ليس لديّ شيء آخر أقدّمه لك، إنّها هديّة من مريض". كنت أنظر إليه بقلب حزين، من دون أن أدري السبب. فاستأنف قائلا: "انتبه، إني أرجو أن أنجو من هذه الوعكة، لكن إذا لم أشف منها... فعليك أن تقوّي نفسك في الحساب، فأنت ضعيف في هذه المادّة. أجهد نفسك قليلا! ليس عليك إلاّ أن تبذل بعض الجهد في بداية الأمر؛ لأنّ المشكلة ليست دائما مشكلة ميلٍ أو هواية، بل هذا مجرد عناد واعتقاد خاطئ". تكلّم وبدأ نفَسُه يتصاعد، وظهر أنّه يعاني. لذلك أكّد وهو يتنهّد: "إنّي نصف ميت. أعود فأوصيك أن تركّز على الحساب وعلى المسائل. وإذا لم نفلح في البداية؟ نستريح قليلا ثمّ نعاود الكرّة. وإذا لم نفلح مرة أخرى؟ راحة ثانية إذا، ثم نعيد الكرة مجددا. وإلى الأمام، لكن بهدوء، دونما لهاث ودونما غرور. اذهب الآن، وحيّي أمّك. ولا تصعد هذا الدرج مرّة أخرى، لأننا سنتقابل في المدرسة. وإذا لم نتقابل فتذكّر أستاذك الذي علّمك في الصفّ الثالث والذي أحبّك". عند سماعي هذا الكلام شعرت بالرغبة في البكاء. فقال لي: "أحنِ رأسك". أحنيت رأسي على الوسادة، فقبّلني على شعري، ثم قال لي: "اذهب". ثم أدار وجهه نحو الجدار، فطرت على الدرج لأنّي كنت بحاجة لأن أعانق أمّي".

الطريق

السبت 25

كنت أراقبك هذا المساء من النافذة، ورأيتك تصدم امرأة عندما عدت من بيت الأستاذ. انتبه إلى طريقة سيرك في الشارع. فعليك واجبات حتّى في الشارع. إذا كنت تقيس خطواتك وحركاتك وأنت في بيتك، فلماذا لا تفعل الشيء نفسه في الشارع وهو بيت الجميع؟ تذكّر هذا يا أنريكو. تذكَر أن تفسح المجال كلّما قابلت عجوزا متهالكا، أو فقيرا، أو امرأة مع طفلٍ على ذراعيها، أو أعرج بعكّازين، أو رجلا منحني الظهر تحت وطأة الحمل، أو عائلة بملابس الحداد. علينا أن نحترم الشيخوخة والبؤس وحبّ الأمّ والعجز والتعب والموت.

كلّما رأيت شخصا تكاد عربةٌ تدهسه أبعده عنها إذا كان طفلا، وحذّره إذا كان رجلا. اسأل عن سبب بكاء الطفل، وارفع عكّاز العجوز إذا وقع. افصل بين طفلين يتنازعان، وابتعد عنهما إذا كانا رجلين بالغين، ولا تتفرّج على مشاهد عنف وحشي؛ فهي تسيء إلى القلوب وتقسّيها. وإذا مرّ رجل مقيّد مع حارسين فلا تشارك الآخرين فضولهم بالتفرّج عليه؛ فقد يكون إنسانا بريئا. اقطع حديثك مع صديقك وكفّ عن التبسّم إذا مرّت أمامك محفّة مستشفى؛ فلربّما كانت تحمل شخصا يحتضر، أو إذا مرّت جنازة؛ فلربّما سارت ذات يوم بأحد أفراد عائلتك. انظر باحترام إلى فتية المعاهد عندما يمرّون مثاني مثاني؛ فمنهم مكفوفون وبكم وأقزام وأيتام وأطفال مهجورون، وقل عندها في قلبك ها هو أمامي سوء حظٍ وإحسان. تظاهر على الدوام أنك لا ترى الشخص الذي يمرّ أمامك إذا كان يشكو من تشوّهٍ مقرف أو مضحك. أطفئ كلّ عود ثقاب مشتعل كلّما رأيت مثله في طريقك. أجب بلطف كلّ راكب يطلب منك أن تفسح له الطريق. لا تنظر إلى أحد وأنت تضحك، ولا تجرِ بدون سبب، لا

تصرخ. احترم الطريق. وتذكّر أنّ حضارة الشعب تقاس أولّ ما تقاس بسلوكه في الشارع. وعندما تجد فظاظة في الشوارع فاعلم أنّك ملاقيها في البيوت. تفحّص الشوارع، تفحّص مدينتك التي تعيش فيها، فإذا تحتّم عليك ذات يوم أن تهجرها فسيسعدك أن تتذكّرها وتراجع كلّ صورها في ذاكرتك؛ لأنها مدينتك ووطنك الصغير الذي شكّل لسنين طويلة كلّ عالمك، حيث سرت بخطواتك الأولى إلى جانب أمّك، وحيث شعرت بانفعالاتك الأولى، وفتحت ذهنك لأفكارك الأولى، ووجدت أوّل أصدقائك. كانت هي الأمّ لك؛ علّمتك وسلّتك وحمتك. فتفحّصها في شوارعها وفي ناسها، وأحببها، ثمّ دافع عنها إذا شعرت أنّها تهان.

أبوك

المدارس المسائية

الخميس 2

أخذني أبي البارحة معه لنرى الصفوف المسائية في مدرستنا باريتّي. كانت كلّها مضاءة، والعمال قد بدأوا بالدخول. عندما وصلنا، وجدنا المدير والأساتذة غاضبين لأنّ حصاة حطّمت قبل قليل زجاج النافذة، وقد أسرع الآذن إلى الخارج، وأمسك بفتى صدف أنّه مرّ حينها في الشارع. لكنّ ستاردي الذي يقطن في الطرف المقابل للمدرسة جاء وقال: "إنه ليس هو؛ لأنّي رأيت فرانتي بأمّ عينيّ وهو يلقي الحصاة، بل إنّه قال لي: حذارِ أن تتكلّم! لكنّي لا أخافه". فقال المدير إنّ فرانتي سيُطرد بصورة نهائيّة، ثمّ التفت ليراقب العمّال الذين كانوا يتقاطرون مثنى وثلاثا وجماعات، وقد دخل منهم أكثر من مائتين. لم أتمتّع من قبل بجمال هذه المدرسة المسائيّة! كان فيها فتية في الثانية عشرة وأكثر، ورجال ملتحون عادوا من أعمالهم وهم يحملون الكتب والدفاتر، ونجّارون ووقّادو النار بوجوههم السوداء، ومعماريّون بكفوفهم المكلّسة البيضاء، وعمّال أفران بشعرهم المغبرّ بالطحين. وكنت تشمّ روائح الطلاء والجلود والأسفلت والزيوت، بل وروائح كلّ المهن. دخلت أيضا جماعة من عمّال المدفعيّة بملابسهم العسكريّة يقودها عريف. بدأوا يجلسون بسرعة على مقاعدهم، ويبعدون المسند السفليَ الذي نضع عليه أقدامنا، ثمّ ينحنون برؤوسهم على عملهم. كان بعضهم يذهب إلى الأستاذ ليستفهم ومعه دفتره المفتوح. رأيت ذلك الأستاذ الصغير وحسن الهندام الملقب بالمحامي الصغير، وكان حول طاولته ثلاثة أو أربعة عمّال، يصحح لهم بقلمه، ورأيت أيضا ذلك الأعرج الذي كان يضحك مع صبّاغ جاءه بدفتر مدبوغٍ بألوان حمراء وزرقاء. كان هناك أستاذي أيضا الذي شفي وسيعود

في الغد إلى المدرسة. كانت أبواب الصفوف مفتوحة. عندما بدأت الدروس أصابتني الدهشة لرؤية الجميع منتبهين بعيون ثابتة يقظة. هذا رغم أنّ أكثرهم ما زالوا جائعين - كما قال المدير - لأنهم لم يتمكّنوا من المرور ببيوتهم ليتناولوا لقمة طعام، وذلك خشية أن يصلوا متأخّرين. لكنّ الصغار منهم كادوا يقعون من شدة النعاس بعد نصف ساعة على بدء الدروس، بل إنّ بعضهم وضعوا رؤوسهم على مقاعدهم وناموا بالفعل، فذهب الأستاذ ليوقظهم بملاعبة آذانهم بالقلم. أمّا الكبار فكانوا يقظين، يستمعون للدرس فاغري الأفواه ومن دون أن يرفّ لهم جفن، وقد ترك انطباعا عميقا في نفسي أن أرى أولئك الملتحين جالسين في مقاعدنا. عندما صعدنا إلى الطابق الثاني جريت نحو باب صفّي، فرأيت في مقعدي رجلا بشاربين كثيفين ويدٍ مربوطة لأنّه أصيب على الأرجح بالآلة التي يعمل عليها، ومع هذا فقد كان يبدع في الكتابة، ولو ببطء. لكنّ ما أعجبني حقّا هو أن أرى مكان المعماريّ وفي مقعده بالذات والركن نفسه أباه، ذلك المعماريّ الضخم كالعمالقة وهو متكوّعٌ على المقعد يسند ذقنه بقبضتيه وعيناه على الكتاب مستغرقا يتنفّس بالكاد. ولم تكن هذه صدفة، لأنّه ذهب منذ أوّل مساء له في المدرسة إلى المدير وقال له: "أرجوك أيّها السيد المدير أن تضعني في مقعد ابني وجه الأرنب". وذلك لأنّه ينادي ابنه دائما بهذا النعت... أبقاني أبي هناك حتى النهاية، فرأينا قي الشارع نساء كثيرات يحملن أطفالهنّ وهنّ ينتظرن أزواجهنّ. ثم بدأ الجميع يتبادلون الأحمال، فالعمال يتناولون الأطفال، بينما تأخذ النساء منهم الكتب والدفاتر ثمّ يذهبون جميعا إلى بيوتهم. وقد بقيت الطريق لبعض الدقائق مليئة بالناس والصخب، ثم صمت كلّ شيء ولم نعد نرى سوى المدير بهيئته المتعبة الطويلة وهو يبتعد.

الصراع

الأحد 5

كان مـن المنتظـر أن يحـاول فرانتي الانتقام بعـد أن طرده المدير. وهكذا، انتظـر سـتاردي بعـد الانصـراف في إحـدى الحارات، حيث يمرّ عـادة مع أخته التي يرافقها كلّ يوم عندما تخرج من المعهد في شارع دورا غروسّا. وقد رأت أختي سيلفيا كل شيء وهي تخرج من المدرسة، فعادت إلى البيت مرعوبة رعبا شـديدا. وهذا ما حدث: كان فرانتي يعتمر قبّعته المصنوعة من قماش مُشـمّع، والمائلـة علـى إحـدى أذنيه. ما إن رأى سـتاردي بصحبة أخته حتى جرى وراءه وحاول إثارته بشدّ جديلة أخته؛ شدّها بقوة حتى كاد يوقعها على ظهرها. وعندما صرخت الفتاة التفت أخوها. كان فرانتي أطول من سـتاردي وأقوى منه بكثير، وكان يفكّـر: إمّـا أن لا يتنفـس أو أسـلخ جلده. لكنّ سـتاردي لـم يتردّد لحظة، ومع أنّه مكوّر القامة وهزيل الجسم، فقد قفز وهجم على ذلك العملاق، وبدأ في لكمه وضربه. لكنّه لم يفلح، بل تناول أكثر ممّا ناول. لم يكن في الشـارع سوى فتيات، ولم يتمكّن أحد من تفريقهما. عندما رماه فرانتي أرضا نهض في الحال، وانهال عليه من جديد، فضربه فرانتي كما لو أنه يقرع على الباب، وكاد في لحظة واحدة أن يخلع له أذنه، بل وأن يفقأ عينه، وسال الدم من أنفه. لكنّ ستاردي العنيد زأر وقال: "قد تقتلني لكنّك ستدفع الثمن". وواصل فرانتي رفس ستاردي وصفعه وهذا يردّ نطحا ورفسا. صاحت امرأة من النافذة: "تشجّع أيّها الصغيـر!". وقالـت أخريـات: "إنّـه فتى يدافع عن أخته". "تشـجّع! اضرب بقوة". كما صحن على فرانتي: "لا تتسلّط يا جبان". لكنّ فرانتي غضب ورفس ستاردي بقوّة، وعندما أوقعه انهال عليه: "استسـلم!". "لا!". "استسـلم!". "لا!". وفي لمح البصر، نهض ستاردي وضرب فرانتي في خاصرته ثمّ استجمع قواه وألقاه أرضا

ووضع ركبته على صدره. وهنا هتف رجلٌ وهو يجري: "آه! اللعين، إنّه يحمل سكيّنا!". ثم حاول نزع سلاح فرانتي. لكنّ ستاردي كان قد خرج أصلا عن طوره، فأمسك بذراع فرانتي بكلتا يديه، وعضّه من يده فسقطت السكّين بعد أن أدمت يده. في هذه الأثناء، جاء آخرون وفرّقوا بينهما وأنهضوهما. هرب فرانتي مهزوما، وبقي ستاردي مجروح الوجه مسودّ العينين. لكنّه انتصب منتصرا إلى جانب أخته التي كانت تبكي، بينما عملت بعض الفتيات على جمع الكتب والدفاتر المتناثرة على الطريق. وكان الجميع يردّدون: "رائع أيّها الصغير! لقد حمى أخته!". لكنّ ستاردي كان يفكّر في حقيبته أكثر من تفكيره بالنصر. وهكذا، فقد انكفأ عليها ليتفحّص كتبه ودفاتره قطعة قطعة، وليرى إذا كان قد فقد منها واحدا أو إذا كان بعضها قد تضرّر، ثمّ نظّفها بكمّه، وفتّش عن القلم، ورتّب كل شيء في مكانه، ثمّ قال لأخته بهدوئه المعتاد وجدّيته: "فلنسرع، عندي مسألة بأربع عمليات ويجب أن أحلّها".

أقارب الأولاد

الاثنين 6

هذا الصباح، وقف ستاردي الأب الضخم لينتظر ابنه خوفا من أن يلتقي هذا فرانتي مرّة أخرى. لكنْ، قيل إنّ فرانتي لن يأتي ثانية؛ إذ لا بد أن يُحكم بالمؤبّد. هذا الصباح، جاء أيضا الكثير من الأقارب. وكان من بين الجمع بائع الحطب؛ أبو كوريتّي الشبيه جدّا بابنه - حتى بتيقّظه ومرحه - شاربه حادّ الطرفين، ويضع شريطة بلونين على عروة سترته. لقد أصبحت أعرف كل أقرباء أصدقائي من كثرة ما كنت أراهم هناك. جاءت أيضا جدّةٌ منحنية الظهر، وهي تعتمر على الدوام قبّعة بيضاء سواء أثلجت أو أمطرت أو عصفت. إنّها تأتي عادة أربع مرات كلّ يوم لترافق أو لتأخذ حفيدا لها من الصف الأول الثانوي. تخلع عنه المعطف أو تلبسه إياه، تسوّي له رباط العنق، تزيل الغبار عن ملابسه، تسوّيها، تتفحّص دفاتره؛ من الواضح أنّ لا هموم أخرى لديها، وأنّها لا ترى أجمل منه في العالم. في كثير من الأحيان، يأتي أيضا قبطان البحرية أبو روبيتّي صاحب العكّازين الذي أنقذ طفلا من تحت الحافلة. كان كل رفاق ابنه يمرّون أمامه ويربتون على كتفه ملاطفين، وكان لا يتوانى عن ردّ الملاطفة والتحية للجميع من دون أن ينسى أحدا، بل إنّه ينحني للجميع ثمّ يشكرهم، ويكون سروره على أشدّه إذا كان أحدهم فقيرا أو سيئ الهندام. في بعض الأحيان تبرز أمور محزنة. فهناك مثلا رجل غاب لأكثر من شهر لأنّ ابنه مات، وكان يرسل الخادمة لتأخذ ابنه الآخر. وقد عاد البارحة للمرّة الأولى، وما إن رأى المدرسة ورفاق ابنه الميت حتى انتحى في الزاوية وأجهش في البكاء بعد أن غطّى وجهه بكلتا يديه. عندما رآه المدير أخذه من ذراعه وقاده إلى مكتبه. وهناك آباء وأمّهات يعرفون بالاسم كلّ رفاق أبنائهم. وهناك فتيات المدرسة المجاورة، وتلاميذ

الثانويّة الذين يأتون لانتظار إخوتهم. هناك سـيّد عجوز كان عقيدا في الجيش، ما إن يرى أنّ أحد الفتية أسقط قلما أو دفترا على الأرض حتى يسارع ليلتقطه له. كانت هناك أيضا سيّدات حسنات الهندام، يتحادثن مع أخريات حول شؤون المدرسـة، ومنهنّ من تضع ريشـة على قبّعتها أو تحمل سـلّة على ذراعها. وكن يقلـن: "آه، كانـت المسـألة رهيبـة هذه المـرّة!". "كان درس القواعد هذا الصباح طويـلا لا ينتهـي!". أمّـا إذا كان هنـاك مريض في بعض الصفوف، فكلّهنّ يعلمن بالأمر. وإذا شـفي مريض فإنّهن يبتهجن. وقد التفّت هذا الصباح حوالى ثماني سـيدات أو عشـرة حول أمّ كروسّـي بائعة الخضار ليسـألنها عن طفل مسـكين فـي صـفّ أخـي يسـكن في رواق بيتها بالـذات، وهو في خطر الموت. يبدو أنّ المدرسة جعلت الجميعَ أصدقاء متساوين.

الرقم 78

الأربعاء 8

مساء الأمس، رأيت مشهدا مثيرا. فمنذ عدّة أيام وبائعة الخضار تنظر إلى ديروسّي كلّما مرّت قربه نظرة تنمّ عن محبّة عميقة. ذلك لأنّ ديروسّي بعد أن اكتشف قصّة المحبرة والسجين رقم 78 بدأ بالتقرّب إلى ابنها كروسّي ذي الشعر الأحمر والذراع المعطوبة، وبدأ يساعده في المدرسة على إتمام واجباته، وفي تلقينه الأجوبة وإعطائه الأوراق والأقلام وأقلام الرصاص. أي بدأ يعامله معاملة الإخوة ليعوّض له عن مأساة أبيه التي حدثت وهو لا يعلم عنها شيئا. منذ عدّة أيام إذا وبائعة الخضار تنظر إلى ديروسّي وتودّ أن تبقي عينيها عليه لأنّها امرأة طيّبة صالحة لا تعيش إلا لابنها، وديروسّي يساعده على النجاح؛ ديروسّي السيّد الراقي والأوّل على صفّه يبدو لها محبّا وخدوما. كانت تنظر إليه ويظهر أنّها تودّ أن تقول له شيئا وخجلها يمنعها من ذلك. تشجعت أخيرا مساء البارحة، وأوقفته أمام أحد الأبواب وقالت له: "المعذرة أيها السيّد الفتيّ، المعذرة حقّا أيّها السيّد الطيّب الذي يحبّ ابني حبّا جمّا. أرجوك أن تقبل هذه الذكرى الصغيرة التي تقدّمها أمّ مسكينة، ثمّ أخرجت من سلّة الخضار علبة كرتون بيضاء مذهّبة. احمرّ وجه ديروسّي، ورفض وهو يقول بحزم: "أعطيها لابنك، أنا لا أقبل شيئا". شعرت المرأة بالخزي، وطلبت المعذرة مرّة أخرى وهي تتمتم: "لا أنوي أن أسيء إليك. إنّها مجرّد سكاكر". لكنّ ديروسّي قال لا وهو يهزّ برأسه. عندها، قامت بسحب حزمة من الفجل من سلّتها وقالت له بكلّ خجل: "اقبل هذه على الأقل فهي طازجة، خذها لأمّك". ابتسم ديروسّي وأجاب: "لا، شكرا. لا أريد شيئا، سأفعل كلّ ما أستطيع فعله من أجل كروسّي، لكنّي لا أستطيع أن أقبل شيئا، وشكرا على كلّ حال". فسألت المرأة قلقة: "هل

أنت مستاء؟". أجاب ديروسّي بالنفي، وقال لا وهو يبتسم، ثم انصرف بينما بقيت هي تردّد مسرورة: "أوه، ما أطيب هذا الفتى! لم أر فتى طيّبا ووسيما مثله". بدا أنّ الأمر انتهى. لكن في الرابعة مساء، اقترب أبو كروسّي بدلا من أمّه، اقترب بوجهه الشاحب الحزين وأوقف ديروسّي، وقد عرف في الحال من الطريقة التي نظر إليه فيها أنّه يعرف سرّه، فحدّق فيه بثبات، وقال له بصوت حزين وودود: "إنك تحبّ ابني. لماذا تحبّه كل هذا الحبّ؟". صار وجه ديروسّي أحمر بلون النار. وكان بودّه أن يقول: "أحبّه لأنّه كان بائسا مسكينا، ولأنّك أنت أيضا أيها الأب كنت بائسا مسكينا أكثر ممّا كنت مذنبا، ولأنّك قضيت محكوميّتك بكل نبل وشرف، ولأنّك إنسان يحمل قلبا كبيرا". لكنّه لم يجد الشجاعة للبوح بكلّ هذا، خاصة وأنّه ما زال يخشى ويشعر بشيء من الخوف من هذا الرجل الذي سفك دم رجل آخر وقبع ست سنوات في السجن. لكنّ الرجل أدرك ما يدور في خلد الفتى، فأطرق رأسه وهمس في أذن ديروسّي وهو يكاد يرتجف: "إنّك تحب ابني، لكن ما أرجوه هو أن لا تكره... لا تحتقر أباه". فهتف ديروسّي من قلبه: "آه! لا، لا، أبدا! على العكس!". كاد الرجل أن يتهوّر ويعانق الفتى لكنّه لم يجرؤ، واكتفى بأن أمسك بإصبعيه بخصلة شقراء من شعره وسحبها ثم تركها، ثمّ وضع يده على فمه وقبّل راحة يده وهو ينظر إلى ديروسّي بعينين رطبتين بالدمع، ليعني أنّ تلك القبلة له. أمسك بعدها بيد ابنه وابتعد مسرعا.

ميت صغير

الاثنين 13

مات طفلُ الصفّ الثانويّ الأوّل. كان رفيق أخي ويسكن في رواق بائعة الخضار. جاءت المعلّمة ديلكاتي مساء السبت مكتئبة حزينة، ونقلت الخبر للأستاذ، فتقدّم غاروني وكوريتّي وتطوّعا لحمل التابوت. كان فتى طيّبا، وقد حصل في الأسبوع الماضي على ميداليّة، وكان يحبّ أخي وأهداه حصّالة مكسورة، وكانت أمّي تلاطفه دائما وتداعبه بيدها كلّما قابلته. كان يعتمر قبّعة عليها شريطان من قماش أحمر. ويعمل أبوه حمّالا في السكك الحديديّة. ذهبنا مساء البارحة الأحد في الساعة الرابعة والنصف إلى بيته لنشارك في مرافقته إلى دار العبادة. بيته في الدور الأرضيّ. وقد اجتمع في الرواق الكثير من تلاميذ الثانويّ الأوّل مع أمّهاتهم وهم يحملون الشموع. وكان هناك حوالى خمس معلّمات أو ستّ وبعض الأقرباء. دخلت المعلّمة ذات الريشة الحمراء وديلكاتي من الخلف، وقد رأيناهما من خلال نافذة مفتوحة: كانتا تبكيان. وقد سمعت أمّ الطفل وهي تجهش في البكاء. كان هناك إكليلا زهور جاءت بهما سيدتان من أمّهات رفاق الميت في المدرسة. في الخامسة تماما بدأنا بالسير. سار في المقدّمة فتى يحمل الكتاب المقدس، ثم رجل الدين ثمّ التابوت؛ تابوت صغير جدّا، يا للطفل المسكين! غُطّي التابوت بقماش أسود، وإلى جانبه إكليلا الزهور اللذان جاءت بهما السيّدتان. وضعوا على طرف القماش الأسود الميدالية وثلاث شهادات تقدير حصّلها الفتى خلال العام الدراسي. حمل التابوت من رواق البيت كلّ من غاروني وكوريتّي وفتيان آخران. بين أوّل المشيّعين خلف التابوت كانت تسير ديلكاتي وهي تبكي كما لو أنّ الميت الصغير من عائلتها، وسارت وراءها بقيّة المعلّمات، ووراء المعلّمات فتية؛ بينهم صغار جدّا يحملون

باقات البنفسج في أيديهم وهم ينظرون إلى النعش مدهوشين بينما أمسكت أمّهاتهم بأيديهم الأخرى وحملن الشموع عوضا عنهم. سمعت أحدهم يقول: "ألن يأتي بعد الآن إلى المدرسة؟". عندما خرج التابوت من الرواق سمعنا صرخات يائسة تنطلق من النافذة؛ كان صوت أمّ الطفل، لكنّ بعضهم أعادها في الحال إلى الغرفة. عندما خرجنا إلى الشارع، قابلنا فتيان أحد المعاهد يسيرون في صفّين، وما إن رأوا التابوت وعليه الميدالية ووراءه المعلّمات حتى رفعوا جميعهم القبّعات. يا للمسكين الصغير! لقد ذهب مع ميداليته لينام إلى الأبد. لن نرى مجدّدا طاقيّته الحمراء، أبدا. كان في صحّة جيّدة، لكنّه مات خلال أربعة أيام. أجهد نفسه قبل يوم واحد ليقوم بوظيفة المصطلحات، ورغب أن يبقي الميدالية قريبة من سريره خوفا من أن يأخذها أحدهم. لن يأخذها أحد منك بعد الآن أيّها الفتى المسكين! وداعا! وداعا! سنذكرك دائما في شعبة باريتّي. ارقد في سلامٍ أيّها الطفل.

عشيّة 14 آذار/مارس

كان اليوم مرحا أكثر من البارحة. إنه الثالث عشر من آذار/ مارس؛ عشيّة توزيع الجوائز في مسرح فيتّوريو ايمانويلي - حفل كلّ السنين - الكبير الجميل. هذه المرّة، لم يتمّ بصورة عشوائيّة اختيار الفتية الذين سيظهرون على خشبة المسرح ليقدّموا شهادات الجوائز للأشخاص الذين سيوزعونها على الفائزين. فقد جاء المدير هذا الصباح بعد الانصراف وقال: "خبر سعيد أيّها الفتية". ثم نادى: "كوراتشي، الكالابريّ". فنهض الكالابريّ. "هل تقبل بأن تكون غدا بين الذين سيحملون على المسرح شهادات الجوائز إلى السلطات؟". فأجاب الكالابريّ بالقبول. فقال المدير: "هذا جيّد. بهذه الطريقة سيكون لدينا أيضا ممثّل عن منطقة كالابريا. سيكون هذا أمرا جميلا. خاصة وأنّ البلدية أرادت أن يكون الفتية العشرة أو الاثنا عشر الذين يقدّمون الجوائز ينتمون إلى كلّ مناطق إيطاليا، ومن مختلف المدارس العامّة. لدينا عشرون مدرسة، بخمسة فروع، وفيها سبعة آلاف تلميذ لا يمكن إلاّ أن نجد بينهم فتى من كلّ منطقة في إيطاليا. وقد وجدنا في مدرسة توركواتو تاسّو[1] ممثّلان عن جزيرتي صقليّة وساردينيا. أمّا مدرسة بونكومباني فقد قدّمت صغيرا من فلورنسة، ابن نحّات خشب، وكان هناك واحد من مواليد روما في مدرسة توماسّيو، كما وجدنا الكثيرين من مناطق فينيتو ولومبارديّا ورومانيا. وقدّمت مدرسة مونفيزو فتى من نابّولي ابن ضابط، أما نحن فسنقدّم واحدا من جنوى وآخر من كالابريا، أي أنت بالذات يا كوراتشي. وإذا أضفنا فتى منطقة البيمونت فسيكون العدد

(1) نظرا لأهميّة هذا الاسم، قد يكون من المفيد أن نورد هنا بعض ما جاء عنه في موسوعة ويكيبيديا: "توركواتو تاسّو 1544-1595 شاعر إيطالي اشتهر بملحمة "القدس المحررة" التي تناول فيها الحروب الصليبيّة في فترة احتلال القدس. أصابه مرض عقليّ ومات قبل أيام من تتويجه ملكا للشعراء. وقد اعتبر تاسو الشاعر المقروء في أوروبا أكثر من غيره، وذلك حتى بداية القرن العشرين. (المترجم)

اثنـي عشـر فتـى بالتمـام. هذا رائع، ألا يبدو كذلك؟ سـيقدّم الجوائز لكم إخوة لكم من كلّ أنحاء إيطاليا. انتبهوا، سـيصعد الفتيان الاثني عشـر كلهّم معا على خشـبة المسـرح. فاسـتقبلوهم بالتصفيق الشـديد. ورغم أنّهم فتية، فهم يمثّلون البلاد كما لو أنّهم رجال بالغون. وأنتم تعلمون أنّ علما صغيرا بالألوان الثلاثة يمثّل إيطاليا مثل العلم الكبير، أليس كذلك؟ صفّقوا لهم إذا بحرارة. أظهروا أنَ قلوبكم الصغيرة قادرة أيضا على أن تشتعل، وأنّ نفوسكم بأعوامها الاثني عشر تتحمّس أمام صورة الوطن الكريمة". قال هذا وانصرف، فقال الأسـتاذ مبتسـما: "إنّـك إذا يـا كوراتشـي النائـب عن كالابريا". فصفّق الجميـع ضاحكين، وعندما خرجنا إلى الشـارع أحاطوا بكوراتشـي، وأخذوا بقدميه، ثمّ رفعوه منتصرا وهم يصيحون: "عاش نائب كالابريا!". هتفوا بهذا على سـبيل المزاح وليس سـخرية على الإطلاق، احتفاء به، من قلوبهم، فهو فتى يحبّه الجميع، وكان هو يبتسم. حملوه بهذه الطريقة حتى بلغوا حارة اجتمعوا فيها برجل ذي لحية سوداء أخذ بالضحـك. فقـال الكالابـريّ: "إنّه أبي". عندها، وضـع الفتية زميلهم بين ذراعي أبيه وهربوا في كل اتّجاه.

توزيع الجوائز

14 آذار/مارس

حوالى الساعة الثانية، امتلأ المسرح الكبير بالناس. امتلأت الصالة والشرفات والمقصورات. كانت كلّها تعجّ بالجمهور، بآلاف الوجوه؛ بالفتية والسيّدات والأساتذة والعمّال ونساء من العامّة والأطفال؛ أمواج تتموّج بالرؤوس والأيدي وأرياش القبّعات والأشرطة وجدائل الشعر، فضلا عن الهمهمات الشديدة المرحة التي تزرع البهجة في القلوب. كان كلّ المسرح مزيّنا بأقواس من القماش الأحمر والأبيض والأخضر. بنوا درجين في الصالة: واحد على اليمين يصعد عليه الذين سيستلمون الجوائز إلى خشبة المسرح، وآخر على اليسار ينزلون عليه بعد استلام الجائزة. ووضعوا أمام الخشبة صفًا من الكراسي الحمراء، ووضع على ظهر كرسيّ الوسط تاجان صغيران من الغار، بينما رفرفت في صدر المسرح صفوف الأعلام، وعلى الطرف أمامها طاولة خضراء وضعت عليها شهادات الجوائز المربوطة بأشرطة علم الألوان الثلاثة. جلست الفرقة الموسيقيّة تحت الخشبة في الصالة، وملأ الأساتذة والمعلّمات وسط الشرفة الأولى التي حجزت لهم، بينما احتشد على مقاعد الصالة وفي ممرّاتها مئات الفتيان المكلّفين بالغناء، وكانوا يحملون في أيديهم أوراق الموسيقى المكتوبة. في الصدر والأطراف كانت المعلّمات والأساتذة ينظّمون جيئة وذهابا صفوف المحتفى بهم، وكان بينهم أيضا أقرباؤهم، يسوّون لهم شعرهم وربطات أعناقهم.

ما إن دخلت مع والديّ المقصورة حتى رأيت في مقصورة مقابلة المعلّمة ذات الريشة الحمراء التي كانت تضحك بغمّازتي وجنتيها الجميلتين، وكانت معها معلّمة أخي، و"المتبتلة الصغيرة" بملابسها السوداء، ثمّ معلّمتي الطيّبة من الصف الأوّل المتقدّم، وكانت المسكينة ممتقعة الوجه وتسعل بقوّة؛ حتى

إنّ صوت سعالها كان يسمع من طرف المسرح إلى طرفه الآخر. في الصالة، اجتمعت في الحال بصاحب ذلك الوجه الكبير العزيز غاروني، وبنيللي صاحب الرأس الصغير الأشقر مستندا إلى كتفه. على مسافة منهما رأيت غاروفّي بأنفه المعقوف مثل منقار البوم، وكان ينشط ليجمع القوائم المطبوعة بأسماء الفائزين بالجوائز، وقد حصل بالفعل على رزمة كبيرة لا بد أن يستعملها في أعماله التجاريّة... التي سنعرف عنها في الغد. بجانب الباب، كان يقف بائع الحطب مع زوجته بملابس الحفل، وقد اصطحبا ابنهما الذي حصل على الجائزة الثانية للمرة الثالثة. وقد أدهشني أنّه لم يعتمر قبّعته المصنوعة من وبر القطط ولم يرتدِ قميصه ذا لون الشوكولاته، بل كان يرتدي ملابس السادة. وبدا لي أنّي رأيت في الشرفة فوتيني يرتدي قبّة عنق من الدانتيل، لكنه غاب عن نظري في الحال. في إحدى مقصورات مقدمة المسرح المليئة بالناس رأيت عقيد المدفعيّة أبا روبيتّي ذي العكّازين الذي أنقذ الطفل من تحت عجلات الحافلة.

في تمام الساعة الثانية، عزفت الفرقة الموسيقيّة بينما صعد على الدرج اليميني عمدة البلدية، والمحافظ، والمفوض، والمراقب العام، وسادة آخرون كثيرون بملابسهم السوداء، وذهبوا جميعا ليجلسوا على المقاعد الحمراء في مقدمة الخشبة. توقّفت الفرقة عن العزف، فتقدّم مدير مدارس الغناء وفي يده عصاه. نهض بإشارة من العصا كلّ فتية الصالة وقوفا، ثمّ شرعوا بعد إشارة أخرى بالغناء. كانوا سبعمائة فتى يغنّون أغنية رائعة، سبعمائة صوت يغنّون معا، ما أجمل هذا! تجمّد الجميع في أمكنتهم وهم يصغون؛ كان غناء حلوا، صافيا، بطيئا. وعندما صمتوا صفّق الجميع، ثمّ صمتوا. كان توزيع الجوائز على وشك أن يبدأ، وكان أستاذي الصغير للصفّ الثاني قد تقدّم على الخشبة، برأسه الأحمر وعينيه اليقظتين؛ وذلك ليقرأ أسماء الفائزين. كان من المنتظر أن يدخل اثنا عشر فتى ليقدّموا الشهادات. وقد كتبت الصحف أنهم فتية من جميع مناطق إيطاليا. كان الجميع يعرفون هذا، وكانوا بانتظارهم، وهم ينظرون بفضول إلى الجانب الذي عليهم أن يخرجوا منه، بينما صمت كلّ المسرح، الجميع بمن فيهم العمدة وبقية السادة...

دخلوا فجأة مسرعين، واعتلوا الخشبة كلهم، واصطفوا عليها مبتسمين. هبّ كلّ من في المسرح واقفين، ثلاثة آلاف شخص هبّوا معا، وانفجروا في تصفيق حادّ كهزيم الرعد، فتوقّف الفتية هنيهة وكأنّهم قد ارتبكوا. قال صوتٌ على الخشبة: "هذه هي إيطاليا!". عرفت صوت كوراتشي الكالابريّ وكان يرتدي ملابسه السوداء المعتادة. كان معنا شخص من البلديّة يعرفهم جميعا، فبدأ يشير إليهم واحدا واحدا ليعرّف بهم أمّي: "ذلك الأشقر الصغير ممثّل منطقة البندقية. ممثّل روما هو ذاك الطويل أجعد الشعر...". كان بينهم اثنان أو ثلاثة بملابس أنيقة، أمّا الآخرون فكانوا أبناء عمّال، مرتبي المظهر وبهندام حسن. كان أصغرهم فتى من منطقة فلورنسة، وكان يلفّ منديلا أزرق حول خصره. مرّوا كلّهم أمام عمدة البلديّة، فقبّلهم على جباههم الواحد تلو الآخر، وكان إلى جانبه سيّد يخبره بصوت خافت أسماء مدنهم: "فلورنسة، بولونيا، باليرمو...". وكان جميع من في الصالة يصفّقون كلمّا مرّ واحد منهم. ثمّ أسرعوا كلّهم نحو الطاولة الخضراء ليأخذوا الشهادات. بدأ الأستاذ يقرأ القائمة ويتلو أسماء المدارس والصفوف والأشخاص، فشرع الفائزون بصعود الدرج والاستعراض.

ما إن صعد أوائلهم حتّى سمعت من خلف خشبة المسرح موسيقى خفيفة خفيفة صادرة عن آلات كمان، وبقيت تعزف طيلة زمن الاستعراض. كان اللحن لطيفا ومتناغما، يشبه همهمة أصوات مخنوقة وأصوات كلّ الأمّهات وكلّ المعلّمات والأساتذة الذين كانوا يرجون أو يقدّمون النصائح أو يوجّهون بعض التوبيخ المحبّب. كان الفائزون يمرّون واحدا إثر الآخر أمام أولئك السادة الجالسين الذين كانوا يعطونهم الشهادات، ويقولون لكلّ منهم كلمة أو يلاطفونه بمداعبة. كان الفتية في الصالة وعلى الشرفات يصفّقون كلّما مرّ واحدٌ صغير، أو واحدٌ تبدو على ملابسه علامات الفقر أو حتّى لدى مرور ذوي الشعر الطويل الأجعد أو من يرتدي ملابس حمراء أو بيضاء. مرّ منهم طلبة الأول المتقدّم الذين ما إن وصلوا إلى هناك حتّى اضطربوا واحتاروا إلى أين يلتفتون، فأضحكوا كلّ المسرح. مرّ فتى طوله ثلاثة أشبار، عقد على ظهره شريطا ورديّا كبيرا فكان يسير بصعوبة ثمّ اشتبكت قدمه بالسجّادة ووقع، فأنهضه المحافظ

على قدميه وضحك الجميع وهم يصفّقون. وقد تدحرج واحد آخر على الدرج وهو يتّجه نحو الصالة، فسمعت الصرخات رغم أنّه لم يصب بأذى. مرّوا بكل الأشكال؛ وجوهُ محتالين، وجوهٌ فزعة مرعوبة، وجوهٌ حمراء كالكرز. مرَّ صغارٌ مضحكين ويضحكون في وجه الجميع. ما إن نزلوا إلى الصالة حتى أمسك بهم آباؤهم وأمّهاتهم وأخذوهم بعيدا. تسلّيت بالفعل عندما جاء دور مدرستنا! مرّ كثيرون ممّن أعرفهم. مرّ كوريتّي بملابسه الجديدة من أعلى رأسه إلى أخمص قدمه بابتسامته الحلوة المرحة التي تظهر كلّ أسنانه البيضاء؛ مع أنّه حمل هذا الصباح الكثير من الحطب، والله أعلم كم حمل من أثقال الحطب! عندما أعطاه العمدة شهادته سأله وهو يربت على كتفه عن معنى العلامة الحمراء الموجودة على جبهته. بحثت عن أبيه وأمّه في الصالة، فرأيت أنّهما يضحكان وهما يغطّيان فميهما بيديهما. ثمّ مرّ ديروسّي بملابسه الزرقاء وأزراره البرّاقة وخصلات شعره الشقراء، كان يقظا، ومطمئنًا، ومرتفع الجبين، ووسيما، وشديد اللطف؛ فشعرت أنّ بودّي أن أرسل له قبلة، كما ودّ الكثير من السادة أيضا أن يكلّموه أو يشدّوا على يده. هتف الأستاذ بعدها: "جوليو روبيتّي!". فتقدّم ابن عقيد المدفعيّة بعكّازيه. وبما أنّ مئات الفتية كانوا يعرفون القصّة، فقد انتشر الخبر في لحظة، وانفجرت عاصفة من التصفيق والهتاف هزّت المسرح، ونهض الرجال وقوفا، بينما قامت النساء بالتلويح بمناديلهنّ؛ فتوقّف الفتى المسكين وسط الخشبة مذهولا يرتجف... جذبه العمدة إلى صدره، وقدّم له الجائزة، وأعطاه قبلة، ثمّ نزع عن سنّادة مقعده تاج الغار المعلّق عليه ووضعه على كوع العكّاز... ثمّ رافقه حتى مقصورة مقدّمة المسرح حيث كان يجلس أبوه العقيد، فحمله هذا الأخير وأدخله وسط هتافات الاستحسان والابتهاج. تواصلت الموسيقى الخفيفة اللطيفة بأصوات آلات الكمان، كما استمر الفتية في المرور. جاء دور مدرسة لاكونسولاتا، وكان كلّ منتسبيها من أبناء التجّار، ثمّ مدرسة فانكيليا من أبناء العمّال، ومدرسة بونكومباني وأكثرهم أبناء فلاّحين. المدرسة الأخيرة كانت راينيري. في النهاية، غنّى السبعمائة فتى في الصالة أغنية أخرى رائعة، ثمّ تحدّث العمدة، وبعده المستشار الذي ختم حديثه قائلا للفتية: "... لكن لا تخرجوا من

هنا من غير أن ترسلوا تحيّة إلى أولئك الذين يتعبون كثيرا من أجلكم، والذين يكرّسون من أجلكم كلّ قواهم العقليّة والقلبيّة، الذين يعيشون ويموتون من أجلكم". وأشار إلى شرفة المدرّسين. عندها، نهض كلّ الفتيان في الشرفات والمقصورات والصالة ومدّوا أذرعهم وهم يهتفون للمعلّمين والمعلّمات الذين أجابوا بالتلويح بأيديهم وقبّعاتهم ومناديلهم وهم يقفون منفعلين. بعدها، عزفت الفرقة مجدّدا، فأرسل الجمهور تحية صاخبة أخرى إلى الفتية الاثني عشر؛ ممثّلي كل مناطق إيطاليا الذين اصطفوا على الخشبة متشابكي الأيدي تحت وابلٍ من باقات الورود.

شجار

الاثنين 20

لا، لم يكن ذلك بسبب غيرتي لأنّه حصل على جائزة لم أحصل أنا عليها. لم يكن هذا سبب شجاري مع كوريتّي هذا الصباح. لم يكن السبب حسدا ولا غيرة. لكنّي أخطأت. عندما وضعه الأستاذ إلى جانبي وأنا أكتب على دفتر الخطّ صدمني بكوعه فجعلني أخربش على الورقة وألطّخ القصّة الشهريّة "دم رومانيولي"[1] التي كنت أنسخها عوضا عن المعماريّ الذي كان مريضا. غضبت عندها، ووجهت له كلمة بمثابة شتيمة. فأجابني وهو يبتسم: "لم أفعلها عن قصد". كان عليّ أن أصدّقه لأنّي أعرفه حقّ المعرفة. لكنّه أزعجني بابتسامته تلك، فقلت في خلدي: أوه! سيركب رأسه غرورا الآن بعد أن حصل على الجائزة! انتقمت منه بعد قليل، ووكزته فخربت الكتابة على صفحته. عندها، رفع يده وقال لي وقد استشاط غضبا: "لكنّك فعلتها عن قصد!". ما إن رآنا الأستاذ حتّى سحب يده، لكنّه أضاف: "سأراك في الخارج!". استأت بالفعل، لكنّي ندمت عندما هدأ روعي. تذكّرت حين رأيته في بيته، وكيف كان يعمل ويساعد أمّه المريضة، ثمّ كيف احتفلتُ به عندما زارني في بيتي، وكيف أعجب به أبي. كم كنت سأدفع مقابل ألاّ أقول له ما قلته، مقابل ألاّ أسيء إليه بتلك الطريقة! ثمّ فكّرت بالنصيحة التي لا بد أنّ أبي سينصحني بها.

"هل أخطأتَ معه؟". "أجل". "إذا، اعتذر منه". لكنّي لم أكن لأجرؤ على فعل هذا، كنت أخاف أن أُذلّ. نظرت إليه في الخفاء، ورأيت قميصه الذي نُقِض نسيجه على الكتف من كثرة ما حمل حطبا عليه، وشعرت عندئذٍ أنّي أحبّه. تشجّع! لكنّ كلمة الاعتذار بقيت معلّقة في حنجرتي. أمّا هو فكان ينظر

---

(1) نسبة إلى منطقة رومانيا Romagna شمال شرق إيطاليا. ولا علاقة لهذا طبعا بدولة رومانيا المعروفة.

إليّ شزرا من حين لآخر، وبدا لي أنّه متألّم أكثر ممّا هو غضبان. نظرت إليه أنا أيضا بحنق حتى أريه أنّي لا أهابه. فكرّر قائلا: "سأراك في الخارج!". فأجبته: "سأراك في الخارج!". لكنّي كنت أفكّر بما قاله لي أبي ذات مرّة: "إذا أخطأت فدافع عن نفسك، لكن لا تحارب!". فقلت في نفسي: "سأدافع عن نفسي لكنّي لن أحاربه". لكنّي كنت غير مسرور وحزينا، وشردت عمّا كان الأستاذ يقوله. حانت في النهاية ساعة الانصراف. عندما أصبحت وحيدا في الشارع لاحظت أنّه يتبعني. فتوقّفت وانتظرته بالمسطرة في يدي. عندما اقترب منّي رفعت المسطرة. "لا يا أنريكو". قال لي بابتسامته الحلوة وهو ينحّي المسطرة جانبا. "فلنرجع صديقين كما كنّا". اعترتني الدهشة للحظة، وشعرت بيد تضرب على كتفي، ثمّ وجدت نفسي بين ذراعيه. قبّلني وقال لي: "لا نزاع بيننا بعد الآن، هل أنت موافق؟". فأجبت: "أبدا بعد الآن! أبدا بعد الآن!". ثمّ ذهب كلّ منّا مسرورا في حال سبيله. عندما رجعت إلى البيت وحكيت لأبي كلّ القصّة ظانّا أنّه سيسرّ لها، رأيت أنّه قطّب قبل أن يقول لي: "كان يجب أن تمدّ له أنت يدك أوّلا؛ لأنّك أنت الذي أخطأت". ثمّ أضاف: "ما كان يجب أن ترفع المسطرة في وجه رفيق لك هو أفضل منك، في وجه ابن لجنديّ!". أخذ منّي مسطرتي بعدها، وكسرها نصفين، ورماها عرض الحائط.

أختي

الجمعة 24

لماذا أسأت لي أنا أيضا يا أنريكو بعد أن وبّخك أبوك لأنّك أسأت إلى كوريتّي؟ إنّك لا تتخيّل الألم الذي شعرت به. ألا تعلم أنّي عندما كنتَ طفلا كنتُ أجلس لساعات طويلة أمام مهدك عوضا عن الذهاب لأتسلّى مع رفيقاتي، وأنيّ كنت خلال مرضك أترك سريري كلّ ليلة لأتأكد أنّ الحمّى لا تحرق جبينك؟ ألا تعلم أنت الذي تسيء الآن إلى أختك أنّي إن أصابتنا مصيبة فسأكون أمّا لك، وأنّي سأحبك حبّ الأمّ؟ ألا تعلم أننا إذا فقدنا أبانا وأمّنا فإنّي سأكون أفضل صديقة لك؛ الوحيدة التي يمكنك أن تحادثها عن أمواتنا وعن طفولتك، وفي حال احتجنا إلى المال فأنا التي ستعمل يا أنريكو كي تضمن لك الخبز والتعلّم، وأنا التي ستحبّك عندما تكبر بل وعلى الدوام، والتي سترافقك بأفكارها إذا ذهبت بعيدا؟ هذا لأنّنا كبرنا معا، ولأنّ الدم نفسه يجري في عروقنا. تأكّد يا أنريكو أنّه إذا أصابتك مصيبة أو شعرت بالوحدة وأنت رجل كبير فلا بد أن تبحث عني وتأتي إليّ لتقول: "دعيني يا أختي سيلفيا أجلس معك لنتحدّث عن ماضينا عندما كنا سعداء، ألا تذكرين؟ فلنتكلّم عن أمّنا وبيتنا، وعن تلك الأيّام الحلوة المنصرمة. عندها ستجد أختك يا أنريكو مفتوحة الذراعين أمامك. أجل، يا عزيزي أنريكو، واعذرني الآن لأنّي أؤنبك. إنّي لا أذكر لك ذنبا اقترفته. لكن يهمّني حتى لو أسأت لي مرّة أخرى؛ لأنّك ستبقى أخي في كلّ الأحوال، ولن أتذكّر سوى أنّي كنت أحملك بين ذراعيّ وأنت طفل صغير، وأنّي رأيتك وأنت تكبر، وأنّي كنت طوال سنين عديدة رفيقتك الموثوقة. اكتب كلمة من كلماتك الحلوة على هذا الدفتر وسأقرأها أنا قبل هذا المساء. أريد على كلّ الأحوال أن أبرهن لك على أنّي لست غاضبة منك، لذلك وبما أنّك متعب، فقد نسخت لك

القصّة الشهريّة "دم رومانيولي" التي كان عليك أن تنسخها عوضا عن المعماريّ المريض. ستجدها في درج طاولتك الأيسر. كتبت هذه الرسالة هذه الليلة عندما كنتَ نائما. اكتب لي كلمة حلوة يا أنريكو، أرجوك.

أختك سيلفيا

لست جديرا بتقبيل يديك.

أنريكو

دمٌ رومانيولي[1]

قصّة شهريّة

كان بيت فيرّوتشو أكثر هدوءا من عادته. فالأب الذي كان يملك دكّانا صغيرا يبيع فيه مختلف الحاجيات، سافر إلى مدينة فورلي ليشتري بعض البضائع. وقد رافقته زوجته وأخذت معها الطفلة لويجينا لتعرضها على الطبيب الذي يجب أن يجري لها عمليّة جراحية في عينها المريضة. وما كان لهم أن يعودوا قبل صباح اليوم التالي. كان الوقت قبل منتصف الليل بقليل. كما أنّ المرأة التي تأتي عادة للقيام ببعض الخدمات غادرت عند الغروب. ولم يبق في البيت إلاّ الجدّة؛ وهي مشلولة القدمين، وفيرّوتشو؛ الفتى الذي كان في الثالثة عشرة من عمره. كان البيت مؤلفا من طابق أرضيّ فقط، ومطلاّ على الشارع العامّ على مسافة طلقة بندقية من قرية ليست بعيدة عن فورلي؛ إحدى مدن منطقة رومانيا. ولم يكن قربه إلاّ بيت آخر غير مسكون بعد أن أتى عليه حريق قبل شهرين، وما زالت تشاهد على هذا البيت لافتة تدلّ على أنه كان مطعما. كان هناك حقل صغير محاط بسياج من النباتات ينفتح عليه باب ريفيّ صغير خلف البيت، أما باب الدكّان - وهو باب البيت أيضا - فكان يطلّ على الشارع العام. في محيط البيت تمتدّ البساتين المعزولة، وهي عبارة عن حقول مشغولة ومزروعة بالتوت.

بقي القليل على منتصف الليل، كان الجو ماطرا والرياح عاصفة. وكان فيرّوتشو وجدّته مستيقظين وجالسين في غرفة الطعام التي لا يفصلها عن الحقل

(1) كما سبق ذكره؛ نسبة إلى منطقة رومانيا Romagna شمال شرق إيطاليا، ولا علاقة لهذا طبعا بدولة رومانيا المعروفة.

سوى غريفة مليئة بأثاث قديم. كان فيرّوتشو قد عاد إلى البيت في حوالى الحادية عشرة بعد غيابه عنه لساعات عديدة، فسهرت الجدّة لتنتظره قلقة ومسمّرة على مقعدها العريض ذي السنادتين الذي اعتادت أن تمضي عليه كلّ النهار، بل وطيلة الليل في أغلب الأحيان؛ خاصّة وأنّ صعوبة التنفّس كانت تمنعها من الاستلقاء.

كان المطر ينهمر، والرياح تضرب بالأمطار على النوافذ، وكان الليل مظلما حالك السواد. عاد فيرّوتشو منهكا وملوّثا بالوحل، وقد تمزقت سترته، وعلى جبهته كدمات سببتها محاجرة مع رفاقه بعد أن تقاتلوا مثل العادة بالأيدي. والأدهى أنّه لعب ففقد كل نقوده، بل وترك قبّعته في إحدى الحفر.

ومع أنّ المطبخ لم يكن مضاء إلاّ بسراج زيت صغير موضوع على زاوية طاولة بجانب المقعد، فإن الجدّة تمكّنت من رؤية الوضع البائس الذي جاء به حفيدها، كما أنها حزرت بعض الأمر ثم حملته على أن يعترف بالبعض الآخر من حماقاته.

كانت تحبّ ذلك الفتى من كلّ قلبها، لذلك انفجرت بالبكاء عندما عرفت الأمر كلّه.

ثم قالت بعد صمت طويل: "لا، لا. إنّك لا تحبّ جدّتك المسكينة. بل إنّك عديم الإحساس لأنّك تنتهز فرصة غياب أبيك وأمّك لتضايقني. لقد تركتني وحدي طيلة النهار! ولم تشعر بشيء من الشفقة حيالي. حذارِ يا فيرّوتشو! إنّ طريق السوء التي بدأت تمشي عليها ستوصلك إلى نهاية تعيسة. لقد رأيت كثيرين بدأوا الذي تبدأه، وانتهى بهم الأمر شرّ نهاية. يبدأ الفتى بالهرب من البيت، وبالتشاجر مع غيره من الفتيان، وبإضاعة النقود، ثم ينتقل به الأمر تدريجيّا من المحاجرة إلى استعمال السكاكين، ومن اللعب إلى رذائل أخرى... تصل إلى درجة السرقة".

وقف فيرّوتشو يستمع إليها منتصبا على مقربة منها، ومتّكئا على خزانة صغيرة، وذقنه على صدره، مقطّب الحاجبين، وهو ما زال يغلي من غضب الشجار. كانت خصلة من شعره الكستنائي الجميل تغطّي جبهته، وعيناه

الزرقاوان جامدتان.

كـرّرت الجـدّة قائلـة وهـي لا تـزال تبكي: "من اللعب إلى السـرقة. فكّر يا فيرّوتشـو، فكِّر بتلك الآفة التي حلّت هنا بالبلد، بذلك المدعو فيتو موتسـوني الذي أصبح الآن مشرّدا في المدينة، لم يتعدَّ الرابعة والعشرين من عمره، ومع ذلك دخل السجن مرّتين، بل تسبّب أيضا بموت أمّه المسكينة من شدّة الحسرة وعمق الأسـى. كنت أعرفها، كما أنّ أباه هرب إلى سويسـرا يائسـا. فكّر بفتى السـوء ذاك، الـذي مـا زال أبـوك يخجـل حتى مـن الردّ على تحيّتـه. إنّه يتجوّل دائما مع أوغاد مثله، حتى يسقط ذات يوم في السجن. كنت أعرفه عندما كان صغيرا، لقد بدأ كما تبدأ أنت الآن. فكّر بأنّك ستجبر أباك وأمّك على الوصول إلى نهاية أبويه نفسها.

بقي فيرّوتشو صامتا، ولم يكن يشعر بحزن أو ندم، بل على العكس. وذلك لأنّ جنوحـه ناشـئ عـن فـرط حيويّـة وجرأة وليس عن سـوء طويّة. بـل إنّ أباه لـم يـدلله ويدلّعـه علـى هذه الطريقة السـيئة إلاّ لهذا السـبب؛ أي لأنّه يظنّه مليئا بأطيب المشاعر؛ لذلك تشجّع وتكرّم ووضعه تحت التجربة تاركا له الحبل على الغارب حتى يعود وحده إلى رشـده. كان الفتى طيّبا وليس شـرّيرا، لكنّه عنيد وصعب المراس. لم يكن يستطيع أن يتفوّه بكلمةٍ يستجدي بها العفو حتى عندما كان قلبـه يعتصـر بالنـدم، كأن يقـول مثـلا: أجل، لقد أخطأت. لـن أعود لمثلها أبدا، أَعِد بذلك، سامحني. كان قلبه ينضح في بعض الأوقات حنانا ورِقّة، لكنّ الكبرياء تحول دون ظهورهما".

أردفت الجدّة وهي تراه على صمته المطبق: "آه يا فيرّوتشو!".

ألن تقول لي كلمة تدلّ على الندم وأنت ترى على أي حالٍ أمسيتُ!؟ قد أموت لهذا السـبب! يجب أن تشـفق عليّ ولا تتركني أتألّم. يجب ألاّ تُبكي أمَّ أمّك؛ هذه العجوز القريبة من يومها الأخير؛ جدّتك المسكينة التي طالما أحبّتك، والتي كانت تهزّ سريرك لياليَ طويلة عندما كنت مجرّد رضيع عمره أشهر قليلة. كانت لا تأكل حتى تشبعك. ألا تعرف؟ لطالما كنت أردّد: سيكون لي هذا الفتى عزاء في شـيخوختي! لكنّك الآن تميتني! إني أهب بكل سـرور ما بقي لي من

حياة لقاء أن أراك مستقيما من جديد، ومطيعا كما كنت تفعل... هل تذكر يا فيرّوتشو؟ كنت تملأ الجيوب بالحصى والحشائش، وكنت أحملك على ذراعي حتّى البيت وأنت نائم. كنتَ حينئذ تحبّ جدّتك المسكينة. أمّا الآن... لقد أصبحت مشلولة وبحاجةٍ إلى حنانك مثلما أحتاج إلى هواءٍ أستنشقُه؛ لأنّه ليس لي أحد غيرك في هذا العالم. أيّ امرأة مسكينة نصف ميتة أصبحتُ! يا إلهي!".

كاد فيرّوتشو أن يلقي بنفسه نحو جدّته بعد أن أخذ منه الانفعال كلّ مأخذ، لكنّه تخيّل أنّه سمع ضجيجا خفيفا، صريرا في الغريفة المجاورة التي تطلّ على الحقل. لكنّه لم يعلم إذا كان هذا بسبب النوافذ التي تهزّها الرياح أو لسبب آخر.

أصغى السمع.

كانت الأمطار تنهمر.

تكرّر الصوت، حتى إنّ الجدّة سمعته أيضا.

فسألت الجدّة بعد لحظة وقد اعتراها القلق: "ما هذا؟".

فتمتم الفتى قائلا: "لا بد أنّه المطر".

فأردفت الجدّة وهي تجفّف دموعها: "هل تعدني بأن تستقيم وبألاّ تُبكي جدّتك المسكينة مرّة أخرى؟".

لكنّ صوتا خفيفا آخر قطع حديثها.

فصاحت وقد امتقع وجهها: "لا يبدو أنهّ المطر. اذهب لترى".

ثمّ أردفت وهي تمسك بيد فيرّوتشو: "لا، ابق هنا".

حبس الاثنان أنفاسهما، فلم يسمعا إلا هدير الماء.

ثمّ ارتجفا، كلاهما.

فقد بدا للاثنين أنهما يسمعان وقع خطى في الغريفة.

فصاح الفتى وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة: "منْ هناك؟".

ولم يأت جواب من أحد.

فصاح فيرّوتشو مرّة أخرى وقد جمّده الخوف: "منْ هناك؟".

ما إن قال هاتين الكلمتين حتّى صرخ الاثنان صرخة رعب. فقد قفز رجلان إلى داخل الغرفة، أمسك أحدهما بالفتى وكمّم فاه، وشدّ الثاني على حنجرة

العجوز، ثم قال الأوّل: "الزم الصمت إذا كنت لا تريد أن تموت!". وقال الثاني: "اخرسي!". ثمّ سحب سكّينا. كان الأوّل والثاني مقنّعين بقماش غامق اللون يغطّي وجهيهما، مع فتحات للعيون.

لم تسمع للحظات غير أنفاس الأربعة اللاهثة يخالطها وقع المطر. كانت العجوز تصدر حشرجات متتابعة، كما جحظت عيناها.

همس الرجل الذي كان يمسك بالفتى في أذنه: "أين يضع أبوك نقوده؟".

فأجاب الفتى بصوت مخنوق بين صرير أسنانه: "هناك... في الخزانة".

فقال الرجل: "تعال معي".

وسحبه عبر الغرفة وهو يمسكه مضيّقا على رقبته. كان هناك سراج مطفأ على الأرض.

سأل: "أين الخزانة؟".

فأشار الفتى المخنوق نحو الخزانة.

أراد الرجل أن يأمن جانب الفتى، فألقاه أمام الخزانة جاثيا على ركبتيه، ثمّ ضغط على رقبته برجله ليتمكّن من خنقه إذا صاح، وكان يمسك بالسكّين بين أسنانه وبالسراج في يده، ثمّ أخرج باليد الأخرى من جيبه قطعة حديد حادّة وغرزها في القفل، ثمّ دوّرها وكسر القفل وفتح البابين، وخلط على عجل كل شيء، وملأ جيوبه وأغلق بابي الخزانة، ثمّ عاد وفتحهما وبحث، ثمّ شدّد الخناق على الفتى ودفعه قرب الشخص الآخر الذي ما زال يمسك بالعجوز وهي تنتفض مائلة الرأس فاغرة الفم.

سأل هذا بصوت منخفض: "هل وجدت؟".

فأجاب رفيقه: "وجدت".

ثم أضاف: "راقب الباب".

جرى الرجل الذي يمسك بالعجوز نحو باب الحقل ليتأكّد أن لا أحد هناك. ثمّ قال من الغريفة بصوت بدا أنّه صفير: "تعال".

عرض الرجل الذي يمسك بفيرّوتشو سكّينه للفتى وللعجوز التي فتحت عينيها وقال: "ولا صوت، وإلاّ عدت وذبحتكما!".

وحدّق لدقيقة بالاثنين.

في تلك اللحظة، سمعت أصوات غناء بعيد أتت من الشارع.

التفت اللص نحو الباب بسرعة، فوقع بسبب الحركة العنيفة القناع عن وجهه.

فأطلقت العجوز صرخة وقالت: "ماتزوني؟".

زعق اللصّ بعد أن عرفاه: "ملعونة! يجب أن تموتي!".

ثم هجم بسكّينه المرفوعة على العجوز، فأغمي عليها في الحال.

أحكم القاتل الضربة، لكنّ فيرّوتشو كان قد هجم بحركة سريعة على جدّته وهو يصرخ صرخة يائسة، ثمّ غطّاها بجسده.

هرب القاتل بعد أن اصطدم بالطاولة وقلب السراج فانطفأ.

انزلق الفتى ببطء فوق الجدّة، ثم وقع على ركبتيه وبقي على هذا الوضع، ويداه محيطتان بخصرها ورأسه على صدرها.

مرّت دقائق وسط الظلام الدامس، بينما كان غناء الفلاحين يبتعد عبر البساتين، واستعادت العجوز وعيها.

فنادت بصوت لا يكاد يسمع وأسنانها تصطكّ: "فيرّوتشو!".

أجاب الفتى: "جدّتي".

وجدت العجوز صعوبة في الكلام، بل إنّ الرعب كان يشلّ لسانها.

فبقيت لمدة صامتة وهي ترتجف بعنف. ثم تمكّنت من أن تسأل:

- هل ذهبا؟

- نعم.

فتمتمت بصوت مخنوق: "لم يقتلاني".

فأجاب فيرّوتشو بصوت ضعيف: "لا... لقد نجوت، نجوت يا جدّتي العزيزة. لقد سرقا النقود، لكنّ أبي كان قد أخذ أكثرها معه".

تنفّست العجوز الصعداء.

قال فيرّوتشو وهو لا يزال جاثيا على ركبتيه ومطوّقا خصرها: "جدّتي، جدّتي العزيزة، أنا أحبك كثيرا".

فأجابت: "آه يا فيرّوتشو! يا بنيّ المسكين!".

قالت وهي تضع يدها على رأسه: "لا بد أنّك ارتعبت أشدّ الرعب! يا الله الرحيم! أشعل بعض الضوء. لا، فلنبق في الظلام، إنّي ما زلت خائفة".

أردف الفتى قائلا: "كنت أسبّب لك الآلام دائما...".

- لا، يا فيرّوتشو. لا تقل هذه الأشياء. إنّي نسيتها ولا أفكّر بها. إنّي أحبّك حبّا شديدا.

استجمع فيرّوتشو قواه مرة أخرى، واستأنف كلامه بصوت مرتجف: "لقد كنت أضايقك دائما... لكنّي كنت أحبّك على الدوام. هل تسامحينني؟ سامحيني يا جدّتي.

- أجل يا بنيّ. إني أسامحك من كلّ قلبي. وكيف لا أسامحك. انهض يا طفلي، إنّي لن أوبّخك بعد الآن، فأنت طيّب القلب جدّا! فلنشعل الضوء. لنتشجّع. انهض يا فيرّوتشو.

قال الفتى بصوت أضعف فأضعف: "شكرا يا جدّتي. إنّي الآن سعيد. ستذكرينني يا جدّتي، أليس كذلك يا جدّتي؟ هل ستذكرينني دائما؟ أستذكرين حبيبك فيرّوتشو؟".

صاحت الجدّة قلقة ومستغربة وهي تضع يديها على كتفيه وتحني رأسها لترى وجهه: "حبيبي فيرّوتشو!".

تمتم الفتى مرّة أخرى بصوت بدا مثل النفخ: "اذكريني. أعطي قبلة لأمّي... ولأبي... للويجينا... وداعا، جدّتي...".

صرخت العجوز وهي تلمس لاهثة رأس الفتى الذي مال على ركبتيها: "يا الله، ماذا حلَّ بك!؟". ثمّ صاحت بكلٍّ ما في حنجرتها من صوت وبكلّ ما فيها من يأس: "فيرّوتشو! فيرّوتشو! فيرّوتشو! طفلي الغالي! حبيبي! ساعدوني...".

لكنّ فيرّوتشو لم يجبها؛ فالبطل الصغير، منقذ أمّ أمّه، طُعِن بسكّين في ظهره، فأسلم روحه الطيّبة الجسورة الشجاعة.

المعماريّ الصغير يحتضر

الثلاثاء 18

المعماريّ الصغير المسكين مريضٌ بمرضٍ خطير، لذلك أوصانا الأستاذ بالذهاب لزيارته، فاتّفقت على ذلك مع غارونّي وديروسّي. كان بودّ ستاردي أن يأتي معنا، لكنّ الأستاذ كلّفه بكتابة وصفٍ لنصبِ كافور[1]، فقال لنا إنّه يريد أن يذهب ليرى النصب ويصفه بصورة أكثر دقة بعد رؤيته في الواقع. ثمّ حاولنا على سبيل التجربة أن ندعو ذلك المنفاخ نوبيس كي يأتي معنا، فأجاب: "لا". من دون أن يزيد كلمة. اعتذر فوتيني أيضا؛ ربّما خوفا من أن يلطّخ ثيابه بالكلس. إذا، ذهبنا عند انصراف الساعة الرابعة. كانت الأمطار تنهمر بشدّة. توقّف غارّوني في الطريق وقال وفمه مليء بالخبز: "ماذا نشتري؟". ثمّ خشخش بدرهمين في جيبه، فدفع كلّ منّا درهمين، واشترينا ثلاث برتقالات كبيرة. صعدنا إلى السقيفة، وعندما وصلنا إلى الباب، خلع ديروسّي الميدالية ووضعها في جيبه. سألته عن السبب فأجاب: "لا أعرف، درءا للخيلاء... يبدو لي أنه من الأفضل أن أدخل بدون ميدالية". قرعنا الباب ففتح لنا أبوه؛ ذلك الرجل الذي كان يبدو عملاقا ظهر الآن بوجهٍ مضطرب مرتعب. سأل عن هوياتنا، فأجاب غاروني أننا رفاق أنتونيو في المدرسة، وأننا جئناه بثلاث حبّات برتقال. فقال المعماريّ وهو يهزّ رأسه: "أخشى ألاّ يتمكّن تونينو المسكين من أكل برتقالكم!". ثمّ جفّف عينيه بظاهر يده، وأفسح لنا الطريق وأدخلنا غرفة سقيفة حيث رأينا المعماريّ الصغير نائما في سرير حديديّ صغير. وكانت أمّه فوق السرير ووجهها بين يديها، فالتفتت قليلا لترانا ثم عادت كما كانت. كانت تتدلّى من أحد الأطراف

---

(1) الكونت كافور (1810-1861) سياسي إيطالي، أصبح أول رئيس وزراء في مملكة إيطاليا، ومات في هذا المنصب. كان بطل حركة النهضة والبعث في إيطاليا، وعمل على تدعيم اقتصاد الدولة الناشئة. كان خصما لجوزيبي ماتزيني وتخاصم أحيانا مع غاريبالدي.

فراشي الدهان وبعض أدوات التكليس، أما عند قدمي المريض فقد نشرت سترة المعماريّ ملطّخة ببياض الكلس. أصيب الفتى المسكين بالهزال، وابيضّ لونه، وصار أنفه أكثر حدّة، وقصر نفَسهُ. يا عزيزي تونينو، الصالح الطيّب المرح، يا رفيقي الصغير، كم تألّمت لأجلك، كم أقدّم حتّى أراك وأنت تقلّد ثانية وجه الأرنب، يا للمعماريّ الصغير المسكين! وضع غاروني برتقالة على الوسادة إلى جانب وجهه، أيقظته الرائحةُ فتناولها في الحال، ثمّ تركها تسقط، وحدّق بثبات في وجه غاروني، فقال: "هذا أنا، غاروني، هل عرفتني؟". تبسّم المريض عندها ابتسامة لا تكاد ترى، وبصعوبة بالغة رفع يده القصيرة عن السرير ومدّها نحو غاروني فأخذها هذا ووضعها بين يديه وأسند عليها رأسه قائلا: "تشجّع! تشجّع أيّها المعماريّ الصغير، ستشفى عاجلا وستعود إلى المدرسة وسيضعك الأستاذ إلى جانبي، هل أنت مسرور؟". لكنّ المعماريّ الصغير لم يستطع الإجابة، بينما انفجرت أمّه في البكاء: "يا تونينو. يا ابني المسكين، تونينو، ابني المسكين! يا ابني الطيّب الصالح الشاطر! إنها مشيئة الله أن يأخذه منّا باكرا". لكنّ المعماريّ نهرها وهو يائس أيضا: "اصمتي، اصمتي حبّا بالله، أو سأفقد عقلي!". ثمّ قال لنا منهكا: "اذهبوا، اذهبوا يا فتية. شكرا لكم. اذهبوا، ماذا يمكن أن تفعلوا هنا؟ شكرا، عودوا إلى بيوتكم". كان الفتى قد أغمض عينيه وبدا مثل الأموات. فسأل غاروني: "هل أنت بحاجة إلى أيّ خدمة؟". فأجاب المعماريّ: "لا، أيّها الابن الصالح. شكرا، عودوا إلى بيوتكم". ثمّ دفعنا نحو الدرج وأغلق الباب. لم نكن قد وصلنا إلى منتصف الدرج حتى سمعناه يصرخ: "غاروني! غاروني!". فصعدنا بسرعة نحن الثلاثة، وسمعناه يصرخ وقد تغيّر وجهه: "غاروني! لقد ناداك بالاسم. إنّه لم يتكلم منذ يومين، لكنّه ناداك الآن مرّتين. إنّه يريدك، تعال، تعال. آه، يا الله العظيم، عسى أن تكون بشرى طيّبة!". فقال لنا غاروني: "وداعا، سأبقى أنا هنا". ودخل البيت مع الأب. كانت عينا ديروسّي قد امتلأتا بالدموع. فسألته: "هل تبكي من أجل المعماريّ الصغير؟ لقد تكلّم، وسيشفى". أجاب: "أظنّ هذا. لم أكن أفكّر به... كنت أفكّر كم هو طيّب، يا لنفسه الصالحة!".

الكونت كافور

الأربعاء 29

يجب عليك أن تكتب وصفا لنصب كافور، ويمكنك أن تفعل هذا الآن، لكن، لا يمكنك أن تفهم الآن من كان حقّا الكونت كافور. لذلك اعلم الآن فقط هذا: شغل كافور منصب رئيس وزراء البيمونت[1]، وهو الذي أرسل الجيش البيمونتيَ إلى القرم وانتصر في معركة شيرنايا[2] فاستعاد أمجادنا العسكرية التي انهارت بعد هزيمة نوفارا[3]، وهو الذي أنزل من جبال الألب مائة وخمسين ألف فرنسيَ ليطردوا النمساويين من منطقة لومبارديا، وهو الذي حكم إيطاليا خلال عهد مجيد من ثورتنا؛ فدفع إلى الأمام الحركة التي وحّدت بلادنا، كلّ هذا بفضل عقله المستنير وإرادته الصلبة ونشاطه الذي يفوق قدرة البشر. لقد أمضى الكثير من أركان الجيش ساعات رهيبة في ساحات الوغى، لكنّه أمضى ساعات أشدّ رهبة وهو في مكتبه؛ عندما كان يرى أنّ عمله العظيم يمكن أن ينهار من ساعة إلى أخرى كما ينهار بناء هشّ العمارة تحت ضربات الزلزال. لقد قضى ساعات بل

(1) البيمونت هي الآن منطقة شمال غرب إيطاليا.

(2) معركة شيرنايا أو معركة النهر الأسود جرت في آب 1855 بين الجيش الروسي وجيش التحالف بين فرنسا وسردينيا والعثمانيين. وقد انتهت المعركة بخسارة الروس وانتصار الحلفاء.

(3) معركة نوفارا آذار 1849 انتصر فيها النمساويّون على جيش البيمونت.

ليالـي كثيـرة فـي صـراع وقلـق أليمين، لا يمكن للمـرء أن يخرج منهما إلاّ وهو فاقـد العقـل أو ميـت الفؤاد. وقـد قصّر عملُه العاصف العملاق هذا عمرَه بأكثر من عشـرين سـنة. لقد صارع المرض، وقارع حمّى كان بمقدورها أن تلقيه في القبر من أجل أن ينجز شـيئا ما لصالح بلاده. قال بألم شـديد وهو على فراش الموت: "الغريب أنيَ لا أتمكّن من القراءة، ولا أعرف أن أقرأ". كان يفكّر بوطنه بينما كانوا يسـحبون منه الدم والحمّى تشـتدّ، وكان يردّد بإلحاح: "اشـفوني، إنّ عقلي يُظْلم، لكنّي بحاجة لكلّ قواي لأحقّق أمورا كبيرة". عندما وصل إلى نهاية المطاف، واهتاجت المدينة كلّها، كان الملك واقفا قرب وسادته. عندها، قال له وهو منهك ومتحسّـرا على نفسـه: "يجب أن أخبرك يا سـيّدي بأشياء كثيرة، وأن أريك أشـياء كثيرة، لكنّي مريض. لا أسـتطيع، لا أسـتطيع". كان يتّجه بأفكاره المحمومـة نحـو الدولـة، ونحـو المناطـق الإيطاليّة الجديدة التـي انضمّت إلينا، وأشـياء كثيـرة لا بـد مـن إتمامها. عندما اعتراه الهذيـان، كان صوته يعلو ليقول بلهفـة: "ربّـوا الأطفـال، ربّـوا الأطفال والشـباب، احكموا بالحريّـة". كان هذيانه يشـتدّ والمـوت يجثـم فوقه، بينما كان يرجـو أحرّ الرجاء اللواء غاريبالدي الذي اختلـف معـه بالـرأي، ليذكّـره أنّ منطقتـي البندقية وروما لـم تتحـرّرا بعد. كانت لـه رؤى كبيـرة حـول مستقبل إيطاليـا وأوروبا. كان يحلم بغزو أجنبيّ، ويسـأل عـن مصيـر قطـع الجيـش والضبـاط. كان يعانـي من أجلنا؛ من أجل شـعبه. لم يكن يتألّم لأنه سـيموت، بل لأنّه سـيغيب عن وطنه الذي لا يزال بحاجة إليه، والذي اسـتهلك من أجله في سـنين قليلة القوى الهائلة الضخمة التي يتمتّع بها جسـمه الخـارق. مـات والهتاف للوطن فـي حنجرته، فكان عظيما في موته كما كان عظيما في حياته. فكّر الآن يا أنريكو: ما وزن هذا العمل الذي نرى أنّه يثقل

كاهلنا؟ ما وزن آلامنا؟ بل ما وزن موتنا بالذات مقابل وزن الجهود والمشاقّ الهائلة والاحتضارات الفظيعة التي يعانيها أولئك الرجال الذين يثقل العالم فوق قلوبهم!؟ فكّر بهذا يا بنيّ عندما تمرّ أمام تلك الصور الرخاميّة، وخاطبها بقولك لها: "المجد! المجد في قلبك".

أبوك

نيسان/أبريل

الربيع

السبت 1

الأول من نيسان! لا يتبقّى إلاّ ثلاثة شهور أخرى. كان هذا الصباح من أجمل أيام السنة. كنت مسرورا هذا الصباح في المدرسة؛ لأنّ كوريتّي قال لي إننا سنذهب بعد الغد برفقة أبيه لمشاهدة قدوم الملك الذي يعرفه، ولأنّ أمّي وعدتني بأخذي في اليوم نفسه لزيارة دار الحضانة في شارع فالدوكّو. كنت مسرورا أيضا لما عرفته عن تحسّن صحة المعماريّ الصغير، ولأنّ الأستاذ قال مساء البارحة لأبي عندما مرّ قربه: "جيّد، جيّد". ثم إنّه كان صباحا ربيعيّا جميلا. كانت تظهر من النوافذ السماء الزرقاء، وأشجار الحديقة المسربلة بالبراعم، ونوافذ الجيران المشرّعة وعلى حوافّها الأصص المخضرّة. لم يكن الأستاذ يضحك؛ لأنّه لا يضحك أبدا، لكنّه كان حسن المزاج بشكل لم تظهر معه تلك العقدة التي ترتسم دائما في منتصف جبهته؛ بل كان يحلّ المسألة على السبّورة بروح من الدعابة. وبدا أنّه يتنعّم بشمّ نسيم الحديقة العليل القادم عبر النوافذ المفتوحة والمفعم بروائح التراب والأوراق التي تذكّر المرء بالنزهات في الريف. كان يشرح بينما كنّا نسمع من الشارع القريب صوت الحدّاد وهو يطرق على السندان، وكانت هناك امرأة في البيت المقابل تغنّي لابنها حتّى ينام، كما سُمع صوت الأبواق من ثكنة شيرنايا البعيدة. بدا الجميع مسرورين؛ حتّى ستاردي. فجأة، توقّف الحدّاد عن الطرق القويّ، والمرأة عن الغناء بصوت مرتفع، وتوقّف الأستاذ عن إلقاء الدرس وأصغى السمع. ثم قال ببطء وهو ينظر عبر النافذة: "السماء التي تبتسم، والمرأة التي تغنّي، والسيّد الشريف الذي يعمل، والفتية الذين يدرسون... كلّها أمور جميلة". عندما خرجنا من الصفّ، وجدنا أنّ

الآخرين كانوا مرحين أيضا ومسـرورين. كانوا يسـيرون مصطفّين وهم يضربون الأرض بأقدامهم ويغنّون كما لو أنّهم في مستهلّ عطلة طويلة، وكانت المعلّمات يتمازحن، وتلك ذات الريشة الحمراء تجري وراء الأطفال وكأنّها تلميذة صغيرة، وكان أقرباء الطلبة يتحادثون في ما بينهم ويضحكون، وجاءت أمّ كروسّي، بائعة الخضار، بسلال مترعة بباقات البنفسج التي ملأت عطورها الصالة الكبيرة. ولم أشعر أنا البتّة بالسرور كما شعرت به هذا الصباح عندما رأيت أمّي تنتظرني في الشارع. حتّى إنّي قلت لها: "إنّي مسرور. ما الذي حمل إليّ كل هذا السرور في هذا الصباح؟". فأجابتني أمّي: "إنّه الربيع الجميل وضميرك المرتاح".

الملك أومبرتو[1]

الاثنين 3

في تمام العاشرة، رأى أبي من النافذة كوريتّي بائع الحطب مع ابنه وهما ينتظرانني في الساحة فقال لي: "ها هما يا أنريكو. اذهب لرؤية مليكك".

جريت مسرعا كالصاروخ. كان الأب وابنه مفعمين بالحيويّة أكثر من العادة، ولم يبد لي أنّهما متشابهان بالفعل كما ظهرا هذا الصباح. تقلّد الأب ميدالية الاستحقاق التي حاز عليها، ووضعها بين وسامين تذكاريّين على صدره، وكان شاربه الأجعد مسنّن الطرفين مثل الدبّوس.

بدأنا بالسير نحو محطة السكّة الحديديّة؛ حيث كان من المتوقّع أن يصل الملك في العاشرة والنصف. كان كوريتّي الأب يدخّن الغليون ويفرك يديه. ثمّ قال: "هل تعلمان أنّي لم أره منذ حرب الستة والستّين[2]؟ عبثٌ دام خمس عشرة سنة وستة أشهر. في البداية، ثلاث سنوات في فرنسا، ثم في موندوفي، ثمّ هنا حيث كان بوسعي أن أراه. لكن، لم يحدث أبدا أن

---

(1) اومبرتو الأوّل 1844-1900 حكم ملكا لإيطاليا بين 1878-1900، وهو ابن الملك فيكتور عمانوئيل أول ملك لإيطاليا. اشتهر بمشاركته الشخصية في مكافحة وباء الملاريا الذي انتشر عام 1884 في نابولي، وكذلك بإلغائه عقوبة الإعدام. تعرّض لعدة محاولات اغتيال نجحت آخرها على يد الفوضويين.

(2) هي أوّل حرب تخوضها مملكة إيطاليا الناشئة ضد إمبراطورية النمسا، جرت عام 1866.

كنت في البلد عندما كان يزورها، لم تحدث تلك المصادفة".

كان يدعو الملك باسمه؛ اومبرتو، كما لو أنّه رفيقه. اومبرتو قاد القطعة السادسة عشرة، أصبح عمر اومبرتو اثنتين وعشرين سنة وبضعة أيام، اومبرتو يعتلي الفرس هكذا وهكذا...

ثمّ قال بصوت مرتفع وهو يسرّع خطاه: "إنّي بحاجة لأن أراه بالفعل. تركته أميرا وسأجده ملكا. أنا تطوّرت أيضا، كنت جنديّا وأصبحت بائع حطب". ثمّ ضحك.

سأله ابنه: "هل سيعرفك إذا رآك؟". فما كان منه إلا أن انفجر في الضحك. ثمّ أجاب: "هذا ما ينقصنا. كان اومبرتو واحدا فقط، بينما كنّا كثيرين كالذباب. فكيف له أن ينظر إلينا فردا فردا".

انعطفنا نحو شارع فيتّوريو إيمانويلي، كان فيه ناس كثيرون يتوجّهون نحو المحطّة. مرّت أيضا فرقة جيش جبال الألب بالأبواق، ومرّ اثنان من سلاح الكارابينيري[1] على حصانين يعدوان. كان صفاء الطقس يخلب الألباب.

ثمّ أردف كوريتّي الأب متحمّسا: "أجل، إنّه بالفعل من دواعي سروري أن أراه ثانية. كان قائد القطعة التي خدمت فيها. آه، لكنّي شخت سريعا! يبدو لي أنّ أيّاما قليلة فقط انقضت عليّ منذ أن كنت أحمل الحقيبة على كتفيّ والبندقيّة بين يديّ وسط ذلك الهيجان صباح الرابع والعشرين من حزيران/ يونيو. وكنّا قاب قوسين من الالتحام. كان اومبرتو يتحرك ذهابا وإيابا مع ضبّاطه، وسط قصف المدافع البعيد. كان الجميع ينظرون إليه ويقولون: ألاّ تصيبه هو الآخر طلقة ما! كنت بعيدا جدا عن التفكير بأني سأجد نفسي بعد قليل على مسافة قريبة جدا منه، أمام رماح الفرسان النمساويين. كان الواحد منّا يا بنيّ على بعد أربع خطوات تماما من الآخر. كان يوما جميلا، السماء ناصعة مثل المرآة، لكنّ الحرّ كان شديدا! فلنر الآن إذا كان بوسعنا أن ندخل".

كنّا قد وصلنا إلى المحطّة، وكان الجمع غفيرا. كانت هناك عربات، وحرس، كارابينييري، جمعيّات مع أعلامها. وكانت الفرقة الموسيقيّة لإحدى

---

(1) راجع الهامش رقم 9.

القطعـات تعـزف. حـاول كوريتّـي الأب أن يدخـل مـن تحت الأقـواس، لكنّهم منعـوه. فكّـر عندئـذ أن يقتحم صـفّ الجمهور الأوّل بجوار المدخل، وقد أفلح في إقحامنا نحن الاثنين أيضا بعد أن شقّ طريقهُ بضربات كوعيه. لكنّ الجمهور كان يتمـاوج ويقذفنـا هنـا وهنـاك. نظـر بائـع الحطب نحو العمـود الأوّل حيث كان الحـرس يمنعـون النـاس مـن الوقـوف هناك، ثمّ قال لنا فجأة وهو يسـحبنا مـن يدينـا: "تعاليـا معـي". ثمّ عبر بقفزتين المكان الفـارغ، وذهب لينغرس هناك وظهره للجدار.

في الحال، هرع لواء شرطة وقال له:

"لا يمكن الوقوف هنا".

فأجاب كوريتّي وهو يلمس الميدالية: "إنّي من الكتيبة الرابعة في الـ49".

فنظر إليه اللواء وقال: "ابقَ".

هتف كوريتّي عندها منتصرا: "أما قلت لكما!؟ الرابعة من التاسعة والأربعين عبـارة سـحريّة! أليـس مـن حقّـي أن أرى قائدي على راحتي، أنـا الذي خدمت فـي الكتيبـة! لقـد رأيتـه عن قرب آنذاك، ويحقّ لي أن أراه عن قرب الآن. أقول "جنرال"! لأنّه كان قائد قطعتي خلال نصف ساعة كاملة، لأنّه هو الذي كان يقود القطعة وقتئذ. كان وسط المعركة، وليس العقيد اوبريش".

فـي هـذه الأثنـاء، كان يشـاهد فـي قاعـة الوصـول وخارجهـا خليـطٌ هائل من السـادة والضبّاط. وأمام الباب اصطفّت العربات، وقربها الخدم بملابسـهم الحمراء.

سـأل كوريتّـي أبـاه عمّـا إذا كان الأمير اومبرتو يحمل سـيفه في يده عندما كان في القطعة.

أجـاب: "لا بـد أنـه كان يحمـل السـيف في يـده. كان يجـب أن يدفع عنه السّهام التي يمكن أن تصيبه مثل غيره. آه! كانوا كالمجانين الذين تخلصوا من قيودهم! انهالوا علينا بقسوة، هاجمونا. كانوا يتجوّلون بين المجموعات والقطع والمدافع كأنّ إعصارا قذفهم ليحطّموا كل شـيء في طريقهم. واختلط فرسـان آليسّاندريا برماة فودجا بالمدفعيّة بفرسان النمسا بالقنّاصة، ولم يكن أيّ شخص

يستوعب شيئا. سمعت من يصرخ: صاحب السموّ، صاحب السموّ! ثمّ رأيت السهام تنهمر. فرّغنا البنادق، وغطّت سحابة من الغبار كلّ شيء... وعندما انقشع الغبار، ظهرت الأرض مغطّاة بالأحصنة الميتة والفرسان النمساويين الموتى. التفتّ ورائي فرأيت بيننا اومبرتو على حصانه يتأمّل المشهد حوله هادئا كأنّه يتساءل: هل هناك خُدش بين شبابي؟ فهتفنا كالمجانين في وجهه: عاش! يا إلهي، أيّ لحظة!... ها هو القطار قد وصل".

عزفت الفرقة، فهرع الضبّاط، ووقفت الحشود على رؤوس الأقدام.

قال واحد من الحرس: "إنّه لن يخرج مباشرة، لا بد أن يستمع لأحاديثهم".

خرج كوريتّي الأب عن طوره وهو يقول: "آه، عندما أفكّر بالأمر، فأنا أراه دائما هناك أمامي. كان هناك بالطبع كوليرا وزلازل وغيرها الكثير، لكنّه كان قادرا على المضيّ قدما وسط كلّ ذلك؛ أفلح حتّى في هذا؛ لكنّ صورته بقيت ماثلة في ذهني كما رأيته في ذلك الحين؛ منتصبا بيننا بوجهه الهادئ المطمئنّ. أنا متأكّد أنّه ما زال يذكر القطعة 49، حتّى الآن وقد أصبح ملكا، وأنا متأكّد كذلك أنه سيسرّ إذا اجتمعنا مرّة إلى مائدته؛ كلّنا، كلّ من كان حوله في تلك اللحظات. إنّ حوله الآن جنرالات وسادة عظاما وحاشية القصر، أمّا وقتها فلم يكن حوله إلاّ جنود مساكين. جنرالنا ذو السنوات الاثنتين والعشرين وأميرنا الذي كان تحت حماية بنادقنا... لم أره منذ خمس عشرة سنة... اومبرتو الغالي. آه، أقسم بشرفي إنّ هذه الموسيقى تغلي الدم في عروقي".

قاطعته الصرخات التي انفجرت عالية، ثمّ رأينا آلاف القبّعات ترتفع في الهواء، وصعد أربعة رجال بملابس سوداء إلى عربة المقدّمة.

"هو! إنّه هو!". صاح كوريتّي وكأنّ سحرا مسّه.

ثمّ قال بصوت خافت: "يا الله، لقد شاب بالفعل!". رفعنا نحن الثلاثة قبّعاتنا، ورأينا العربة تتقدّم ببطء وسط حشود تهتف وتلوّح بالقبّعات. نظرت إلى كوريتّي الأب، فبدا لي وكأنه صار أطول، وأكثر جدّية، وباهت الوجه، وهو منتصب القامة ومتعلّق بالعمود.

وصلت العربة أمامنا؛ على بعد خطوة من العمود.

"عاش عاش!". هتفت أصوات كثيرة. ثمّ هتف كوريتّي الأب بعدهم: "عاش عاش!".

نظر إليه الملك هنيهة، وثبّت نظره على ميدالياته.

فقد كوريتّي الأب عندها رشده وصاح: "القطعة الرابعة من التاسعة والأربعين!".

كان الملك ينظر إلى الجهة الأخرى، فالتفت نحونا، وحدّق بعيني كوريتّي، ثمّ مدّ يده خارج العربة.

قفز كوريتّي إلى الأمام وشدّ عليها. مرّت العربة، فاندفع الجمهور وأبعدنا، وضاع عنّا كوريتّي الأب. لكن، للحظة؛ إذ رأيناه مرّة أخرى وهو يلهث، وعيناه رطبتان بالدموع، وهو ينادي ابنه باسمه رافعا يده. وعندما اندفع الابن نحوه صاح: "إليّ يا صغيري، فما زالت يدي ساخنة!". مسح بيده وجه الفتى قائلا: "هذه من رائحة الملك".

ثمّ مكث هناك كالحالم، وعيناه تحدّقان بالعربة البعيدة مبتسما، وفي يده الغليون. أحاطت به مجموعة من الفضوليين الذين كانوا ينظرون إليه ويقولون: "إنّه من جنود القطعة الرابعة من التاسعة والأربعين". "إنه جنديّ يعرف الملك". "لقد عرفه الملك. الملك هو الذي مدّ يده". وقال أحدهم بصوت مرتفع: "لقد تقدّم بطلب للملك".

فالتفت كوريتّي الأب وأجاب بحدّة: "لا، لم أتقدّم بأيّ طلب أبدا. لكنّي على استعداد لأن أقدّم له أمرا آخر لو طلبه منّي".

نظر إليه الجميع.

فقال ببساطة: "دمي".

t.me/t_pdf

t.me/book4kid

دار الحضانة

الثلاثاء 4

وفت أمّي بوعدها وأخذتني معها البارحة بعد الفطور إلى دار الحضانة في شارع فالدوكّو، وذلك لتوصي المديرة بأخت بريكوسّي الصغيرة. لم أر من قبل دار حضانة. إنهم مسلّون. كان هناك حوالى مائتي طفل وطفلة، وكانوا صغارا إلى درجة يبدو فيها طلاب الأول الابتدائي رجالا أمامهم. وصلنا عندما كانوا مصطفّين ليدخلوا المطعم، حيث امتدت طاولتان طويلتان فيهما ثقوب مستديرة وُضع في كلّ ثقب منها وعاءٌ مليء بالأرز والفاصولياء، وإلى جانبه ملعقةٌ من القصدير. كان بعضهم يضطرب عند الدخول فيجلس على الأرض حتى تصل المعلّمة وترفعه. الكثيرون كانوا يتوقّفون عند بعض أوعية الطعام ظنا منهم أنهم في أماكنهم، ويبتلعون بسرعة ملعقة طعام منها، لكنّ المعلّمة تصل بسرعة وتصيح بهم: "هيّا، تقدّموا!". فيتقدّمون بضع خطوات، ثم يقفون ليتناولوا ملعقة أخرى، ثمّ هيّا أخرى وأخرى إلى أن يصل كلٌّ إلى مكانه بعد أن يكون قد ابتلع نصف وعاء. في النهاية، وبعد شدّ وجذب وصيحات: "أسرعوا! أسرعوا!". انتظم الجميع وبدأوا بالدعاء. لكنّ الذين كانوا في الصفوف الداخليّة وكان عليهم أن يديروا ظهورهم للطعام لكي يدعوا، كانوا يلوون رؤوسهم إلى الوراء كي يراقبوا أوعيتهم، ويتأكدوا ألاّ يقترب منها أحد، وكانوا يتضرّعون وعيونهم مرفوعة إلى السماء لكن قلوبهم معلقة بالطعام، ثمّ بدأوا بالأكل. ما أجمل ذلك المنظر! أحدهم كان يأكل بملعقتين، فيما آخر يلتهم بيديه، الكثيرون منهم كانوا يلتقطون حبّات الفاصولياء ويدسّونها في جيوبهم، وآخرون كانوا يضعونها في المريول ويعصرونه ثمّ يدقّونها ليطحنوها. وكان بينهم من انقطع عن تناول الطعام ليتفرّج على الذباب وهو يطير، وآخرون كانوا يسعلون فينشرون مطرا من الأرز حولهم.

كان المـكان يبـدو مثـل قـنّ الدجاج. لكنّ الجوّ حلو لطيـف. خاصّة وأنّ صفّي الطفلات يقدّمان صورة جميلة تزيّنها الأشرطة التي تجمع الشعر إلى تاج الرأس بألوانها الزاهية الحمراء والخضراء والزرقاء. سـألت إحدى المعلّمات مجموعة من ثماني طفلات: "أين ينمو الأرز؟". ففغرت الفتيات الثماني أفواههن الملأى بالحسـاء وأجبـن معـا بلهجـة الغناء: "ينـ... مـ... ـو فـ... ـي الـ... مـ... ـاء". فأمرتهنّ المعلّمة: "ارفعن الأيدي". كانت رؤية تلك الأيدي الصغيرة وهي تنطلق إلى الأعلى فوق أذرعهنّ الدقيقة التي كانت قبل شـهور قليلة مخبّأة في لفائف الرضّـع أمـرا رائعـا، وكانـت أيديهـنّ الصغيرة تظهر وهي تلوّح وكأنها فراشـات صغيرة بيضاء ومورّدة اللون. ذهب الجميع بعدها إلى الاستراحة، لكنّهم أخذوا معهم أوّلا سلال الفطور التي كانت معلّقة على الجدران. خرجوا إلى الحديقة وتبعثـروا فيهـا، ثـمّ أخرجـوا زوّاداتهـم من خبـز وبرقوق مسـلوق وقطع الجبن والبيض المسـلوق والتفاح الصغير بل وحفنات من الحمّص المسـلوق وأجنحة الدجـاج. لحظـات وامتـلأت الحديقـة بالفتات كما لـو أنّ أحدهم قد نثر البذور لسـرب عصافيـر. كانـوا يأكلـون بأغـرب الطرائـق؛ كما لو أنّهم أرانـب أو فئران أو قطـط، قضمـا ولحسـا ومصّـا. كان هنـاك طفل سـند إلى صـدره قطعة طويلة مـن الكعـك ورفعهـا إلـى الأعلى ثمّ بدأ يفركها بحبّة مشـمش هنديّ كما لو أنّه يلمّع سـيفا. وكانت هناك طفلات يضغطن في راحات أيديهنّ قطع جبن طريّ بدأت تنقط من بين أصابعهنّ كالحليب، وتسـيل داخل أكمامهنّ، وهنّ غافلات عـن الأمـر كلّـه. كان الأولاد يجرون ويتلاحقون وبقايا التفاح والخبز معلقة بين أسـنانهم كالكلاب. رأيت ثلاثة منهم يحفرون بغُصيْن شـجرة بيضة مسـلوقة ظنا منهم أنّهم يكتشفون كنزا، وبعد أن رموا نصف البيضة على الأرض عادوا ليلمّوها بصبر وأناة قطعة قطعة كما لو أنّهم يلمّون اللآلئ. أما الذين جاءوا بشيء ثمين فقـد التـفّ حولهـم ثمانية أو عشـرة أولاد وهم ينظرون ورؤوسـهم منحنية نحو الأسفل كما لو أنّهم يرون القمر في قاع البئر. واجتمع عشرون تقريبا حول قزم صغير كان يحمل في يده علبة حلوى، كانوا يحتفلون به ويتقربون منه ليسـمح لهـم بدهـن خبزهم، وكان هو يسـمح للبعـض بذلك، بينما لم يقبل وبعد الكثير

من الإلحاح إلاّ بتقديم إصبعه ليلحسها الآخرون.

في هذه الأثناء، وصلت أمّي إلى الحديقة، وبدأت بمداعبة هذا مرّة وذاك مرّة أخرى. حام الكثيرون حولها، بل عليها، ليطلبوا منها قبلة ووجوههم مرفوعة إلى الأعلى كما لو أنّهم ينظرون إلى الدور الثالث من عمارة، وكانوا يفتحون أفواههم ويغلقونها كما يفعلون عندما يريدون الرضاعة. قدّم لها أحدهم حزّ برتقال مهروسا، وقدّم آخر قطعة خبز، وقدّمت طفلة ورقة شجر، وعرضت أخرى بجديّة كبيرة طرف إصبعها الذي لا بد من إمعان النظر فيه حتى يتمكن المرء من رؤية انتفاخٍ دقيق جدّا ظهر قبل يوم بسبب لمس لهب الشمعة. كانوا يضعون تحت عينيها الحشرات الدقيقة وكأنها أعاجيب كبيرة، ولا أعرف بالفعل كيف يتمكّنون من رؤيتها ومن جمعها، وكذلك أنصاف أغطية الفلّين، وأزرار القمصان وزهورا منزوعة من الأصص. أراد منها طفلٌ برأس معصوب أن تسمعه مهما كان الثمن، تمتم وأخبرها بقصّة وقعةٍ لم تفهم منها ولا كلمة واحدة. واحد آخر أراد أن تنحني أمّي ثمّ قال لها في أذنها: "أبي يصنع الفراشي". هذا بينما كانت تقع هنا وهناك مصائب كثيرة جرت بسببها المعلّمات ورأين طفلات يبكين لأنّهن لم يتمكّنّ من فكّ عقدة في المنديل، وأخريات يخدشن بعضهن بأظافرهنّ ويصحن من أجل بذرتي تفّاح، وهناك طفلٌ وقع على رأسه فوق مقعد مقلوب، وكان يجهش في البكاء لأنه لم يتمكّن من النهوض.

أخذت أمّي قبل أن تترك المدرسة بذراع ثلاثة أو أربعة، فهرع الأولاد من كلّ جانب نحوها لتمسكهم هم أيضا، وكانت وجوههم مصبوغة بصفار البيض وبعصير البرتقال، فهناك من أمسك بيدها، ومن تناول إصبعها ليشاهد الخاتم، ومن سحب سلسلة الساعة، ومن حاول التمسّك بجدائل شعرها. فقالت لها المعلّمات: "حذارِ، قد يمزّقون ثيابك". لكنّ أمّي لم تهتمّ بثيابها، فواصلت تقبيلهم وواصلوا التعلّق بها، أوّلهم تعلّق بها بذراعه كما لو أنّه يريد التسلّق عليها، وآخرهم يريد أن يتقدّم على الجمع، والكلّ يصيح: "وداعا! وداعا! وداعا!". أخيرا، استطاعت مغادرة الحديقة. فهرعوا كلّهم ليضعوا وجوههم بين حديد البوّابة ليشاهدوها وهي تغادر، ومرّروا أيديهم خارج الحديد ليحيّوها وهم

يقدّمون لها قطع الخبز ولقم المشمش الهندي وشرائح الجبن وهم يصيحون معا: "وداعا! وداعا! وداعا! عودي غدا! عودي مرّة أخرى!". قامت أمّي وهي تهرب بتمرير يدها على عشرات الأيدي الصغيرة الممتدّة وكأنّها تمرّرها على باقة من الزهور الحيّة، ثم تمكّنت من الوصول سليمة إلى الشارع وقد غطّتها القشور والبقع وتجعّدت ثيابها وتلوّثت، في يدها الورود وفي عينيها الدموع، لكنّها كانت مسرورة كما لو أنّها خرجت من حفلة. وكان الهدير من المدرسة يسمع شبيها بسجع زقزقة العصافير. وكانوا يصرخون: "وداعا! وداعا! عودي مرّة أخرى يا سيّدة!".

في الرياضة

الأربعاء 5

ما زال الطقس جميلا، لذلك نقلوا درس الرياضة من الصالة الكبيرة إلى صالة الأجهزة في الحديقة. كان غاروني مساء البارحة في مكتب المدير عندما جاءت أمّ نيلّلي؛ تلك السيّدة الشقراء بملابس سوداء، لتطلب إعفاء ابنها من التمارين الجديدة. كانت تجد صعوبة بالغة في الكلام، وكانت تتكلم ويدها على رأس ابنها. قالت للمدير: "إنّه لا يستطيع... مع أنّ نيللي بدا حزينا لأنه سيعفى من تمارين الأجهزة ولأنه يتلقّى هذه الإهانة الجديدة". لذلك قال: "سترين يا أمّي، سأفعل مثل الآخرين". لكنّ أمّه نظرت إليه نظرة مفعمة بالعطف والشفقة، ثمّ تابعت: "أخشى عليه من زملائه". وكانت تعني أنّها تخشى أن يسخروا منه. لكنّ نيلّلي أجاب: "هذا لا يهمّني في شيء... كما أنّ غاروني موجود. يكفيني أن لا يضحك هو". عندها تركاه يعود. أخذَنا الأستاذ المجروح على عنقه، والذي قاتل مع غاريبالدي، إلى القضبان العموديّة العالية جدّا، والتي كان علينا أن نتسلّقها حتّى القمّة، وأن نستلقي مستقيمين على العارضة. صعد كلّ من ديروسّي وكوريتّي مثل القرود، صعد بريكوسّي الصغير بسرعة أيضا رغم أنّ سترته الفضفاضة التي كانت تصل إلى ركبتيه أعاقت صعوده. حاول الجميع إضحاكه وهو يصعد بأن ردّدوا لازمته: "عفوا! عفوا!". أمّا ستاردي فكان ينفخ وقد احمّر وجهه كالديك الروميّ، وكان يصكّ أسنانه فبدا وكأنّه كلب مسعور، لكنّه كان على استعداد لأن ينفجر مقابل بلوغه القمّة، وقد بلغها بالفعل، بلغها نوبيس أيضا ووقف عندما وصل وقفة الأباطرة، لكنّ فوتيني تراجع مرّتين رغم ملابسه الجديدة الجميلة المخطّطة بالأزرق والمخصّصة للرياضة. سعى الجميع لتسهيل عمليّة الصعود بأن دهنوا أيديهم بالقارّ اليوناني المسمّى صمغ الحبال، ومن المعروف أن غاروفّي ذلك المحتال هو الذي جاء بها على شكل بودرة وبدأ يبيعها بالعلب ليربح بها ربحا كبيرا. ثمّ جاء دور غاروني فصعد وهو يعلك الخبز كأنّه غير مهتمّ بالأمر كلّه،

وأظـنّ أنـه كان قـادرا علـى حمل أحدنا على كتفه، فقد كان ذلك الثور الضخم قويّا. بعـد غارونـي جاء دور نيلّلي. ما إن شـاهدوه وهو يمسـك بالقضبـان بيديه الطويلتين النحيفتيـن حتـى بـدأ الكثير منهم يضحكون ويسـخرون. لكـنّ غاروني صالب ذراعيه الضخمتيـن علـى صـدره، وألقى حوله نظرة معبّـرة أفهمت الجميع وبكلّ وضوح أنّه مستعدّ لتوجيه ما يكفي من اللكمات؛ حتّى بحضور الأستاذ. وبهذا انقطع الجميع في الحال عن الضحك. بدأ نيلّلي بالتسلّق، وأجهد المسكين نفسه؛ فاحمرّ وجهه وضاق نَفَسُه وتقاطر العرق من جبهته. فقال الأستاذ: "انزل". لكنّه لم يقبل، بل واصل جهوده بعناد خارق، وكنت أنا أنتظر أن أراه يتدحرج بين لحظة وأخرى، وأن يسـقط نصف ميـت. يـا لنيلّـلي المسـكين! فكّـرت أنّـي لو كنت مثلـه، فكم يا ترى سـتتألم أمّي إذا رأتني، أمّي المسكينة؟ فكّرت بهذا أنا الذي أحبّ نيلّلي حبّا شديدا، وكنت لا أدري مـاذا أقـدّم كـي أتمكّـن مـن دفعه من تحت وهو يصعد مـن دون أن يلحظ هذا أحد. بينما كان غاروني وديروسّي وكوريتّي يقولان: "هيّا، هيّا، تشجّع يا نيلّلي، لم يبق إلاّ القليل، تشـجّع!". قام نيلّلي بجهد آخر عنيف، وأسـند كوعه فصار قاب قوسـين من المحور. وهتف آخرون: "رائع! تشـجّع! دفعة أخرى!". أخيرا أمسـك نيلّلي بالمحور. صفّق الجميع. وقال الأستاذ: "رائع! هذا يكفي، انزل". لكنّ نيلّلي أراد أن يبلغ القمّة مثـل غيـره. وبشـقّ النفس تمكّن مـن وضع كوعيه على المحور ثـمّ ركبتيه ثمّ قدميه ثمّ انتصب قائما ثمّ نظر إلينا وهو يلهث مبتسـما. صفّقنا مرّة أخرى فأدار نظره نحو الشارع. التفتّ إلى تلك الجهة فرأيت عبر النباتات التي تغطّي بوّابة الحديقة أمّه التي كانت تتمشّى على الرصيف، من دون أن تجرؤ على النظر نحونا. نزل نيلّلي فاحتفل به الجميع. كان متأثّرا، وتورّد وجهه، وجحظت عيناه، وتغيّر منظره. عند الانصراف جاءت أمّه وسألته وهي تعانقه مضطربة: "حسنا يا بنيّ المسكين، كيف سارت الأمور؟ مـا هـي النتيجـة؟". فأجاب كلّ رفاقه معا: "لقـد أبدع وصعد مثلنا جميعا". "إنّه قويّ. إنّه سريع. صنع هذا وذاك مثل الآخرين". كان لا بد من رؤية معالم الفرح على وجه تلك السـيّدة! أرادت أن تشـكرنا لكنّها لم تتمكّن من ذلك، فشـدّت على أيدي ثلاثة أو أربعة منّا، وداعبت وجنة غاروني، ثمّ أخذت ابنها ورأيناهما يسيران بسرعة وهما يتحادثان ويحرّكان أيديهما وكلاهما مسروران كما لم يرهما أحدٌ من قبل.

أستاذ أبي

الثلاثاء 11

ما أجمل الرحلة التي قمت بها أمس مع أبي! هذه قصّتها. قبل البارحة، كان أبي يقرأ صحيفته على العشاء عندما بدت عليه علامات دهشة مفاجئة، ثمّ قال: "كنت أظنّه ميتا منذ عشرين سنة! هل تعلمون أنّ أوّل أستاذ لي في الابتدائيّة فينشينزو كروسيتّي ما زال حيّا، وأنّ عمره أصبح الآن أربعا وثمانين سنة؟ إنّي أقرأ هنا أنّ الوزير قلّده وسام الاستحقاق لستّين سنة قضاها في التعليم. سـ... تّـ... ـو... ن سـ... نـ... ـة، هل تفهون؟! لم ينقطع عن التدريس إلا قبل سنتين. يا كروسيتّي المسكين! إنّه يسكن على مبعدة ساعة قطار من هنا، في كوندوفي، في بلد العاملة التي كانت تعمل في حديقتنا في فيلا كييري". ثمّ أضاف: "أنريكو، سنذهب لزيارته". ولم يتكلّم طيلة الأمسية إلاّ عنه. كان اسم أستاذه في الابتدائيّة يعيد إلى ذهنه آلاف الذكريات عن صباه، وعن رفاقه الأوائل، وعن أمّه الميتة. وصاح: "كان عمر كروسيتّي أربعين سنة عندما كنت معه. يبدو لي أنّه واقف أمامي الآن. كان رجلا منحني الظهر وقتها، وحليق الذقن على الدوام، ولون عينيه واضحا. كان قاسيا لكنّه لطيف السلوك، وكان يحبّنا مثل الأب لكنّه لم يكن يغفر أيّ خطيئة. كان فلاّحا واستطاع التقدّم في عمله بالمثابرة على الدراسة وبالحرمان. كان رجلا شهما. تعلّقت به أمّي وعامله أبي معاملة الأصدقاء. كيف انتهى به الأمر من كوندوفا إلى تورينو؟ من المؤكد أنّه لن يعرفني الآن. لا يهمّ، سأعرفه أنا. أربع وأربعون سنة انقضت كلّها. أربع وأربعون سنة، سنذهب غدا يا أنريكو لزيارته".

في التاسعة من صباح البارحة كنّا في محطّة قطارات سوسا. كان بودّي أن يكون غاروني معنا، لكنّه لم يتمكّن لأنّ أمّه مريضة. كان يوما ربيعيّا جميلا.

وكان القطار يجري بين السهول الخضراء والأسيجة المزهرة والروائح العطرة تفوح. كان أبي مسرورا، وكان من حين لآخر يعانقني بذراعه ويحادثني كصديق قديم. قال: "يا لكروسيتّي المسكين! كان أولّ رجل بعد أبي أحبّني وأسدى إليّ معروفا. لن أنسى البتّة نصائحه الطيبة ولا بعض توبيخه القاسي الذي كان يجعلني أعود إلى البيت بحنجرة جافّة. كانت يداه ضخمتين قصيرتين، وما زلت أذكر طريقته المعهودة عندما يصل إلى المدرسة. كان يضع دائما عصاه جانبا، ثمّ يذهب ليعلّق معطفه على الشمّاعة. كان في كلّ الأيام يعبّر عن المزاج نفسه، ويتصرّف بوحي من ضميره ونواياه الحسنة، وينتبه للصغيرة والكبيرة كما لو أنّه يبدأ مهنة التعليم كلّ يوم للمرّة الأولى. أذكر كما لو أنّي أسمعه الآن يصرخ:

- بوتّيني، هيه بوتّيني! ضع السبّابة والوسطى على ذلك القلم! لا بد أنّه تغيّر جدّا الآن، بعد أربع وأربعين سنة.

ما إن وصلنا إلى كوندوفا حتى ذهبنا لنبحث عن عاملة الحدائق في كييري التي كانت تملك دكّانا صغيرا في طرف الحيّ. وجدناها مع أولادها فاحتفت بنا وأخبرتنا عن زوجها الذي سيعود من اليونان حيث كان يعمل منذ ثلاث سنين وعن ابنتها في معهد تورينو للصمّ البكم. ثمّ دلّتنا على طريق بيت الأستاذ الذي يعرفه الجميع.

خرجنا من البلدة وتسلّقنا دربا تحيط به الأسيجة المزهرة.

انقطع أبي عن الحديث، وكان يبدو مستغرقا في ذكرياته؛ حتّى إنّه كان يبتسم ويهزّ رأسه من حين لآخر.

فجأة توقّف وقال: "ها هو. أراهن أنّه هو".

كان قادما على الدرب باتّجاهنا، عجوز صغير الجسم، أبيض اللحية، يعتمر قبّعة عريضة ويستند إلى عكّاز، وهو يجرجر خطاه وترتعش يداه.

كرّر أبي وهو يحثّ الخطى: "إنّه هو".

عندما وصلنا قربه توقّفنا، فتوقّف العجوز أيضا ونظر إلى أبي. ما زال وجهه نضرا وعيناه واضحتي الألوان ويقظتان.

سأله أبي وهو يرفع قبّعته: "هل أنت الأستاذ فينشنزو كروسيتّي؟".

أجاب العجوز بصوت مرتعش بعض الشيء لكنّه واضح، وقد رفع قبّعته أيضا: "نعم، هذا أنا".

أردف أبي قائلا وهو يمسك بيده: "إذا، اسمح لطالبٍ قديم من طلاّبك أن يشدّ على يدك ويسألك كيف الحال؟ لقد جئت من تورينو كي أراك".

رمقه العجوز بنظرة دهشة، ثم قال: "هذا يشرّفني جدّا.. لا أدري... متى كنت تلميذي؟ العفو! ما هو اسمك رجاء؟".

أخبره أبي باسمه، ألبرتو بوتّيني، وبالسنة التي كان فيها في المدرسة معه، وأين كانت المدرسة، ثمّ أضاف: "قد لا تذكرني، وهذا طبيعيّ، لكنّي أذكرك على وجه الدقّة".

طأطأ الأستاذ رأسه ونظر إلى الأرض وهو يفكّر، ثمّ لفظ اسم أبي مرّتين أو ثلاث مرّات، وأبي يحدّق فيه بنظرات ثابتة بسّامة.

رفع العجوز رأسه فجأة، ووسّع عينيه ثمّ قال بتؤدة: "ألبرتو بوتّيني؟ ابن المهندس بوتّيني؟ الذي كنت في ساحة كونسولاتا؟".

فأجاب أبي وهو يمدّ يديه: "أجل".

فقال العجوز: "اسمح لي إذا، اسمح لي أيها السيّد الغالي... ثمّ تقدّم وعانق أبي". لم يبلغ رأسه الأبيض كتف أبي، فأسند أبي وجنته على جبهته.

قال الأستاذ: "تفضّل وتعال معي".

ثمّ التفت من دون أن يتكلّم ومشى الهوينا نحو بيته. وصلنا خلال دقائق إلى فناءٍ أمام بيت صغير له بابان يوجد حول أحدهما جدار صغير أبيض اللون.

فتح الأستاذ الباب الثاني، وأدخلنا غرفة لها أربعة جدران بيضاء، نُصب في زاويتها سريرٌ على دعائم، وعليه غطاءٌ بمربّعات ملوّنة بالأبيض والأزرق الفيروزي. توجد في زاوية أخرى طاولة ومكتبة صغيرة مع أربعة كراسٍ علّقت على الجدار قربها خريطة قديمة، وكانت تفوح رائحة التفّاح الزكيّة.

جلس ثلاثتنا، وتبادل أبي والأستاذ النظرات في صمت لبضع لحظات.

ثمّ صاح الأستاذ وهو يحدّق بالأرض الآجريّة التي كانت الشمس ترسم عليها مربّعات شطرنجية: "أوه! لقد تذكّرت جيّدا. كانت السيّدة أمّك سيّدة طيّبة

بالفعل! أمّا أنت فقد بقيت لمدة طويلة خلال السنة الأولى تجلس على المقعد الأوّل على اليسار، إلى جانب النافذة. هل ترى؟ إني أذكر. كأنّي أرى الآن شعرك الأجعد". وفكّر قليلا ثمّ أردف: "كنت فتى يقظا، أليس كذلك؟ جدّا. في السنة الثانية أصبت بمرض الخناق. أذكر عندما عادوا بك إلى المدرسة وقد هزل جسمك أشدّ الهزال، وكنت ملفوفا بشال كبير. لقد مرّت أربعون سنة، أليس كذلك؟ إنّك طيّب بالفعل لأنّك تذكّرت أستاذك المسكين. لقد جاء آخرون أيضا لعندي، هل تعلم؟ جاءوا منذ سنين ليزوروني هنا، كانوا من تلاميذي القدامى: كان بينهم عقيد في الجيش، ورجال دين، ومختلف الأشخاص". ثمّ سأل أبي عن مهنته. وقال: "تهانينا، تهانيّ القلبيّة. أشكرك. لقد مرّ زمنٌ لم أر فيه أحد. وأخشى أن تكون أنت الأخير يا سيّدي العزيز".

فصاح أبي: "ماذا تقول!؟ إنّك بحالة جيّدة، ما زلت قويّا ونشيطا. يجب ألاّ تقول مثل هذا الكلام".

أجاب الأستاذ وهو يعرض يديه: "إيه، لا، ألا ترى هذه الرعشة؟ هذه علامة سيّئة. أصابتني منذ ثلاث سنوات وكنت لا أزال أُدرّس. لم أعرها انتباها في البداية، وظننت أنها عابرة. لكنّها بقيت، بل بدأت تزداد. جاء يوم لم أتمكّن فيه من الكتابة. آه! ذلك اليوم، رأيت أنّي خربشت على دفتر تلميذي، كانت تلك ضربة على قلبي يا سيّدي. واصلت عملي لفترة أخرى من الزمن، لكنّي لم أتمكّن من المتابعة. بعد ستّين سنة متواصلة من التعليم كان عليّ أن أودّع المدرسة والتلاميذ والعمل. كان القرار صعبا وقاسيا على قلبي، قاسيا بالفعل. وبعد أن أعطيت درسي الأخير رافقني الجميع إلى بيتي، واحتفلوا بي، لكنّي كنت حزينا من جهتي، وأدركت أنّ حياتي قد انتهت. وكنت قبل عام من هذا قد فقدت زوجتي وابني الوحيد. وبقيت وحدي مع حفيدين من أقربائي الفلاّحين. أعيش الآن بفضل بضع مئات الليرات من راتبي التقاعديّ. لا أقوم بأيّ عمل، لذلك تبدو لي الأيّام طويلة، وبلا نهاية. الشغل الشاغل المتبقّي لي هو تصفّح كتب المدرسة القديمة، ومجموعات الصحف المدرسيّة وبعض الكتب التي أهدوني إيّاها. ها هي!". ثمّ أشار إلى مكتبته الصغيرة. "هنا كلّ ذكرياتي، كلّ

ماضيّ... ولم يبق لي غيرها في هذا العالم".

لكنّه أضاف فجأة بلهجة مرحة: "أريد أن أقدّم مفاجأة لك يا عزيزي السيّد بوتّيني".

ثمّ نهض واقترب من الطاولة، وفتح درجا طويلا فيه رزمٌ صغيرة كثيرة مربوطة جميعها بخيط سميك صغير، وقد كتب فوق كلّ منها تاريخ من أربعة أرقام. بحث فيها قليلا، ثمّ فتح إحداها وتصفّح أوراقها، وسحب ورقة مصفرّة عرضها على أبي. كانت وظيفة من وظائف أبي المدرسيّة تعود لأربعين سنة خلت. كتب في أعلاها: ألبرتو بوتّيني. إملاء. 3 نيسان/ ابريل 1838. تعرّف أبي في الحال إلى كتابته بحروف كبيرة التي كان يكتب بها في صباه، وبدأ يقرأ وهو يبتسم. لكنّ عينيه ترطّبتا فجأة بالدموع، فنهضت لأسأله عمّا اعتراه.

أحاط خصري بذراعه وقال لي وهو يضمّني إليه: "انظر إلى هذه الورقة. هل ترى؟ هذه هي تصحيحات المرحومة أمّي. كانت تدعّم لي لفظ الميم والتاء. السطور الأخيرة كلّها بخطّها. كانت قد تعلّمت كيفية تقليد خطّي. كانت تنهي لي وظائفي عندما ترى أنّي بدأت أشعر بالتعب أو يعتريني النعاس. يا والدتي الكريمة".

ثمّ قبّل الصفحة.

قال الأستاذ وهو يعرض الرزم الأخرى: "هاه، إنّها ذكرياتي. كنت كلّ عام أضع جانبا وظيفة تخص كلّ واحد من تلاميذي، وها هي الآن هنا كلّها مرتّبة ومرقّمة. إنّي أتصفحها أحيانا وأقرأ سطرا من هنا وسطرا من هناك فأستعيد ذكريات عن آلاف الأشياء، ويخيّل لي أنّي أعيش في الوقت الفائت. كم مضى منها أيها السيد العزيز! أُغمض عينيّ فأرى وجوها بعد وجوه، وصفوفا بعد صفوف، المئات والمئات من الصبية؛ من يدري من مات منهم؟ أذكر أكثرهم بصورة جيّدة، وأذكر عادة الأفضل والأسوأ، من سبّب لي السرور والحبور ومن جعلني أقضي لحظات حزينة. هل تعلم أنّه كان بينهم أفاعٍ، لا بد من ذلك وسط كل هذا العدد! أمّا الآن فإنّك تفهم أنّي كما لو أنّي أصبحت في العالم الآخر، لذلك أحبّ الجميع بدون استثناء".

عاد للجلوس وأخذ يديّ بين يديه.

سأله أبي مبتسما: "ألا تذكر عنّي أيّ حماقة؟".

فأجاب العجوز وهو يبتسم أيضا: "عنك أيّها السيّد؟ لا، حتّى الآن. هذا لا يعني أنّك لم ترتكب شيئا منها. لكنّك كنت راجح العقل، وجدّيا بالنسبة لعمرك. أذكر الحبّ الكبير الذي كانت تكنّه لك السيدة أمّك... لقد كانت بادرة طيّبة منك أنك جئت لزيارتي، إنّه لطف منك! كيف تسنّى لك أن تترك أشغالك لتأتي لزيارة أستاذ عجوز مسكين؟".

فأجاب أبي بحيويّة: "اسمع يا سيّد كروسيتّي، إنّي ما زلت أذكر المرة الأولى التي رافقتني فيها المرحومة أمّي إلى مدرستك. كانت تلك المرّة الأولى التي تتركني فيها لمدّة ساعتين خارج البيت في يد شخص آخر غير أبي؛ أي في يد شخص غريب. كان دخولي المدرسة يعني بالنسبة إلى تلك المخلوقة الرائعة دخولا إلى العالم. كان ذلك الانفصال هو الأول في سلسلة من الانفصالات المؤلمة لكن الضروريّة. كان المجتمع هو الذي ينزع للمرة الأولى ابنها عنها، ولن يعيده ثانية كاملا كما كان. كانت منفعلة، وكذلك أنا. لقد أوصتك بي بصوت مرتعش، ثمّ ذهبت وهي تحيّيني من جديد من شقّ الباب. وكانت عيناها تطفحان بالدموع. في تلك اللحظة بالذات، قمت أنت بحركة بيدك، ووضعت الأخرى على صدرك كما لو أنك تقول لها: "ثقي بي يا سيّدتي". إنّ تلك الحركة ونظرتك تلك هما اللتان أفهمتاني أنّك فهمت كلّ مشاعر أمّي وأفكارها، كانت نظرتك تعني: "تشجّعي!". كانت وعدا شريفا بالحماية والمحبّة والتسامح، ولم أنس هذا أبدا، بل بقي مطبوعا في قلبي، وكانت هذه الذكريات هي التي دفعتني لكي أسافر من تورينو، وها أنذا الآن هنا، بعد أربع وأربعين سنة من تلك اللحظة، لأقول لك: شكرا يا أستاذي العزيز".

لم يجد الأستاذ جوابا، وكان يداعب شعري بيده، ويده ترتعش وترتعش، تقفز من شعري إلى جبهتي ومن جبهتي إلى كتفي.

كان أبي يراقب الجدران العارية، وذلك السرير الفقير، وقطعة الخبز وقارورة الزيت قرب النافذة، وكأنّه يقول: يا لأستاذي المسكين! بعد ستّين سنة

من العمل، أهذا كلّ ما حصّلته؟

لكنّ العجوز الطيّب كان مسرورا، فاستأنف الحديث بحيويّة عن عائلتنا وعن أساتذة آخرين في تلك السنين، وعن رفاق أبي في المدرسة، وكان يذكر بعضهم ولا يذكر آخرين. ثمّ أخبر كلّ منهما الآخر بأخبار عن هذا وذاك، إلى أن قطع أبي الحديث ورجا الأستاذ بأن يتوجّه معنا إلى البلد لتناول الطعام معا. فأجاب الأستاذ برحابة صدر: "أشكرك! أشكرك!". لكنّه بدا متردّدا. أمسك أبي بكلتا يدي الأستاذ وترجّاه من جديد. فقال الأستاذ: "وهل أستطيع أن أتناول الطعام بهاتين اليدين المسكينتين اللتين ترقصان على هذه الشاكلة؟ إنّه عذاب حتى بالنسبة للآخرين!". فقال أبي: "سنساعدك يا أستاذ". عندها هزّ برأسه مبتسما وقبل الدعوة.

قال وهو يغلق الباب من الخارج: "إنّه نهار جميل، نهار جميل بالفعل يا سيّد بوتّيني! أؤكد لك أنّي سأذكره طيلة عمري".

مدّ أبي ذراعه للأستاذ، وأمسك هذا بيدي، ثم هبطنا على الدرب. قابلنا فتاتين حافيتي الأقدام تجرّان أبقارا، ثمّ فتى مرّ جريا وهو يحمل حملا ثقيلا من القشّ على كتفيه. قال الأستاذ إنّهم فتى وفتاتان في الصف الثاني يعملون في الصباح حفاة برعي البقر وفي الحقول، ثمّ ينتعلون الأحذية مساء ليذهبوا إلى المدرسة. اقترب منتصف النهار. فلم نقابل بعدهم أحدا. ووصلنا خلال بضع دقائق إلى الفندق، وجلسنا إلى طاولة كبيرة أجلسنا الأستاذ في وسطها، وبدأنا حالا في تناول طعام الفطور. كان الفندق هادئا. وكان الأستاذ مرحا، لكنّ الانفعال زاد من رعشة يديه حتّى تعذّر عليه أن يتناول الطعام، فكان أبي يقطع له اللحم ويكسر الخبز ويرشّ الملح في الصحن. كان عليه أن يمسك كأس الماء بكلتا يديه لكي يتمكّن من الشرب، ومع هذا؛ كان يصكّ عليها أسنانه. لكنّه كان يسرع في الحديث ويتكلّم بحرارة؛ وخاصّة عن كتبٍ قرأها في صباه، وعن مواعيد العمل في ذلك الوقت، وعن ما كاله له مدراؤه من مديح، وعن نُظم السنين الأخيرة. تكلّم بوجهه الصافي الذي احمرّ أكثر من ذي قبل، وبصوتٍ مرح، وبابتسامة تشبه ابتسامة الشباب. كان أبي ينظر إليه ويمعن النظر فيه بذلك

التعبير نفسه الذي كنت أحيانا أباغته فيه وهو ينظر إليّ في البيت، بينما كان يفكّر ويبتسم في سره، ووجهه مائل إلى طرف. ترك الأستاذ بعض الشراب ينسكب على صدره، فنهض أبي ونظّف المكان بالمنشفة. فقال له: "لا، أبدا أيّها السيّد، لن أسمح بهذا!". في النهاية رفع الكأس التي كانت تتراقص في يده وقال ببالغ الجدّية: "في صحّتك يا سيّدي المهندس العزيز، في صحّة أولادك، وفي ذكرى أمّك الطيّبة!". فأجاب أبي: "في صحّتك يا أستاذي الطيّب!". ثم شدّ على يده. في صدر الصالة، كان يقف عامل الفندق وغيره وهم ينظرون نحونا ويبتسمون بطريقة تعبّر عن سرورهم بهذا الاحتفال بأستاذ بلدتهم.

عند الساعة الثانية خرجنا فرغب الأستاذ بمرافقتنا إلى المحطّة. أعطاه أبي ذراعه مرّة أخرى وأخذ هو بيدي، فحملت له عكّازه. وكان الناس يتوقفون ليشاهدونا لأنّ الجميع يعرفونه، وكان البعض يحيّونه. بعد حين، سمعنا أصوات فتية تصدر عن إحدى النوافذ، كانوا يقرأون مجتمعين معا وهم يهجئون. توقّف العجوز وبدا أنّه قد شعر بالحزن.

قال: "إنّ ما يؤلمني يا عزيزي السيّد بوتّيني هو أن أسمع صوت صبية المدرسة وألاّ أكون في المدرسة، وأنّ هناك شخصا آخر فيها. لقد سمعت هذه الموسيقى لمدّة ستّين سنة وتعلّق بها قلبي... أمّا الآن فأنا بدون عائلة، وليس لي أولاد".

فقال أبي وهو يستأنف السير: "لا يا أستاذ، ما زال لديك الكثير من الأولاد موزّعين في أنحاء العالم، وهم يتذكّرونك كما تذكّرتك أنا".

أجاب الأستاذ بحزن: "لا، أبدا، ليس لي مدرسة وليس عندي أولاد. ولن أعيش طويلا بدون أولاد. وقريبا ستدقّ ساعتي".

قال أبي: "لا تقل هذا. في كلّ الأحوال أنت لم تفعل إلا كلّ أمر طيّب! لقد استخدمت حياتك بكلّ نبل!".

مال الأستاذ العجوز برأسه الأبيض، وأسنده لبرهة على كتف أبي، وشدّ أيضا على يدي.

كنّا قد دخلنا المحطة، وكان القطار في سبيله للانطلاق.

فقال أبي وهو يقبّل وجنتي الأستاذ: "وداعا يا أستاذي!".

أجاب الأستاذ: "وداعا، شكرا، وداعا!". قال ذلك وهو يمسك بيديه المرتعشتين يد أبي ويضمّها إلى قلبه.

عندما قبّلته شعرت بوجهه مبلّلا. دفعني أبي إلى داخل العربة، ثمّ سحب بسرعة في لحظة الصعود العكّاز القديمة من يد الأستاذ ووضع مكانها قصبته الجميلة بمقبضها الفضيّ الذي حفرت عليه الحروف الأولى من اسمه، وقال له: "احتفظ بها ذكرى منيّ".

حاول العجوز أن يعيدها ويستعيد عكّازه لكنّ أبي كان قد أصبح في الداخل وأغلق الباب.

- وداعا يا أستاذي الطيّب!

أجاب الأستاذ بينما كان القطار يتحرّك: "وداعا يا بنيّ. وبارك الله فيك على هذه المواساة التي واسيت بها عجوزا مسكينا".

صاح أبي بصوت منفعل: "إلى اللقاء!".

لكنّ الأستاذ أخفض رأسه وكأنّه يريد أن يقول: "لن نلتقي ثانية".

فكرّر أبي: "بلى. أجل، إلى اللقاء".

فأجاب ذلك وهو يرفع يده المرتعشة نحو السماء: "الله أعلم".

ثمّ غاب عن ناظرينا وهو على هذه الحال، ويده إلى الأعلى.

نقاهة

الخميس 20

من كان سيقول إنّي بعد أن أعود مسرورا من تلك الرحلة الجميلة مع أبي لن أرى بعدها ولأكثر من عشرة أيام رفيقا ولا سماء! فقد مرضت مرضا شديدا هدّد حياتي. سمعت أمّي تشهق بالبكاء، وأبي يبهت لونه وهو ينظر إليّ، بينما أختي سيلفيا وأخي يتحادثان بصوت منخفض والطبيب الذي يضع نظارة يقف إلى جانبي في كلّ لحظة ويقول لي كلاما لا أفهمه. كنت قريبا بالفعل من أن أقول وداعا للجميع. آه، يا أمّي المسكينة! مرّت ثلاثة أيام أو أربعة على الأقل لم أتذكّر فيها شيئا، كما لو أنّي حلمت حلما معكّرا غامضا. بدا لي أنّي رأيت إلى جانب سريري معلّمتي في الصفّ الأول المتقدّم وهي تجهد نفسها كي تخنق سعالها بمنديلها كي لا تزعجني، وتذكّرت صورة مضطربة لأستاذي الذي انحنى ليقبّلني فوخز وجهي بشعر لحيته، ورأيت كما يرى المرء في الضباب رأس كروسّي الأحمر، وخصلات شعر ديروسّي الشقراء المجعّدة، وكذلك الكالابريّ بملابسه السوداء، ثمّ غاروني وهو يحمل لي حبّة يوسفيّ بأوراقها ويذهب حالا لأنّ أمّه مريضة. بعدها استيقظت، ونهضت كما لو أنّي كنت في حلم طويل جدّا، وأدركت أنّي كنت أرى أبي وأمّي يضحكان وأسمع سيلفيا التي كانت تغنّي. أواه! كم كان هذا كابوسا مزعجا! ثمّ بدأت صحّتي تتحسّن يوما بعد يوم. جاء المعماريّ الصغير الذي أعاد لي الضحك بعد أن قلّد وجه الأرنب، وكم أحسن التقليد هذه المرّة بعد أن استطال وجهه بفعل مرضه، المسكين! جاء كوريتّي أيضا، ثم جاء غاروفّي وقدّم لي هديّة بطاقتين من يانصيبه "مبراة المفاجآت الخمس" التي اشتراها من تاجر خردة في شارع بيرتولا. البارحة عندما كنت نائما جاء أيضا بريكوسّي ووضع يدي على الوسادة من دون أن يوقظني، وبما أنّه جاء

مباشرة من ورشة أبيه ووجهه ملوّث بالفحم فقد ترك لطخة سوداء على كمّي، فسررت بالفعل عندما استيقظت ورأيتها. لقد ازدادت خضرة الأشجار خلال تلك الأيام القليلة! لقد بدأت أحسد أولئك الصبية الذين يجرون إلى مدرستهم وهم يحملون كتبهم، كنت أراهم من النافذة عندما كان أبي يأخذني نحوها! لكن، لا بد أن أعود إليها أنا أيضا. إنّي مشتاق لرؤيتهم كلّهم، ولرؤية مقعدي، والحديقة، والشوارع، ولمعرفة كلّ ما حدث خلال ذلك الوقت، ولأن أعود إلى كتبي ودفاتري التي شعرت أنّي لم أرها منذ سنة! مسكينة أمّي! كم هزلت وشحب وجهها! مسكين أبي! كم بدأ التعب يظهر على وجهه! أصدقائي الطيّبون جاءوا لزيارتي وهم يمشون على رؤوس أصابعهم ثمّ قبّلوا جبهتي! إنّي أشعر بالحزن عندما أفكّر أنّنا سنفترق يوما ما. ربّما واصلت دراستي أنا وديروسّي وغيره، لكن، ماذا عن الآخرين؟ بعد أن ننتهي من الصفّ الرابع سنقول وداعا، ولن نجتمع بعدها مرّة أخرى. لن أراهم مرّة أخرى قرب سريري إذا مرضت. غاروني، بريكوسّي، كوريتّي؛ كلّهم فتية طيبون، طيّبون جدّا وأصدقاء أعزّاء. لن نجتمع أبدا مرّة أخرى!

الأصدقاء العمّال

الخميس 20

لماذا تقول يا أنريكو: أبدا مرّة أخرى؟ هذا الأمر يتعلّق بك. عندما تُنهون الصفّ الرابع ستنتقل أنت إلى مدرسة الآداب، بينما قد يصبح الآخرون عمّالا، لكنّكم على الأرجح ستبقون في المدينة نفسها ولسنين عديدة. فلماذا لا يمكنكم أن تجتمعوا ثانية؟ وإذا أصبحت في الثانويّة أو في الجامعة فستذهب لتبحث عنهم في دكاكينهم أو ورشاتهم، وستكون مسرورا بلقاء رفاق طفولتك وقد أصبحوا رجالا يعملون. لا يمكنني أن أتخيّل أنّك لن تذهب لتبحث عن كوريتّي وبريكوسّي أينما كانا. أجل، إنّك ستذهب، وستقضي الساعات بصحبة رفاقك، وسترى وأنت تدرس الحياة والعالم أنّ الأشياء التي ستتعلّمها منهم لن يعلّمك إيّاها أحد غيرهم؛ عن فنونهم ومجتمعهم وبلادك. احذر، لأنّك إن لم تحافظ على هذه الصداقات فسيصعب عليك أن تحوز على أخرى مثلها في المستقبل، إذ سيصعب عليك إيجاد صداقات من خارج الطبقة التي تنتمي إليها، وهكذا ستضطرّ إلى العيش ضمن نطاق طبقة واحدة، وأنت تعرف أنّ الشخص الذي لا يرتاد إلاّ طبقة اجتماعية واحدة كطالب العلم الذي لا يقرأ إلاّ في كتاب واحد. فصمّم منذ الآن على أن تحتفظ بهؤلاء الأصدقاء الطيّبين حتى بعد أن تفترقوا، وقرّر أن تعتبرهم من المفضّلين عندك لأنّهم وبالضبط أبناء عمّال. انظر، إنّ رجالات الطبقات العليا هم الضبّاط، أمّا العمّال فهم جنود العمل في المجتمع كما في الجيش، لكنّ الجنديّ ليس أقلّ نبلا من الضابط؛ لأنّ النبل هو نبل العمل ولا ينجم عن الربح والمال. إنّه في القيم وليس في المرتبة. أمّا إذا كان هناك تفوّق في الجدارة فهذا التفوّق سيكون من حظّ الجنديّ والعامل لأنهما لا يجنيان من أعمالهما إلاّ أقلّ الأرباح. إذا، أحبّ أبناء جنود العمل

واحترمهم قبل جميع أصدقائك، وقدّر المتاعب والتضحيات التي قدّمها آباؤهم، واحتقِر الفروقات التي يسبّبها الحظّ أو تفرضها الطبقة؛ والتي لا يهتمّ بها إلاّ الجبناء. وفكِّر أنّ الدم المبارك الذي استردّ الوطن يكاد يكون كلّه دما خرج من شرايين عمّال المصانع والحقول. إذا، أحبّ بريكوسّي، وأحبّ كوريتّي، وأحبّ المعماريّ الصغير؛ لأنّ قلوب العمّال الصغار التي في صدورهم إنّما هي قلوب أمراء، ثم أقسم أمام نفسك وتعهد بأن أيّ تغيّر في الحظوظ لن ينزع من صدرك أبدا مشاعر الصداقة التي نشأت في صغرك. أقسم إنّك إذا مررت ولو بعد أربعين سنة في إحدى محطّات القطار ورأيت صديقك القديم غاروني بملابس عامل سكك حديديّة ووجه مشحّر بالسواد... آه، لا حاجة لأن تقسم مثل هذا القسم، لأنّي على ثقة من أنّك ستقفز إلى المركبة وستعانقه حتى لو أصبحت عضو مجلس شيوخ المملكة.

أبوك

أمّ غاروني

السبت 29

ما إن عدت إلى المدرسة حتى سمعت في الحال بخبر حزين. فغاروني تغيّب عن المدرسة منذ بضعة أيّام لأنّ أمّه مريضة بمرض خطير. وقد ماتت مساء السبت. عندما دخلت صباح الأمس المدرسة، قال لنا الأستاذ: "لقد أصابت غاروني المسكين أكبر مصيبة يمكن أن تصيب طفلا؛ لقد ماتت أمّه. سيعود غدا إلى المدرسة. أرجوكم منذ الآن أيها الأولاد أن تحترموا ألمه القاسي الذي يمزّق قلبه. أوصيكم بأن تحيّوه بمحبّة عندما يدخل، وأن تكونوا جادّين، فلا يمزحنَّ أحد معه ولا يضحك". هذا الصباح جاء غاروني متأخّرا قليلا عن الآخرين. شعرت بازدياد ضربات قلبي عندما رأيته. كان شاحب الوجه، أحمر العينين، يتعكّز في مشيته، لا يكاد يُعرف؛ وكأنّه مريض منذ شهر. جاء بملابس سوداء وكان يثير الشفقة. لم يتنفّس أحد، بل كانوا ينظرون إليه. عندما دخل، ورأى المدرسة التي كانت أمّه تأتي كلّ يوم تقريبا لتأخذه منها عند الانصراف، ورأى المقعد الذي كانت تنحني عليه مرات كثيرة في أيّام الفحص لتوصيه وتشجّعه، والذي طالما فكّر فيها وهو عليه متلهّفا للخروج لملاقاتها، عندها انفجر في بكاء مرير. قرّبه الأستاذ منه وضمّه إلى صدره وقال له: "ابكِ، ابكِ يا بنيّ، ابكِ أيّها الفتى المسكين، لكن تشجّع. إذا كانت أمّك قد تركتك فإنّها ما زالت تراك وما زالت تحبّك، إنّها ما زالت حيّة في قلبك، وستراها أنت أيضا ذات يوم. فأنت فتى روحه طيّبة ونزيهة مثلها تماما؛ تشجّع". رافقه بعد هذا الكلام إلى مقعده ووضعه بجانبي. لم أجرؤ على النظر إليه. أخرج كتبه ودفاتره التي لم يستعملها منذ أيّام عديدة. وعندما فتح كتاب القراءة وظهرت صورة تمثّل أمّا تمسك ابنها بيدها انفجر مرّة أخرى بالبكاء، وأطرق برأسه على المقعد. أشار لنا الأستاذ بأن

نتركه وشأنه وبدأ بإلقاء الدرس. كان بودّي أن أقول له شيئا لكنّي لم أعرف ماذا أقول. فوضعت يدي على ذراعه وهمست في أذنه: "لا تبكِ يا غاروني". فلم يجب، ولم يرفع رأسه عن المقعد، لكنّه وضع يده في يدي وأبقاها لفترة. وعندما خرجنا لم يكلّمه أحد، بل داروا كلّهم حوله باحترام كامل وبصمت. رأيت أمّي تنتظرني فجريت لمعانقتها، لكنّها دفعتني وهي تنظر إلى غاروني. لم أدرك معنى هذا في الحال، لكنّي رأيت غاروني في الزاوية يراقبني، وينظر إليّ بحزن غير ظاهر وكأنّه يعني: "إنك تعانق أمّك وأنا لن أعانقها بعد الآن! ما زالت عندك أمّ وأنا أمّي ماتت!". عندها فهمت لماذا دفعتني أمّي بعيدا عنها، فخرجت من دون أن أعطيها يدي.

جوزيبى ماتزيني[1]

السبت 29

جاء غاروني إلى المدرسة هذا الصباح وهو لا يزال شاحب الوجه ومنتفخ العينين من كثرة البكاء، ولم يلق إلاّ نظرة عابرة على الهدايا الصغيرة التي وضعناها على مقعده لنواسيه ونعزّيه. لكنّ الأستاذ جاء بصفحة كتاب ليقرأها علينا فيتقوّى بالقراءة قلبه. وكان قد طلب قبلها منّا جميعا أن نذهب في منتصف نهار الغد إلى مبنى المنطقة لنشاهد حفل تقليد وسام الاستحقاق المدني لفتى أنقذ طفلا من الغرق في نهر البو[2]، وقال إنّه سيملي علينا يوم الاثنين تفاصيل الحفل بدلا من القصّة الشهريّة. ثمّ التفت نحو غاروني الذي بقي مطأطئا رأسه وقال له: "ابذل يا غاروني بعض الجهد واكتب أنت أيضا ما سأمليه عليكم". تناولنا جميعنا الأقلام وبدأنا نكتب، فبدأ الأستاذ يملي موضوعه.

"ولد جوزيبى ماتزيني في مدينة جنوى عام 1805، ومات في مدينة بيزا عام 1872. وهو وطنيّ كبير وكاتب عبقري

---

(1) جوزيبى ماتزيني 1805-1872، سياسي من الوطنيين الإيطاليين وفيلسوف وصحافي، ولد في جمهورية ليغوريا التي ضمت إلى الإمبراطورية الفرنسية لكنّها أصبحت في ما بعد منطقة من مملكة إيطاليا. ساهمت أفكاره ونضاله السياسي العنيد في نشوء الدولة الإيطالية الموحّدة، لكنّها أدّت إلى ملاحقته فقضى عمره منفيًا أو متخفيًا حتى موته. كان لأفكار ماتزيني أثر كبير في ولادة الديموقراطيات الأوروبية في قالب الدولة الجمهورية.

(2) يعبر نهر Il Po أربع مناطق من شمال إيطاليا. يجري من غربها إلى شرقها، وله 141 رافدا. طوله 652 كم ويصبّ في البحر الأدرياتيكي.

عظيم. كان أوّل ملهم للثورة الإيطالية، وأجبره حبّه للوطن على أن يعيش أربعين سنة في فقر مدقع، منفيّا وملاحقا ومشرّدا؛ ورغم ذلك بقي ثابتا على مبادئه وأهدافه. كان جوزيبي ماتزيني يقدّر كثيرا أمّه التي أخذ عنها كلّ ما كان في قلبه القويّ النبيل من قيم سامية ونقيّة، لذلك كتب إلى صديق له يعزّيه بأكبر مصيبة حلّت به، وهذه كلماته أكررها الآن عليكم كما قالها على وجه التقريب: "إنّك لن ترى يا صديقي أمّك بعد الآن على هذه الأرض، هذه حقيقة مرّة قاسية. لن آتي الآن لأزورك لأنّ حزنك اليوم من الأحزان الكريمة التي يجب أن يقاسيها الإنسان وينتصر عليها وحده. هل تدرك ما أريد قوله في عبارة "لا بد من الانتصار على الألم"؟ أعني الانتصار على الجوانب غير الكريمة في الألم، وعلى الجوانب التي لا تطهّر النفس مثل غيرها؛ أي على الجوانب التي لا ترقى بالنفس بل تضعفها. إذ إن الوجه الآخر للألم وجه نبيل يُغْني الروحَ، وهذا يجب أن يبقى فيك ومعك وألاّ يتركك أبدا. لا شيء هنا في هذه الدنيا يعوّض عن أمّ طيّبة؛ لذلك لن تنساها أبدا، وخاصّة بين حزنٍ وسلوان لن يفتأا في التعاقب عليك. غير أنّه يجب عليك وجوبا أن تتذكّرها وأن تحبّها وأن تحزن لفقدها بشكلٍ يليق بها. أصغِ إليّ أيّها الصديق. الموت ليس قابلا للفهم والإدراك بالنسبة إليك الآن. أمّا الحياة فهي حياة، وتتبع قانون الحياة: أي التقدّم. كانت لديك في الأمس أمّ على الأرض، غير أنها الآن غير موجودة. إنّ كلّ ما هو خير يبقى ويزداد قوّة في هذه الحياة الدنيا. وهذا يشمل حبّ أمّك. إنّها تحبّك الآن أكثر من أيّ وقت مضى، وإنّك الآن مسؤول عن أعمالك تجاهها أكثر من أيّ وقت مضى. لذلك، عليك أن تُحسّن نفسك لتصبح أفضل من ذي قبل حتّى تُسعدها، وحتى تصبح في درجة تليق بمحبّتها واحترامها. عليك من الآن فصاعدا أن تسأل نفسك قبل كلّ عمل تقوم به: هل سترضى أمّي عن هذا العمل؟ كن شجاعا وطيّبا، قاوم الألم اليائس والمبتذل، اكتسب طمأنينة المعاناة العظيمة التي تعانيها النفوس الكبيرة، فهذا ما تريده هي منك".

وأضاف الأستاذ: "إذا، كن يا غاروني شجاعا مطمئنّا، فهذا ما تريده هي منك، هل فهمت؟".

هزّ غاروني برأسه موافقا، بينما كانت قطرات كبيرة من الدموع الغزيرة تنهمر على يديه وعلى دفاتره وعلى مقعده.

الاستحقاق المدني

قصّة شهريّة

في تمام الساعة الواحدة كنّا مع الأستاذ أمام قصر المدينة لنشاهد تقديم ميدالية الاستحقاق المدنيّ إلى الفتى الذي أنقذ رفيقه من نهر البو[1].

كان علم كبير يخفق على شرفة الواجهة الرئيسة بألوانه الثلاثة[2].

دخلنا رواق القصر.

كان مليئا بالناس، وكانت في صدره طاولة عليها مفرش أحمر، وفوقه أوراق كثيرة، وخلفها صفٌّ من الكراسي المذهّبة المخصّصة للعمدة واللّجنة. كان هناك بوّابو البلديّة بملابسهم الزرقاء وجواربهم البيضاء. وكانت هناك على يمين الرواق مجموعة من الشرطة المدنيّة بميداليات كثيرة، وبجانبها مجموعة أخرى من الشرطة الجمركيّة. أما في الطرف المقابل، فقد اصطفّ رجال الإطفاء بملابسهم الصيفيّة، كما وقف الكثير من الجنود الذين جاءوا للفرجة بلا انتظام. كانوا من سلاح الفرسان والرماة والمدفعيّة. كان حولهم أيضا سادة وجمهور وبعض الضبّاط ونساء وفتيان يتزاحمون. لذلك انحشرنا في زاوية تجمهر فيها أيضا العديد من تلاميذ الصفوف الأخرى مع أساتذتهم. وكان إلى جانبنا حشد من فتية المدارس بين العاشرة والثامنة عشرة من العمر، وكانوا يضحكون ويثرثرون بصوت مرتفع يفهم منه أنهم من منطقة بورغو بو؛ أي من أصدقاء الشخص الذي سيتقلّد الميدالية ومعارفه. أطلّ من على كلِّ النوافذ موظّفو البلديّة، كما كانت منصّة المكتبة مليئة أيضا بالناس الذين احتشدوا حول

---

(1) راجع الهامش السابق.

(2) رأينا أن العلم الإيطالي يسمى العلم ذا الألوان الثلاثة وهي: الأخضر والأبيض والأحمر.

الحاجز. أمّا على الجانب المقابل فوق باب المدخل، فكان هناك عدد كبير من الفتيات العسكريّات بثيابهن الزرقاء الجميلة. كان المنظر يشبه المسرح. كان الجميع يتحادثون مسرورين، وينظرون من حين لآخر إلى طرف الطاولة الحمراء مترقّبين ظهور شخص ما. وكانت الفرقة الموسيقية تعزف في صدر الرواق تحت الأعمدة، فيما أشعة الشمس تضرب الجدران العالية. كان منظرا رائعا.

فجأة، بدأ الجميع يصفّقون في الفناء، وفي الأروقة، وقرب النوافذ.

وقفت على رؤوس أصابعي لأتفرّج.

انشقّ الحشد الذي كان وراء الطاولة وتقدّم رجل وامرأة. وكان الرجل يمسك فتى بيده.

كان ذاك هو الفتى الذي أنقذ رفيقه.

أمّا الرجل فكان أباه، وهو معماريّ ارتدى ثياب الحفل. وكانت المرأة أمّه، وهي صغيرة شقراء ترتدي ثيابا سوداء. وكان الفتى صغيرا أيضا وأشقر ويرتدي سترة رماديّة.

تجمّد الثلاثة عندما رأوا تلك الحشود وسمعوا ذلك التصفيق، فلم يجرؤوا على النظر ولا على القيام بأي حركة. حتى اضطر أحد بوابي البلدية إلى دفعهم يمينا إلى جانب الطاولة.

التزم الجميع الصمت هنيهة، ثمّ انفجروا مجددا في التصفيق من كلّ الجهات. نظر الفتى إلى النوافذ في الأعلى أوّلا ثم إلى رواق بنات العسكر، وكان يمسك بقبّعته بين يديه. كان يبدو وكأنّه لا يدرك أين هو. بدا لي أنّ وجهه يشبه وجه كوريتّي، لكنّه أشد احمرارا. كان أبوه وأمّه قد جمّدا عيونهما على الطاولة.

في هذه الأثناء، كان كلّ صبية بورغو بو القريبين منّا يبرزون بوجوههم ويشيرون إلى رفيقهم ليراهم، كما نادوه بصوت منخفض: "بين، بين، بينوت!". بعد كلّ هذه المحاولات، تمكّنوا من إسماعه أصواتهم فنظر إليهم الفتى وهو يخفي ابتسامته خلف قبّعته.

وعلى حين غرّة، وقف كلّ الحرس في وضعيّة الاستعداد.

دخل العمدة يرافقه عدد كبير من السادة.

كان العمدة يرتدي ثيابا بيضاء عليها شال كبير بألوان العلم الثلاثة، ووقف أمام الطاولة ووراءه الجميع على الطرفين.

توقفت الفرقة عن العزف، كما صمت الجميع عندما أشار العمدة بيده.

بدأ بالكلام. لم أسمع كلماته الأولى على وجه الدقّة، لكنّي فهمت أنّه يروي قصة الفتى. ثم رفع صوته فسُمع واضحا في أنحاء الرواق، ولم أغفل عن كلمة واحدة من حديثه. "... عندما كان على الشاطئ ورأى رفيقه يتخبّط في النهر وقد أخذ منه الخوف من الغرق كلّ مأخذ، نزع ثيابه وجرى بلا أدنى تردّد. صرخ عليه الناس من حوله قائلين: إيّاك، ستغرق. لكنّه لم يجبهم. وعندما أمسكوا به ليمنعوه أفلت نفسه من بين أيديهم. وكان قد أصبح داخل الماء عندما نادوه باسمه. كان النهر خطيرا ويهدّد حتى الرجل الكبير. لكنّه هجم على الموت بكلّ قوّةِ جسمه الصغير وقلبه الكبير، فاستطاع أن يدرك ذلك الصديق وأن يمسك به بثوانٍ قبل فوات الأوان. كان صديقه قد بدأ يغرق تحت الماء فسحبه إلى سطحه، ثمّ صارع بكلّ شراسة الموجةَ التي كادت تطيح به وبرفيقه الذي كان يحاول أن يتمسك به بعد أن غاب عدّة مرات تحت الماء ثم عاد بعد محاولات عديدة يائسة. أصرّ ثم أصرّ، يدفعه تصميمُه السامي، وكان لا يشعر بنفسه أنّه مجرّد صبيّ راغبٍ بإنقاذ صبيّ آخر، بل كان يرى أنّه رجل شجاع وأبٌ يسعى لإنقاذ ابنه الذي هو أمل حياته. أراد الله أخيرا أن لا تضيع مثل هذه الجسارة هباء؛ فانتزع السبّاح الصغير الضحيةَ من براثن النهر العملاق، وسلّمها للأرض، ثم قام مع الآخرين بتقديم الإسعاف الأوليّ لها ليعود بعدها إلى بيته وحيدا مطمئنّا ويروي قصّته بكلّ براءة. أيّها السادة، إنّ بطولة الرجال عمل جميل لكن لا يمكن مقارنتها مع بطولة الطفل البعيدة عن أي طموحٍ أو التي تهدف لأيّ منفعة. الطفل نراه شجاعا كلمّا كان أضعف، الطفل لا نطلب منه شيئا ولا يترتّب عليه أيّ واجب، الطفل يبدو نبيلا ومحبوبا حتّى لو لم يقدّم شيئا؛ إذ يكفيه أن يفهم ويعترف بتضحيات الآخرين. إنّ بطولة الطفل مميّزة. لن أضيف على هذا شيئا أيها السادة. لا أريد أن أتوّج بمدائح كماليّة عظمة بسيطة واضحة. ها

هـو أمامكـم المنقذ الشـجاع والكريـم. حيّوه أيّها الجنود أخا لكـم، باركنه أيتها الأمهات ابنا لكنّ. واذكروا اسـمه أيّها الأطفال واطبعوا صورته في مخيّلاتكم، على ألاّ تنمحي منها ولا من قلوبكم. اقترب أيها الفتى، باسم ملك إيطاليا أقلّدك ميدالية الاستحقاق المدني".

هتف الجميع مباشرة: "عاش". فتردّد صدى الهتاف في أرجاء القصر.

تنـاول العمـدة الميداليـة مـن على الطاولة، ووضعها علـى صدر الفتى، ثمّ عانقه وقبّله.

وضعت الأمّ يدها على عينيها وأسند الأب ذقنه على صدره.

شدّ العمدة على أيدي الاثنين، وتناول قرار التقليد المربوط بشريطة وسلّمه للمرأة.

ثـم التفـت نحـو الفتى وقال له: "عسـى أن تبقيك ذكرى هذا اليوم السـعيد بالنسبة لأبيك وأمّك ولك على طريق الفضيلة والشرف. وداعا!".

عندما خرج العمدة، عادت الفرقة للعزف وبدا أنّ كلّ شيء قد انتهى. لكنّ ستارة رجال الإطفاء انسدلت وخرج من ورائها فتى لا يتجاوز عمره الثامنة أو التاسعة تدفعه امرأة ما لبثت أن اختفت، ثمّ اندفع هذا نحو المحتفى به وارتمى بين ذراعيه.

هنا علت هتافات "عاش" أخرى مصحوبة بعاصفة تصفيق دوّت في أرجاء الـرواق. فقـد أدرك الجميـع فـي الحال أنّ ذاك هو الفتى الذي تمّ إنقاذه من نهر البو، وأنه قد أتى ليشكر منقذَه. قبّله ثمّ التصق بذراعه ليرافقه إلى الخارج. توجّه الاثنان ووراءهما الأب والأمّ نحو المخرج، وشـقّوا طريقهم بصعوبة بالغة بين جموع احتشدت في جناحين حول طريقهم. اختلط بين الحشد الحرس والصبية والجنود والنساء. كانوا يتدافعون ويتطاولون على رؤوس أصابعهم ليتمكّنوا من رؤية الفتى.

بل إنّ الأقرب إليه كانوا يلمسون يده. عندما مرّ أمام طلبة المدارس لوّحوا كلّهـم بقبّعاتهـم فـي الهـواء. أمّـا أبنـاء بورغو بو فقـد أثاروا ضجيجـا بثرثراتهم وصيحاتهم: بين! عاش بين! أحسنت يا بينوت! أمّا أنا فقد رأيته يمرّ إلى جانبي،

وكان وجهه يتّقد سرورا، وكانت للميدالية شريطة بيضاء وحمراء وخضراء. كانت أمّه تبكي وتضحك، بينما كان أبوه يفتل شاربه بيدٍ ترتجف؛ كما لو أنّه يعاني من الحمّى. كان الجميع يتدلّون من على النوافذ والأروقة وهم يتابعون التصفيق. عندما وصلوا إلى تحت الأعمدة هطلت من رواق بنات الجنود أمطار حقيقيّة من الهدايا وباقات البنفسج والأقحوان سقطت كلّها على رؤوس الفتى وأبيه وأمّه ثمّ تناثرت على الأرض.

بدأ الكثير من الناس يلتقطون بعضها بسرعة ويقدمونها للأمّ. وكانت الفرقة في صدر البهو تعزف ألحانا بطيئة رائعة بدت مثل مجموعة من الأصوات الفضّية التي تبتعد ببطء نحو شواطئ النهر.

الأطفال الكسيحون

الجمعة 5

أخـذت اليـوم عطلـة لأنّـي لم أكن على ما يـرام، وهكذا أخذتني أمّي معها إلـى معهـد الكسـيحين الصغـار لتوصيهم بابنـة البوّاب الطفلـة، لكنّها لم تدعني أدخل معها مدرستهم...

ألـم تفهم يا أنريكو لماذا لم أدعك تدخل معي؟ كي لا أضع وسط مدرسة البؤساء الصغار ولا أعرض على أعينهم فتى في مثل عمرهم لكنّه صحيح وقويّ ومعافى؛ خاصّة وأنّ لديهم مناسـبات كافية يجدون فيها أنفسـهم أمام مقارنات مؤلمة. إنه لأمر حزين! كاد قلبي ينفطر عندما دخلت المكان، وشعرت بالرغبة في البكاء. كانوا حوالى الستّين بين طفل وطفلة... يا لعظامهم المسكينة المعذّبة! يـا لأقدامهـم الصغيـرة المسـكينة المنكمشـة والملتويـة! يا لأجسـامهم الصغيرة المشـوّهة! لقـد رأيـت فـي الحال بينهـم الكثير من الوجوه اللطيفـة، والكثير من العيـون المفعمـة بالـذكاء والمـودّة. رأيـت وجه طفلة دقيقة الأنـف، حادّة الذقن كامرأة عجوز، لكنّ ابتسـامتها كانت تنمّ عن عذوبة. رأيت في المقدّمة وجوها جميلـة لا تُظهـر أيّ تشـوّه، لكـن، ما إن يلتفتوا حتّـى ينغّصوا القلب. كان هناك طبيـب يزورهـم، جعلهـم يسـتلقون علـى مقاعدهـم وبدأ برفع ملابسـهم ليعاين بطونهم المنتفخة وأوصالهم المتضخّمة، ولم يخجل أحد من أولئك المساكين، فقـد بـدا أنّهـم أطفال اعتادوا على التعرية والمعاينـة والتقليب بكلّ الاتّجاهات. فكيف إذا عرفنا أنّهم الآن في أفضل فترات مرضهم، يكفي أنّهم بدأوا مؤخرا لا يتألّمون. لكن، من الذي يدري ما عانوه عندما بدأت أجسـامهم تتشـوّه، وعندما كان مرض أولئك المسـاكين يشـتدّ في الوقت الذي تتناقص فيه مودّة الآخرين

لهم؟ وربما ترك أولئك الأطفال المساكين لساعات وساعات وحيدين في زاوية غرفة أو ردهة، بدون غذاء كافٍ، بل ومُهزئين أحيانا، هذا إن لم يعذّبوهم لأشهر وأشهر بالأربطة وبأجهزة تقويم لا نفع منها! غير أنّ وضع الكثيرين منهم تحسّن الآن بفضل العلاج المناسب وحسن التغذية والرياضة. أمام درس الرياضة الذي كانت تؤدّيه المعلّمة يشعر المرء بالشفقة عند مشاهدتهم وهم يقومون ببعض الحركات ويمدّون تحت المقاعد تلك الأرجل المربوطة أو المضغوطة بين الشرائح، أو مبتورة الأطراف أو المشوّهة، تلك الأرجل التي كان من الأجدر أن تغطّيها القبل! الكثيرون كانوا لا يستطيعون النهوض عن مقاعدهم، فيجلسون ورؤوسهم ملتوية على أذرعهم، وهم لا يفعلون شيئا سوى مداعبة عكاكيزهم، فيما كان آخرون يدفعون أذرعهم فتضيق أنفاسهم ويقعون من جديد على مقاعدهم، وقد شحبت وجوههم؛ لكنّهم يبقون مبتسمين كي لا يُظنّ أنهم تعبوا. آه يا أنريكو! أنتم الذين لا تقدّرون الصحّة ويبدو لكم أنّه أمر غير مهم أن يشعر الإنسان بتمام الصحّة. أقول هذا وأنا أفكّر بفتية أقوياء تجول بهم أمّهاتهم منتصرات وهن يتباهين بجمالهم. لا أستطيع آنئذ إلا أن آخذ بين يديّ تلك الرؤوس المسكينة لأضمّها إلى قلبي وأقول يائسة لو كنت وحيدة لما تحرّكت من هنا، ولكرّست حياتي من أجلكم، ولخدمتكم؛ لأكون أمّا لكم جميعا حتّى يومي الأخير... بينما كانوا هم يغنّون، يغنّون بأصوات هزيلة حلوة حزينة تهزّ القلوب، وكانوا يبدون مسرورين لأنّ المعلّمة مدحتهم. وكانوا يقبّلون يديها وذراعيها كلّما مرّت أمام مقاعدهم؛ لأنّهم يشعرون بكثير من الامتنان لمن يحسن إليهم. إنّهم ودودون بالفعل. كما أنّ أولئك الصغار موهوبون، وهم حسبما أخبرتني المعلّمة يدرسون. كانت معلّمة شابّة ولطيفة، وجهها مفعم بالطيبة، وتشوبه مسحة من الحزن تعكس المصائب التي تداويها وتواسي أصحابها. بنيّتي العزيزة، ليس بين كلّ الناس من يكسب رزقه بالكدح والعمل أكرم منك يا بنيّتي، أنت التي تكسبين رزقك بالتقوى.

أمك

تضحية

الثلاثاء 9

والدتي طيّبة، وأختي سيلفيا مثلها؛ فهي كريمة وكبيرة القلب مثلها. كنت جالسا البارحة مساء أنسخ قسما من القصّة الشهرية "من جبال الابنين إلى جبال الأنديز"[1] التي وزّعها الأستاذ علينا لينسخ كلّ منّا قسما منها لأنّها طويلة جدّا، عندما دخلت أختي سيلفيا على رؤوس أصابعها، وقالت لي بصوت منخفض وعلى عجل: "تعال معي لنذهب لعند الماما، فقد سمعتهما هذا الصباح يتحادثان عن خسارة أبينا في أمر ما. وكان البابا مستاء جدّا، بينما كانت ماما تحاول طمأنته وتشجيعه. هذا يعني أنّنا في وضع ماليّ صعب، هل تفهم؟ أي إنّه ليس لدينا نقود. وقال أبي إنّه علينا أن نقوم ببعض التضحيات كي يستقيم لنا الأمر. هذا يعني أنّه علينا أن نقوم نحن أيضا ببعض التضحيات، أليس كذلك؟ هل أنت مستعدّ؟ حسنا، فلنذهب لعندها وسأكلّمها في هذا، وما عليك إلاّ أن تهزّ رأسك لتشير بالقبول، ثمّ قدّم وعدا بشرفك بأنّك ستنفّذ كل ما أقوله". بعد هذا أخذتني من يدي وقادتني إلى أمّنا التي كانت تطبخ وهي مستغرقة في التفكير. جلست أنا على طرف الأريكة وجلست سيلفيا على طرفها الآخر وقالت في الحال: "اسمعي يا أمّي، يجب أن نكلّمك". نظرت ماما إلينا بدهشة. لكنّ سيليفيا أردفت: "يبدو أنّ بابا بدون نقود، أليس هذا صحيحا؟". فأجابت ماما وقد احمرّ وجهها: "ماذا تقولين؟ هذا ليس صحيحا! وماذا تعلمين أنت؟ من قال لك مثل هذه الأقوال؟". قالت سيلفيا بحزم: "أعلم هذا. حسنا يا أميّ، علينا أن نقدّم

(1) جبال الابنين سلسلة جبلية بطول 1500 كم تخترق إيطاليا من شمالها إلى جنوبها. أمّا سلسلة جبال الأنديز فتعتبر أطول السلاسل الجبلية في العالم، وهي تعبر سبع دول في أميركا الجنوبية بطول يصل لحوالى 7200 كم.

بعض التضحيات نحن أيضا. لقد وعدتني مثلا بأن تشتري لي مروحة في أواخر شهر أيار، كما أنّ أنريكو كان ينتظر علبة ألوان جديدة، لكنّنا لا نريد الآن شيئا من هذا، لا نريد أن تهدر النقود، وسنبقى سعيدين رغم هذا. هل فهمت؟". حاولت الأمّ أن تتكلم لكنّ سيلفيا قالت: "لا، هذا ما نريده، لقد قرّرنا. وحتى يصبح لدى أبينا بعض النقود فإنّنا لن نطلب فواكه ولا غيرها، يكفينا الحساء. وفي الصباح سيكون فطورنا الخبز وبهذا تقلّ تكاليف الطعام التي أصبحت كبيرة في الفترة الأخيرة. ونعدك بأنّنا سنكون مسرورين بهذه الطريقة. أليس كذلك يا أنريكو؟". أجبت بالموافقة. فكرّرت سيلفيا وهي تغلق فم أمّها براحة يدها: "سنكون مسرورين بهذه الطريقة. وإذا كانت هناك تضحيات أخرى لا بد من بذلها في اللباس أو غيره فإننا سنبذلها بكلّ سرور، بل إنّنا سنبيع هدايا تلقّيناها، وسأعطيك كلّ ما أملكه، وسأخدمك بنفسي عوضا عن أن ترسلي الأشياء للقيام بها خارج البيت. سأعمل معك طيلة النهار، وسأفعل كلّ ما تريدينه. أنا على استعداد لأيّ شيء! أيّ شيء!". ثمّ أحاطت بذراعيها عنق أمّي وهي تردف: "على ألاّ يشعر أبي وأمّي بأيّ استياء، وعلى أن أعود فأراكما مطمئنّين، وفي مزاج جيّد مثل الماضي، بين ابنتكما سيلفيا وابنكما أنريكو اللذين يحبّانكما ويبذلان حياتيهما من أجلكما". آه! لم أر في حياتي أمي مسرورة كما كانت مسرورة عند سماعها هذه الكلمات. ولم يسبق لها أن قبّلت جبهتينا كما قبلتهما هذه المرّة وهي تضحك وتبكي ولا تستطيع أن تتكلّم. ثمّ إنّها أكّدت لسيلفيا أنّها فهمت الأمر بصورة خاطئة، وأنّنا لم نصل لحسن الحظّ إلى هذه الدرجة التي ظنّتها، ثمّ شكرتنا مائة مرّة، وظهرت سعيدة طيلة الأمسية حتّى عاد أبي وأخبرته بكلّ شيء. لم يفتح أبي فاه، يا لأبي المسكين! لكنّنا هذا الصباح شعرنا ونحن نجلس إلى مائدة الطعام... بسرور وبحزن كبيرين: وذلك عندما وجدت تحت غطاء الطاولة علبتي كما وجدت سيلفيا مروحتها.

الحريق

الخميس 11

أنهيت هذا الصباح نسخ ما يخصّني من رواية "من جبال الابنين إلى جبال الأنديز" وكنت بصدد البحث عن موضوع للإنشاء الحرّ الذي كلّفنا به الأستاذ، حين سمعت أصواتا غير معهودة على الدرج، ودخل بعدها البيت اثنان من رجال الإطفاء، وطلبا من أبي السماح لهما بتفتيش المدافئ والمداخن لأنّ هناك حريقا في مدخنة على السطح لا يعرف لمن هي. قال أبي: "فلنفعل". ومع أنّه لم تكن في بيتنا أيّ نار مشتعلة، فقد حاولا البحث بين الغرف، كما وضعا آذانهما على الجدران ليسمعا إذا كان هناك هسيس نارٍ داخل المداخن التي تعبر البناء حتى السطح. قال لي أبي بينما كان الرجلان يتجولاّن بين الغرف: "هاك يا أنريكو موضوع إنشاء لك: رجال الإطفاء. حاول أن تكتب ما سأحكيه لك. لقد رأيتهم مرّة قبل سنتين وهم يعملون عندما خرجت في الليل متأخّرا من مسرح بابلو. ما إن أصبحت في شارع روما حتّى رأيت ضوءا غريبا وموجة من الناس الذين يجرون. كان هناك بيت يحترق، وكانت ألسنة اللهب تتطاول، وسحب الدخان تتدفّق من النوافذ والأسطح، وكان رجال ونساء يطلّون من النوافذ والشرفات ثمّ يغيبون وراءها وهم يطلقون صرخات يائسة، وكانت هناك فوضى كبيرة أمام المدخل: إنّهم يحترقون أحياء! النجدة! يا رجال الإطفاء! في تلك اللحظة وصلت عربة وقفز منها أربعة رجال إطفاء كانوا أوّل من وجد في مبنى المحافظة فهرعوا بسرعة بالغة إلى البيت. ما إن دخلوا البيت حتّى شاهدتُ أمرا مرعبا، فقد أطلّت امرأة تصرخ من نافذة الطابق الثالث وتمسّكت بسورها ثمّ قفزت فوقه وبقيت متعلقة به وكأنّها تتأرجح في الفضاء وظهرها نحو الخارج وهي منحنية تحت دخان ولهب يخرجان من الغرفة ويكادان يلامسان رأسها.

أطلق الناس صرخة رعب، بينما أوقف السكّان المرعوبون رجال الإطفاء في الطابق الثاني، فاقتحموا الجدار إلى داخل إحدى الغرف، وعندها علت مئات الصيحات محذّرة: إلى الطابق الثالث! إلى الطابق الثالث! كانت النار تتلظى بينما تساقطت أعمدة السقف وتسلّل اللهب إلى الممرّات وأصبح الدخان خانقا. ولم يبق من طريق للوصول إلى السكان الذين حبستهم النيران إلاّ عن طريق السطح.

لم يتوانوا عن اقتحام السطح، وشوهد بعد دقيقة واحدة شيء كالشبح الأسود يقفز على قطع الآجرّ بين سحب الدخان. كان عريف الإطفاء الذي كان أوّل من وصل. لكنّ الوصول إلى ناحية السطح المجابهة للمنطقة التي أغلقتها النيران كان يتطلّب منه المرور فوق حيّز ضيّق جدّا بين النافذة والمزراب الذي كان مغطّى بالثلج والجليد بشكل لا يسمح له بالتشبّث. لذلك، صاح الناس في أسفل البناء قائلين: "لا يمكنه أن يمرّ!". لكنّ العريف تقدّم على حافّة السطح فاقشعرّت أبدان الجميع وهم يتابعون المشهد مقطوعي الأنفاس. لكن، ما إن عبر حتى تعالت في السماء صيحات الابتهاج لتحيّيه. استأنف العريف تقدّمه، وعندما وصل إلى النقطة المهدّدة رفع فأسه وانهال بها بشراسة يكسر الآجرّ والأعمدة وحديد الحواجز بغية شقّ فتحة كي يتمكن من الانزلاق عبرها إلى الأسفل. هذا بينما بقيت المرأة متدلّية خارج النافذة، وبدأ اللهب يحتدم حول رأسها، ولم تبق إلاّ دقيقة حتى تسقط على الطريق. تمّ شقّ الفتحة، وشوهد العريف وهو ينزع حزام الكتف ويتدلّى إلى الأسفل، وقد تبعه رجال الإطفاء الآخرون حالما وصلوا إليه. في تلك اللحظة، وصل حامل طويل للسلالم، ونُصب وأُسند إلى حافّة سطح البناء أمام النوافذ التي كانت تنطلق منها الصيحات الجنونيّة وأعمدة اللهب. ظنّ الجميع أن الوقت قد تأخّر فصاح بعضهم: لن ينجو أحد. لقد احترق رجال الإطفاء. انتهى الأمر. مات الجميع. لكنّ شبح العريف الأسود ظهر من جديد مُضاء بالنيران من تحته وهو على حاجز النافذة، وعندما تعلّقت المرأة بعنقه أحاط خصرها بكلتا يديه، وسحبها نحوه ثمّ وضعها في الغرفة. صاح الناس بآلاف الأصوات فطغت أصواتهم على فحيح الحريق. والآخرون؟ كيف النزول؟ خاصّة وأن السلّم المنصوب على نافذة أخرى كان لا يزال بعيدا عن

المكان. كيف يمكنه أن يتشبّث به؟ كان هذا يقال بينما خرج واحد من رجال الإطفاء من النافذة، ووضع قدمه اليمنى على مقدّمتها واليسرى على السلّم وبقي منتصبا في الهواء وبدأ يعانق الناس المحاصرين واحدا تلو الآخر، والآخرون يبرزون له من الداخل وهو يناولهم لزميله الذي صعد من الشارع؛ فسندهم هذا إلى الأوتاد، ثمّ ساعدهم على النزول واحدا تلو الآخر ليتلقّاهم زميل له آخر أسفل السلّم. كانت في المقدّمة امرأة الحاجز الحديديّ ثمّ طفلة ثمّ رجل عجوز. وصل الجميع سالمين. نزل بعد العجوز رجال الإطفاء الذين بقوا في الداخل، وكان آخرهم العريف الذي كان أوّل من صعد. استقبلهم الناس بعاصفة من التصفيق. لكن، عندما ظهر الأخير، أي الذي كان في طليعة المنقذين، والذي جابه خطر السقوط قبل الجميع، والذي كان سيموت من كلّ بدّ إذا خطا خطوة خاطئة، عندها حيّته الحشود تحيّة الأبطال، وكان الجميع يهتفون ويمدّون أيديهم بتحيّة المحبّة والامتنان، بل إن اسمه الذي كان مجهولا منذ لحظات أصبح على كلّ لسان، وهتفت آلاف الأصوات به: جوزيبّه روبّينو... تلك شجاعة بالفعل... شجاعة القلب والإقدام بلا تفكير، وبلا تردّد، شجاعة المقدام الذي يندفع كالصاعقة العمياء ما إن يسمع صيحة من يوشك على الموت. سآخذك يوما يا بنيّ إلى المكان الذي يتدرّب فيه رجال الإطفاء، وسأريك العريف روبّينو لأنّك ستكون مسرورا بالتعرّف إليه، أليس كذلك؟".

أومأت بالإيجاب.

قال أبي: "هذا هو".

التفتّ بسرعة ورأيت رجلي الإطفاء اللذين عبرا الغرفة وهمّا بالخروج منها بعد انتهاء الزيارة.

أشار أبي إلى أصغرهما، وكان يتقلّد الأوسمة وقال لي: "شدّ على يد العريف روبّينو".

توقّف العريف ومدّ يده مبتسما فشددت عليها مصافحا، حيّاني بعدها وخرج.

قال لي أبي: "تذكّره جيّدا؛ لأنّه لا يوجد بين آلاف الأيدي التي ستصافحها في حياتك عشرة بقيمة يده نفسها".

"من جبال الابنين إلى جبال الأنديز"

قصّة شهريّة

قبل سنين كثيرة سافر فتى من جنوى[1] عمره ثلاث عشرة سنة وابن لأحد العمّال من جنوى إلى أميركا بمفرده، وذلك ليبحث عن أمّه.

كانت أمّه قد ذهبت قبل سنتين إلى بوينيس أيريس عاصمة جمهورية الأرجنتين لتعمل في خدمة إحدى العائلات الغنيّة ولتتمكّن من أن توفّر بسرعة بعض النقود لتساعد بها عائلتها التي أوقعتها بعض المصائب في العوز والدين. لسن قليلات أولئك النسوة الشجاعات اللاتي يسافرن في رحلات طويلة كتلك لذلك الغرض، واللائي يرجعن إلى الوطن بآلاف الليرات بعد سنين قليلة فقط؛ وذلك بفضل الأجر الكبير الذي تحصّله نساء الخدمة في تلك الأنحاء. ذرفت الأمّ المسكينة دموعا من دم عند فراق ولديها ذوَي الثمانية عشر عاما والأحد عشر عاما على التوالي. لكنّها سافرت بشجاعة مفعمة بالأمل. وكانت الرحلة سعيدة وموفّقة. وما إن وصلت إلى بوينيس أيريس حتّى ساعدها شخصٌ من جنوى، وهو أحد أقرباء زوجها كان يقيم هناك منذ زمن طويل ويملك دكّانا في هذه المدينة. ساعدها على التعرّف إلى عائلة أرجنتينيّة عاملتها معاملة حسنة ودفعت لها أجرا جيّدا. كما أنّها تمكّنت من التراسل مع ذويها بصورة نظاميّة. وقد اتّفقوا على أن يرسل الزوج الرسائل إليها عن طريق ذلك القريب، وكذلك تفعل هي بالأجوبة التي ترسلها إلى جنوى، وكان الرجل يضيف إليها سطورا من

(1) مدينة إيطالية كبيرة، ومركز منطقة ليغوريا. يشرف ميناؤها على بحر ليغوريا، وهي ضلع المثلّث الصناعي الإيطالي الذي يربطها بميلانو وتورينو. يرتبط تاريخها بعالمي البحار والتجارة، ومن أشهر شخصيّاتها كريستوفر كولومبوس وماتزيني.

عنده. كانت تربح ثمانين ليرة في الشهر ولا تنفق منها شيئا، وهكذا كانت ترسل مبلغا محترما إلى البيت كلّ ثلاثة أشهر وبشكل مكّن الزوج الذي كان رجلا شهما ونبيلا من أن يسدّد شيئا فشيئا الديون المستعجلة ليحافظ على سمعته الطيّبة. خاصّة وأنّه كان يعمل، وكان مسرورا لأحواله، ويعيش على أمل أن تعود زوجته بعد زمن قليل لأنّ البيت كان يبدو فارغا بدونها. كما كان الابن الأصغر الذي كان شديد التعلّق بأمّه غارقا في أحزانه ولم يتمكّن من الاستسلام لفراقها.

بعد عام انقضى على سفرها بهذه الطريقة، وبعد وصول رسالة مقتضبة منها ذكرت فيها أنّ صحّتها ليست على ما يرام انقطعت أخبارها. كتبوا مرّتين إلى قريبهم لكنّه لم يجبهم. كتبوا بعدها إلى العائلة الأرجنتينيّة التي كانت تعمل لديها لكنّهم لم يتلقّوا جوابا؛ ربّما لأنّ رسالتهم لم تصل أو لأنّ اسم العائلة كان مُشوّها في العنوان. خافوا بالطبع من أن تكون مصيبة قد حصلت، فكتبوا إلى القنصل الإيطالي في بوينيس أيريس يطلبون منه التحرّي عن الأمر، فأجابهم القنصل بعد ثلاثة أشهر أنّه رغم الإعلان الذي نشره في الصحف فإن أحدا لم يظهر ولا حتّى ليقدّم بعض المعلومات. ولم يكن من الممكن أن يحدث غير هذا وذلك لعدّة أسباب، كان أهمّها أنّ المرأة حاولت الحفاظ على كرامة عائلتها ولم تعط العائلة الأرجنتينيّة اسمها الفعلي؛ لأنّ عملها في الخدمة بدا كما لو أنه يلطّخ اسم العائلة. مرّت أشهر أخرى ولم يتسرّب أيّ خبر. قلق الأب والابن وغرق الصغير في حزن لم يتمكّن من التغلّب عليه. ما العمل إذا؟ إلى من اللجوء؟ كان أول ما خطر للأب هو فكرة السفر، أي الذهاب للبحث عن زوجته في أميركا. غير أنه فكّر في العمل، وتساءل عمّن سينفق على أولاده خلال تلك الفترة. ولم يكن بوسع الابن الكبير أيضا أن يسافر لأنّه بدأ هو أيضا يكسب لقيمات العيش بعمل جديد ضروريّ للعائلة. عاشوا في عذاب هذه الدوّامة، وكرّروا كلّ يوم هذا الحديث المؤلم، أو كانوا ينظرون الواحد للآخر بصمت بليغ. وذلك إلى أن قال الصغير ذات مساء بحزم: "سأذهب أنا إلى أميركا لأبحث عن أمّي". أطرق الأب برأسه ولم يحد جوابا. كان هذا بادرة جميلة لكنّه أمر غير قابل للتطبيق. فكيف لفتى في الثالثة عشرة من عمره أن

يتحمّل وحيدا عناء السفر في رحلة تطول شهرا حتى يصل إلى أميركا!؟ غير أنّ الفتى أصرّ وأصرّ بصبر وأناة. أصرّ يومها وفي اليوم التالي وخلال الأيام كلّها، وعبّر عن إصراره بهدوء وحاكم الأمر محاكمة الرجال العقلاء البالغين. قال إنّ الكثيرين غيره سافروا وبعضهم أصغر منه، وتابع: "متى صرت على متن السفينة فلا بد أن أصل كما يصل غيري. وعندما أصل ما عليّ إلاّ أن أبحث عن دكّان قريبنا. يوجد هناك الكثير من الإيطاليين وسيهديني بعضهم إلى الطريق. وعندما أجده فإنّي سأجد أميّ أيضا. وإلاّ فإني سأذهب لعند القنصل وأبحث عن العائلة الأرجنتينيّة. ومهما حدث فهناك عمل للجميع هناك، وسأجد أنا أيضا عملا أربح منه ما يكفي على الأقلّ لدفع نفقات عودتي". وبهذه الطريقة، كاد يتمكّن شيئا فشيئا من إقناع أبيه. كان أبوه يحترمه، وكان يعرف أنّه يتمتّع بالحكمة والشجاعة، وأنّه اعتاد ظروف العوز والتضحيات، وفي هذا جودةٌ تدخل إلى قلبه قوّة مضاعفة تساعده على تحقيق غرضه السامي في العثور على أمّه التي كان يحبّها كثيرا. ثمّ أضاف قائلا إنّ قائد سفينة من أصدقاء أحد معارفه التزم بعدما سمع شيئا عن هذه القصّة بتقديم بطاقة سفر في الدرجة الثالثة يصل بها الفتى حتّى الأرجنتين. عندها وبعد قليل من التردّد، وافق الأب وتمّ إقرار السفر. مُلئت حقيبة ملابس، ووُضع في جيبه بعض النقود، وأعطياه عنوان قريب العائلة، ثم وضعاه على متن السفينة في مساء يوم جميل من أيّام نيسان. وعلى درج السفينة التي كانت في طريقها للإقلاع قال له الأب وهو يقبّله قبلة أخيرة وقد ابتلّت عيناه بالدموع: "تشجّع يا ماركو، يا بنيّ الحبيب. إنّك تسافر بهدف سامٍ فلا بد أن يساعدك الله".

مسكينٌ ماركو! كان له قلبٌ قويّ مهيأٌ لأقسى تجارب هذه الرحلة، لكنّه شعر بإحباط مفاجئ عندما رأى مدينته جنوى تغيب وراء الأفق ووجد نفسه في عرض البحر على متن تلك السفينة الملأى بفلاّحين مهاجرين، وهو وحيد لا يعرفه أحد وليس معه إلاّ حقيبة صغيرة تحتوي على كلّ ما بقي له من الدنيا. بقي ليومين كاملين رابضا كالكلب على سطح السفينة، لم يأكل إلاّ لماما وهو يكبح رغبته العميقة في البكاء. كانت تمرّ في ذهنه كلّ أنواع الأفكار الحزينة،

وكان أشدّها إيلاما أكثرها تردّدا في رأسه؛ أنّ أمّه قد ماتت. في أحلامه المتقطّعة الحائرة، كان كثيرا ما يرى وجها مجهولا يحدّق فيه بنظرات مشفقة قبل أن يهمس في أذنه: أمّك ماتت. وكان يستيقظ عندها وهو يكبت صراخه. عندما عبرت السفينة مضيق جبل طارق واستطاع رؤية المحيط الأطلسي، استعاد بعض الشجاعة والأمل؛ لكن لفترة قصيرة. إذ إنّ ذلك البحر مترامي الأطراف متشابه الصور، وذلك الحرّ المتزايد، وأحزان كلّ أولئك الناس المساكين المحيطين به، ومشاعر الوحدة التي أنهكته، كلّها عادت لتحطّم معنويّاته من جديد. تتابعت الأيّام التالية أيضا فارغة ومتشابهة؛ فاختلطت في ذهنه الصور كما يحدث في أذهان المرضى. وبدا له أنّ سنة كاملة قد مضت عليه وهو في عرض البحر. وفي كلّ صباح عندما كان يستيقظ كانت تعتريه دهشة جديدة لأنّه مسافر إلى أميركا وحيدا، وفي عرض محيط عملاق ووسط هذا الكمّ الضخم من المياه. أمّا الأسماك الطائرة الجميلة التي كانت تسقط من حين لآخر على سطح السفينة، ومناظر الغروب المداريّة الرائعة بغيومها الضخمة الملوّنة بألوان الدم والجمر، والفسفرة الليليّة التي كانت تُظهر المحيط كأنّه بحرٌ من حممٍ بركانيّة مشتعلة، فلم تكن تعطيه الإحساس بأنّها أمور حقيقيّة، بل وعلى العكس من ذلك، كانت تبدو له كأنّها من عجائب الأحلام. وفي الأيّام ذات الطقس السيّئ، كان يشعر أنّ ساعته الأخيرة قد حانت، خاصّة أنّه كان مسجونا في المهجع طيلة النهار، يرى الأشياء تتراقص حوله وتشتعل من شدّة الحرّ، ويسمع كذلك أصوات جوقة الرعب تعلو على أنغام الأنّات والعويل والصراخ واللعنات. كانت هناك أيّام أخرى كان البحر يبدو فيها هادئا مصفرّا، فكانت تسبّب له ضجرا كبيرا بحرّها الذي لا يطاق وساعاتها الطويلة المؤلمة. آنئذ كان الركّاب المنهكون يستلقون على الألواح بلا حراك فيبدون كالأموات. وكانت الرحلة تبدو بلا نهاية. بحر وسماء، سماء وبحر، اليوم مثل البارحة، وغدا مثل اليوم. دائما وأبدا وحتى الأبد. كان يستند لعدّة ساعات على حاجز المتراس وهو يتأمّل بدهشةٍ ذلك البحر اللامتناهي، ويفكّر بأمّه تفكيرا مبهما غامض المعالم، ذلك حتّى يغلق النعاس عينيه ويهبط برأسه. عندها، كان يرى من جديد ذلك الوجه المجهول

وهو ينظر إليه بعين الشفقة ويكرّر الهمس في أذنه: "لقد ماتت أمّك!". وهكذا يجفل ويستيقظ من سباته، ثمّ يعود مرّة أخرى ليحلم أحلام اليقظة ويتأمّل أفقا لا يتغيّر ولا يتبدّل.

دامت الرحلة سبعة وعشرين يوما. لكنّ آخرها كان أفضلها. كان الطقس جميلا والهواء عليلا، وكان هو قد تعرّف إلى شيخٍ عجوز طيّب من منطقة لومبارديا كان مسافرا إلى أميركا ليزور ابنه الذي يعمل في فلاحة الأرض قرب مدينة روزاريو. وبعد أن حكى له كل شيء عن بيته، كان العجوز يربت على كتفيه ويكرّر على مسمعيه من حين لآخر قائلا: "تشجّع يا فتى، ستجد أمّك سليمة ومسرورة". كانت صحبة العجوز تسلّيه، فتحولّت مخاوفه الحزينة إلى مشاعر سرور. وهكذا، كان يجلس على سطح السفينة إلى جانب العجوز اللومبارديّ وسط مجموعات من المهاجرين الذين كانوا يغنّون، وكان يتخيّل مئات المرّات مشهد وصوله إلى بوينيس أيريس وعثوره على ذلك الشارع وفيه ذلك الدكّان فيندفع نحو قريبه ويسأله: كيف حال أمّي؟ أين هي؟ لنذهب في الحال إليها! لنذهب في الحال! ثمّ يجريان معا، ويصعدان الدرج فيفتحون لهما الباب... وهنا يتوقّف حواره الأخرس مع نفسه، ويضيع خياله في مشاعر حنان لا توصف، فيسحب خفية الأيقونة الصغيرة المدلاّة من عنقه ثمّ يقبّلها.

وصلوا في اليوم السابع والعشرين من يوم السفر. كان فجرا جميلا محمرّ اللون من شهر أيّار. حينها، ألقت السفينة مرساتها في نهر بلاتا الكبير على الشاطئ الذي تمتدّ عليه مدينة بوينيس أيريس الواسعة؛ عاصمة جمهورية الأرجنتين. بدا له أنّ هذا الطقس الرائع يبشّر بحسن الفأل. وقد جنّ بالفعل من شدّة الفرح ونفاد الصبر. لقد أصبحت أمّه على بعد كيلومترات قليلة منه! لا بد أن يراها بعد ساعات قليلة. إنّه الآن في أميركا، في العالم الجديد، وقد تمكّن بشجاعته من الوصول إليها بمفرده. وبدا له أنّ رحلته الطويلة قد تلاشت في العدم. بدا له أنّه طار في الحلم واستيقظ في هذا المكان. كان سعيدا سعادة أنسته أن يدهش أو أن يحزن بعدما دسّ يده في جيبيه فلم يجد إلاّ واحدة من الصرّتين اللتين وزّع فيهما نقوده القليلة خوفا من أن يضيّعها كلّها معا. لقد

سرقوه ولم تبق معه إلاّ ليرات قليلة، لكن لا يهم ذلك الآن وهو الآن قريب من أمّه. حمل حقيبته بيده ونزل مع إيطاليّين كثيرين آخرين إلى زورق بخاريّ قادهم إلى مقربة من الشاطئ، ثمّ نزل من الزورق إلى قارب اسمه آندريا دوريا أخذه إلى الميناء، فحيّا صديقه اللومبارديّ العجوز وذهب يحثّ خطاه نحو المدينة. عندما وصل إلى مدخل أوّل شارع أوقف رجلا مارّا ورجاه أن يدلّه على الوجهة التي تقود إلى شارع الفنون (لوز آرتيز). كان من حسن حظه أنّه أوقف عاملا إيطاليّا. نظر إليه هذا بفضول وسأله إذا كان يعرف القراءة. أومأ الفتى بالإيجاب. فقال له العامل وهو يشير إلى الشارع الذي خرج منه: "حسنا، اذهب على طريق مستقيم إلى الأمام، واقرأ أسماء الشوارع في كلّ اللوحات وستجد الشارع الذي تقصده". شكره الفتى واتّجه إلى الشارع الذي ينفتح أمامه.

كان الشارع مستقيما وطويلا، لكنّه ضيّق تحيطه من جانبيه بيوت بيضاء منخفضة تبدو كأنّها فلل متلاصقة. وكان مليئا بالناس والعربات والحافلات الكبيرة التي تحدث ضجيجا صاخبا، فيما تتدلّى هنا وهناك لوحات كبيرة بمختلف الألوان كتبت عليها بأحرف ضخمة إعلانات عن رحلات السفن إلى مدن مجهولة. عند كلّ تقاطع في الشارع كان يتلفّت يمنة ويسرة فيرى شارعين آخرين يمتدّان مستقيمين على مدى النظر، تحيط بهما أيضا بيوت بيضاء منخفضة، وكانا مليئين بالناس والحافلات، يقطعهما في نهايتهما الخطّ المستقيم الذي يميّز السهول الأميركية ذات الامتدادات اللامتناهية الشبيهة بأفق البحر. بدت له المدينة لامتناهية أيضا، وبدا له أنّه لو سار أيّاما كثيرة وأسابيع كاملة وهو يرى من هنا وهناك شوارع أخرى مثل ذلك الشارع لتغطّت أميركا كلّها بذلك. كان ينظر إلى أسماء الشوارع بعناية، وكانت بينها أسماء غريبة من الصعب عليه أن يقرأها. في كلّ شارع جديد كان يشعر بقلبه يخفق ظانّا أنّه الشارع المقصود. كان ينظر إلى كلّ النساء على أمل أن يلتقي أمّه. رأى واحدة أمامه ارتجف لمرآها الدمُ في عروقه، فلحق بها ونظر إليها: كانت زنجيّة. سار وسار وهو يحثّ الخطى. وصل إلى مصلبيّة صغيرة فقرأ وتسمّر في مكانه على الرصيف. كان هذا شارع الفنون الذي يقصده. التفت فرأى الرقم 117، وكان

عليه أن يتوقّف ليستعيد أنفاسه. ثمّ قال في سرّه: آه يا أمّي! يا أمّي! هل سأراك حقّا بعد لحظات!؟ جرى إلى الأمام، ووصل إلى دكّان صغير لبيع الخرداوات. كانت هي. أطلّ فرأى امرأة شعرها رماديّ وتضع نظارة.

سألته تلك بالإسبانيّة: "ماذا تريد يا فتى؟".

قال بهمسٍ وبعد تردّد: "أليس هذا دكّان فرانشيسكو ميريللي؟".

فأجابت المرأة بالإيطالية: "فرانشيسكو ميريللي مات".

أحسّ الفتى وكأنّ ضربة صعقت صدره.

- متى مات؟

أجابت المرأة: "إيه، منذ فترة، منذ أشهر. ساءت أعماله فهرب. قالوا إنّه ذهب إلى باهيّا بلانكا، بعيدا جدّا من هذا المكان. لكنّه مات عندما وصل. هذا دكاني".

بهت الفتى وامتقع لونه.

ثمّ قال على عجل: "كان ميريللي يعرف أمّي. كانت أمّي تعمل هنا لدى السيّد ميكوينيز. وكان هو وحده الذي يستطيع أن يدلّني عليها. لقد جئت إلى أميركا لأبحث عن أمّي، وكان ميريللي يعطيها رسائلنا. يجب أن أجد أمّي".

أجابت المرأة: "يا للفتى المسكين! لا أدري. يمكنني أن أسأل الفتى في الرواق؛ فلربّما كان يعرف شيئا عن الأمر".

ذهبت إلى آخر الدكّان، ونادت الفتى الذي جاء في الحال، فسألته صاحبة الدكّان: "هل تذكر شيئا عن صبيّ ميريللي الذي كان يوصل الرسائل إلى خادمة في بيت واحد من أبناء البلد؟".

فأجاب الفتى: "أجل أيتها السيدة، كان يذهب أحيانا لعند السيد ميكينيز في آخر شارع الفنون".

هتف ماركو: "آه، شكرا يا سيّدتي! أخبرني عن الرقم، هل تعرفه؟ فليصطحبني رجاء. اصطحبني يا فتى، ما زال معي بعض النقود".

قال هذا بحميّة واضحة، حتّى إنّ الفتى لم ينتظر طلبا من السيّدة، بل أجاب في الحال: "هيّا بنا". ثمّ سبقه وخرج بخطى سريعة.

سارا سيرا كاد يكون جريا، ووصلا حتى نهاية الشارع الطويل، ودخلا أوّل الرواق الذي يتصدّر بيتا صغيرا أبيض، وتوقّفا أمام باب حديديّ جميل يتكشّف عن ممرّ صفّت على جانبيه أصص الورود. شدّ ماركو حبل الجرس في الحال.

ظهرت سيّدة.

فسأل الفتى متلهّفا: "هنا بيت عائلة ميكينيز، أليس كذلك؟".

أجابت السيّدة بإيطاليّةٍ تبدو إسبانيّة: "كانوا هنا. أمّا الآن فنحن نسكن هنا، عائلة تزيبالّوس".

فسأل ماركو وقلبه يخفق: "وإلى أين ذهبت عائلة ميكينيز؟".

- ذهبوا إلى قرطبة.

فصاح ماركو: "قرطبة! أين قرطبة؟ والخادمة التي كانت عندهم؟ المرأة، أميّ. الخادمة كانت أمّي! هل أخذوا معهم أمّي أيضا؟".

نظرت إليه السيّدة وقالت: "لا أعلم، لكنّ أبي شاهدهم عندما سافروا، ربّما كان يعلم، انتظرا لحظة".

ذهبت ثمّ عادت برفقة أبيها، وكان سيّدا طويل القامة رماديّ اللحية. نظر الأب للحظة إلى ذلك الفتى الصغير اللطيف الذي بدا بحّارا جنويّا، أشقر الشعر ومعقوف الأنف، ثمّ سأله بإيطالية مكسّرة: "هل أمّك من جنوى؟".

فأجاب الفتى بنعم.

- حسنا، الخادمة الجنويّة ذهبت معهم. أعلم هذا يقينا.

- إلى أين ذهبوا؟

- إلى قرطبة، مدينة.

تنهّد الفتى وقال مستسلما: "سأذهب إذا... إلى قرطبة".

فهتف السيّد بالإسبانيّة وهو ينظر إليه بشفقة: "آه، بوبرو نينو، يا للفتى المسكين! قرطبة تبعد أكثر من مائة كيلومتر من هنا".

امتقع وجه ماركو كالأموات، واستند بيده إلى الباب الحديديّ.

حرّكت الشفقة قلب ذلك السيّد، فقال وهو يفتح له الباب: "ادخل للحظة، فلنر إذا كان بوسعنا أن نفعل شيئا". ثم أجلسه فجلس، وجعله يقصّ عليه كلّ

حكايته، واستمع له بانتباه شديد ثمّ صمت قليلا وقال له بعد ذلك بلهجة قاطعة: "لم يبق معك نقود إذا، أليس كذلك؟".

أجاب ماركو: "ما زال معي... بعضها".

فكّر السيّد لمدّة خمس دقائق، ثم ذهب نحو طاولته وكتب رسالة وأغلقها وأعطاها للفتى وقال له: "اسمع أيّها الإيطالي الصغير، اذهب بهذه الرسالة إلى بوكا؛ وهي مدينة صغيرة تجد فيها ريحَ جنوى، وهي على بعد ساعتين من هنا. سيدلّك الجميع على الطريق. اذهب إلى هناك وابحث عن السيّد الذي وجّهت له هذه الرسالة، وهو شخص معروف من قبل الجميع. أعطه هذه الرسالة وهو سيساعدك على السفر غدا إلى مدينة روزاريو، وسيوصي بك أشخاصا هناك ليساعدوك على الوصول إلى مدينة قرطبة حيث ستجد عائلة ميكوينيز وأمّك معها. خذ الآن هذا! ووضع في يده بضع ليرات. اذهب وكن شجاعا، يوجد هنا الكثيرون من بلدك، ولن تبقى وحيدا ومهجورا. آديِوُس (وداعا)".

قال له الفتى وقد حار في أمره كيف يجيبه: "شكرا!". ثمّ خرج بحقيبته، وودّع دليله، وسار عبر المدينة الكبيرة الصاخبة بخطى بطيئة نحو بوكا وهو حزين وشارد الذهن ومحتار.

كلّ ما حدث له منذ تلك اللحظة وحتّى مساء اليوم التالي مرّ في ذهنه مشوّشا مضطربا كهذيان المحموم، فقد أخذ منه الوهن كلّ مأخذ، واستولت عليه الحيرة والكآبة. نام في اليوم التالي عند الغروب، في غريفة بيتٍ في بوكا إلى جانب حمّال يعمل في الميناء، ثمّ أمضى كلّ نهاره جالسا كالحالمين على كومة من الأعمدة أمام آلاف السفن والزوارق البخاريّة والقوارب. جلس على سطح قارب شراعيّ كبير محمّل بالفواكه في طريقه إلى مدينة روزاريو يقوده ثلاثة بحّارة من جنوى ضخام الأجساد لوّحت وجوههم الشمس، لكنّ أصواتهم ولهجتهم المحبّبة إلى قلبه أدخلت بعض العزاء على نفسه.

سافروا، ودامت الرحلة ثلاثة أيّام وأربع ليالٍ، أمضاها المسافر الصغير في حيرة ودهشة. ثلاثة أيّام وأربع ليالٍ عبر ذلك النهر الرائع، نهر بارانا، الذي إن قورن بنهر البو الإيطالي الكبير فسيبدو البو مجرّد ساقية صغيرة؛ لأنّ هذا

أطول بأربعة أضعاف أو أكثر من إيطاليا بكاملها. كان القارب يمخر ببطء عباب المياه اللامتناهية بعكس مجرى النهر. كان القارب يسير وسط جزر طويلة كانت وكر ثعابين ومأوى نمور، تغطّيها أشجار البرتقال والصفصاف التي تبدو كغابات عائمة، ودخل عبر أقنية ضيّقة بدا وكأنّه لن يخرج منها، ثمّ خرج إلى مساحات واسعة من المياه شبيهة بالبحيرات الهادئة، ثمّ ها هو من جديد بين الجزر وأقنية الأرخبيل المتداخلة وأكوام ضخمة من النباتات. كان الصمت العميق يسود المكان، وكانت الشواطئ المترامية والمياه الواسعة التي تنتشر على مسافات طويلة توحي بالوحدة وتعطي الانطباع بأنّ النهر نهر مجهول يمخره هذا الشراع المسكين وكأنّه أوّل شراع في العالم يخاطر ويمخره. وكلمّا تقدّموا أكثر أرعبه ذلك النهر المخيف. تخيّل أنّ أمّه موجودة على منابعه، وأنّ هذا الإبحار سيدوم سنين طويلة. كان يأكل مرّتين في اليوم الخبز واللحم المملّح برفقة البحّارة الذين لم يوجّهوا له أيّ كلام لأنّهم رأوه حزينا. في الليل نام على السطح، وكان من حين لآخر يستيقظ مذعورا وقد أدهشه ضياء القمر الصافي الذي كان ينير المياه المترامية والشواطئ البعيدة. كان قلبه عندها ينقبض. قرطبة! كان يكرر الاسم. قرطبة! مثل اسم مدن أسطورية غامضة سمع كلاما عنها في حكايا الأساطير. ثمّ كان يفكّر: لا بد أنّ أمّي مرّت من هنا، ورأت هذه الجزر وتلك الشواطئ. عندها، كانت لا تبدو له غريبة ولا وحيدة منعزلة تلك الأماكن التي وقع عليها نظر أمّه... في الليل غنّى أحد البحّارة، فذكّرته تلك الأغنية بأغاني أمّه عندما كان طفلا وكانت تغنّي له لينام. في الليلة الأخيرة انفجر بالبكاء عند سماعه تلك الأغنية. فتوقّف البحّار عن الغناء وصاح به بلكنة أهل جنوى: "تشجّع! تشجّع يا بنيّ. هل واحد من جنوى يبكي لأنّه بعيد عن بيته! إن أهل جنوى يجوبون العالم منتصرين!". انتفض عند سماعه هذا الكلام، وشعر بدم جنوى يجري في عروقه فرفع رأسه بكبرياء وضرب بقبضته على دفّة القارب. حسنا، لو كان عليّ أنا أيضا أن أجوب العالم كلّه، وأن أسافر وأبحر لسنوات وسنوات، وأن أقطع مئات الكيلومترات سيرا على الأقدام، فإنّي سأفعل هذا حتى أجد أمّي. حتّى لو وصلتُ محتضرا ووقعت ميتا عند قدميها؛ على أن أراها مرّة واحدة!

تشجّع! بهذه الروح وصل في فجر يوم ورديّ بارد إزاء مدينة روزاريو الواقعة على الشاطئ العالي لنهر بارانا حيث تنعكس على المياه صواري أعلام مائة زورق من كلّ البلدان.

نزل من القارب والحقيبة في يده، وبدأ في البحث عن سيّد أرجنتينيّ أرسل إليه وصيّ الفتى من بوكا بطاقة زيارة عليها بضع كلمات توصية. بدت له روزاريو عندما دخلها مدينة معروفة؛ كما لو أنه سبق له أن رآها من قبل. كانت فيها الشوارع المستقيمة الطويلة نفسها المحاطة ببيوت منخفضة بيضاء تتقاطع في كلّ اتّجاهاتها وفوق الأسطح مع حزمٍ من خطوط الهاتف والبرق كانت تتشابك مثل خيوط عنكبوتيّة ضخمة. وكان يسمع فيها صخب حركات الناس والأحصنة والعربات. هل اختلطت في رأسه الأشياء وحسب وهو في بوينيس أيريس مرّة أخرى وعليه أن يبحث عن قريبه من جديد؟ جال حوالى ساعة وهو ينعطف هنا وينعطف هناك فيظنّ أنّه عاد إلى الشارع نفسه، لكنّه لكثرة ما سأل وجد في النهاية وصيَّهُ الجديد. سحب الجرس فأطلّ من الباب رجل ضخم أشقر مقطبّ الوجه له طلعة عامل وسأله بفظاظة وبلهجة أجنبيّة:

- ماذا تريد؟

لفظ الفتى اسم ذلك السيّد.

فقال العامل: "لقد سافر السيّد منذ البارحة إلى بوينيس أيريس مع كل العائلة".

لم يستطع الفتى أن ينبس بكلمة يجيب بها.

ثم تمتم قائلا: "لكنّي... لا أعرف أحدا هنا! إنّي وحيد! ثمّ عرض عليه البطاقة".

أخذها العامل وقرأها ثمّ قال بفظاظة: "لا أعرف ماذا أفعل بها. سأعطيه إيّاها بعد شهر عندما يعود".

فقال الفتى بلهجة الرجاء: "لكنّي... وحيد هنا! أنا بحاجة...".

فقال الآخر: "هيّا! هيّا بنا! هناك ما يكفي من حثالة بلدك في روزاريو! اذهب من هنا واشحذ في إيطاليا". ثم أغلق الباب في وجهه.

وقف الفتى وكأنّه قد تحجّر.

ثم تناول حقيبته ببطء وخرج بقلب مكلوم وذهن مضطرب تغزوه كلّ حين ألف خاطرة منهكة. ما العمل؟ هناك يوم سفر بالقطار من روزاريو إلى قرطبة. ولم تبق في جيبه إلا ليرات قليلة، بل ولن يبقى منها شيء تقريبا بعد أن ينفق مصروف ذلك اليوم. فأين سيجد الدراهم ليسدّد كلفة الرحلة؟ بإمكانه أن يعمل. لكن، كيف؟ من عليه أن يسأل لكي يعطيه عملا؟ هل سيطلب الصدقة؟ آه! ألف لا! يمكن أن يصدّوه، وأن يذلّوه كما فعل ذلك الشخص قبل قليل. لا، لا، أبدا، أبدا مرّة أخرى، فالموت أفضل! أُسقط في يد الفتى أمام هذه الفكرة، وتخاذل أمام منظر الشارع الطويل الذي يمتدّ إلى أفق بلا نهاية. فقد كلّ شجاعة يملكها، وألقى حقيبته على الرصيف وجلس عليها، وأسند ظهره إلى الجدار، وأحنى رأسه بين راحتي يديه، ولم يبك، بل غرق في هذا الوضع اليائس.

كان الناس يصدمونه بأقدامهم وهم يمرّون قربه، بينما صرير العربات يملأ الشارع بالضجيج، وتوقّف بعض الفتية ينظرون إليه. وبقي هو لفترة على وضعه هذا.

إلى أن هزّه صوت يقول له بلهجة بين الإيطاليّة ولكنةِ منطقة لومبارديّا: "ما بك أيّها الفتى؟".

رفع رأسه عند سماعه ذلك الصوت، وقفز على قدميه وهو يهتف من الدهشة: "أأنت هنا!؟".

كان ذلك هو الفلاّح العجوز اللومبارديّ الذي عقد معه صداقة خلال الرحلة.

لم تكن دهشة الفلاّح أقلّ من دهشته. لكنّ الفتى لم يترك له الوقت الكافي كي يسأله، بل أسرع وأخبره بكلّ أموره. "وها أنذا الآن بدون نقود، لذلك يجب أن أعمل. ساعدني في العثور على عمل أربح منه بعض النقود، إنّي على استعداد لأن أعمل أي شيء: حمّالا، كنّاس شوارع، أجيرا، بل وحتّى في البساتين: يكفي أن يقدّموا لي خبزا أسود وأن أسافر بأسرع وقت لأجد في النهاية أمّي. اصنع لي هذا المعروف. أحسن إليّ وساعدني في البحث عن عمل، بل جد لي عملا

حبّا بالله، فلقد تعبت ولا أستطيع الاستمرار على هذا الوضع!".

أجابه الفلاّح وهو يتلفّت حوله ويحكّ ذقنه: "تبّا! من كلّ بد! ما هذه القصّة!؟... العمل... ما أهون هذا الكلام! فلنرَ، أليست هناك وسيلة لإيجاد ثلاثين ليرة بين كلّ أبناء البلد مجتمعين؟".

نظر إليه الفتى وقد ارتاح لهذا البصيص من الأمل.

فقال له الفلاّح: "تعال معي".

فسأله الفتى وهو يستعيد حقيبته: "إلى أين؟".

- تعال معي.

تحرّك الفلاّح ولحق به ماركو، وسارا لمسافة في الشارع صامتيْن دونما كلام. وقف الفلاّح أمام باب مقهى رسمت على لافتته نجمة كتب تحتها بالإسبانيّة: "نجمة إيطاليا". دسّ وجهه في الداخل، ثم التفت وقال للفتى مسرورا: "وصلنا في الوقت المناسب". ولجا صالة كبيرة فيها طاولات مختلفة يجلس إليها رجال كثيرون يشربون ويتحادثون بصوت مرتفع. اقترب العجوز اللومبارديّ من أوّل طاولة، وفُهم من الطريقة التي حيّا بها الزبائن الستّة المتحلّقين حولها أنّه كان بصحبتهم منذ وقت قليل مضى. كانت وجوههم حمراء، وكانوا يحتسون الشراب وهم يثرثرون ويتضاحكون.

بقي اللومبارديّ واقفا على قدميه، وقال من دون مقدّمات وهو يقدّم ماركو: "يوجد بيننا فتى مسكين جاء بمفرده من بلدنا جنوى إلى بوينيس أيريس ليبحث عن أمّه. أخبروه في بوينيس أيريس بأنّها ليست هناك بل في قرطبة. فجاء بالقارب إلى روزاريو وأمضى ثلاثة أيّام وثلاث ليالٍ ومعه بطاقة كتب عليها سطران للتوصية، لكنّهم أساءوا استقباله عندما قدّم البطاقة. ولم يبق معه فلس واحد. ها هو الآن وحيد يائس، إنّه فتى ذو قلب طيّب. فلنر، هل بإمكانه أن يدفع ثمن بطاقة يسافر بها إلى قرطبة ليجد أمّه؟ هل بوسعنا أن نتركه وحيدا كالكلب؟".

هتف الجميع بصوت واحد وهم يضربون بقبضاتهم على الطاولة: "يا الله! على الإطلاق! لن يحدث هذا أبدا! فتى من بلدنا! تعال إلى هنا أيّها الصغير.

نحـن هنـا، نحـن مهاجـرون! انظر كم هو رائع هذا الصبـيّ! أخرجوا الدراهم يا رفاق". "مرحى أيّها الفتى، لقد جئت وحدك! ما أشجعك! سنرسلك إلى أمّك، لا تقلق". قرصه هذا من خدّه، وربت ذاك على كتفه، ورفع ثالث الحقيبة عنه، وترك مهاجرون آخرون طاولاتهم ليقتربوا منه، ودارت قصّة الفتى في أرجاء المقهى، بـل واقتـرب مـن الغرف المجـاورة ثلاثة أرجنتينيون، فجمـع الفلاّح اللومبارديّ خلال عشـر دقائق اثنتين وأربعين ليرة داخل قبّعته التي كان يمدّها إليهم. فقال الرجل عندها ملتفتا نحو الفتى: "هل رأيت ما أسرعنا في أميركا؟". وصـاح آخر وهو يقدّم له كأس شـراب: "اشـرب، في صحّة أمّك". فرفع الجميع كؤوسـهم، وكـرّر ماركـو: "في صحّة...". لكنّ حشـرجة الفـرح خنقت الصوت في حنجرته فأعاد الكأس إلى الطاولة وارتمى على عنق العجوز.

في الصباح التالي، عند إشـراقة النهار كان في طريقه إلى قرطبة، ضاحكَ الوجه، وجريء الفؤاد، ومفعما بالأمل السعيد. لكن، ليس هناك فرح يدوم طويلا أمـام بعـض المظاهـر القاسـية للطبيعة. كان الطقس مكفهرا أسـود، وكاد القطار يكون خاليا من الركّاب وهو يجري عبر سـهل فسـيح لا أثر للسـكن فيه. كان يجلس وحيدا في عربة طويلة وفارغة تشـبه القطارات التي تنقل الجرحى. نظر إلـى اليميـن، ونظـر إلى اليسـار، ولـم ير إلا وحدة وفراغـا لامتناهيين، ومن هنا لهناك شجيرات صغيرة مشوّهةٌ، جذوعها ملتوية مثل أغصانها تنتصب في مشاهد لـم يـر لهـا مثيـلا، تصـبّ غضبا وحزنا. نباتـات متفرّقة تعطي السـهل كلّه مظهر مقبرة مدَمَّرة فسيحة الأرجاء. أخذه النعاس لنصف ساعة، ثمّ عاد لينظر فشاهد المنظر نفسه. كانت محطّات القطار منعزلة ومقفرة وموحشة كبيوت النسّاك، ولم يكن يسمع صوتا واحدا عندما كان القطار يتوقّف فيها، وبدا له أنّه وحيد على الإطـلاق فـي ذلـك القطار، بل ضائع ومهجور وسـط الصحـراء. كان يتخيّل أنّ كلّ محطّة ستكون آخر محطّة، وأنّه سيدخل بعدها مناطق المتوحّشين الغامضة المرعبة. وكان صقيع الهواء يعضّ وجهه. لم يكن أفراد عائلته يظنّون أنّه سيجد الشتاء في أميركا عندما سفّروه من جنوى في نهاية شهر نيسان المنصرم، لذلك ألبسـوه ثياب الصيف. بعد سـاعات قليلة، بدأ يعاني من البرد، ومع البرد أحسّ

بوطأة ما عاناه من تعب خلال الأيّام الماضية المليئة بالانفعالات الحادّة وليالي القلق والاضطراب. نام مرّة أخرى لفترة طويلة ليستيقظ حزينا وهو يشعر بالألم. وهنا أخذه رعبٌ غامض من أن يقع مريضا ويموت خلال الرحلة فيرمونه وحيدا وسط السهل المقفر وتأتي الكلاب والجوارح لتمزّق جثّته كما تمزّق جيف الأحصنة والأبقار التي كان يراها في بعض الأحيان على قارعة الشوارع فيغضّ الطرف عنها قرفا واشمئزازا. غير أنّ مخيّلته اشتعلت بسبب سقمه وعذابه ووسط صمت الطبيعة العبوس لتهوي به في ظلامٍ حالك. هل كان واثقا بعد هذا كلّه من أن يعثر على أمّه في قرطبة؟ وماذا سيفعل إن لم تكن أصلا هناك؟ أيعقل أن يكون ذلك السيّد الساكن في شارع الفنون قد أخطأ؟ وماذا سيفعل إن كانت قد ماتت؟ عاد وسط هذه التخيّلات لينام مرّة أخرى، وحلم أنّه في قرطبة خلال الليل، وأنّه يسمع من يصرخ عليه من كلّ الأبواب ومن كلّ النوافذ ويقول له: "ليست هنا! ليست هنا!". فاستيقظ مرتعشا مرعوبا، ورأى في صدر العربة ثلاثة رجال ملتحين يلتحفون شالات بألوان مختلفة وينظرون إليه ويتهامسون في ما بينهم فراوده شكٌّ بأنّهم مجرمون يريدون قتله ليسرقوا منه الحقيبة وما فيها. وهكذا أضيف الرعب إلى البرد والألم، وعصفت بخياله المشوّش أصلا أوهامٌ زادته اضطرابا، بينما كان الثلاثة يحدّقون به ثمّ تحرّك أحدهم نحوه ففقد الفتى رشده وجرى نحوه وهو يفتح ذراعيه ويصرخ قائلا: "ليس معي شيء، لست إلاّ فتى مسكينا جئت من إيطاليا لأبحث عن أمّي، إنّي وحيد، لا تؤذوني!". فَهِم أولئك الرجال الموقف في الحال، وأشفقوا عليه، فلاطفوه وربتوا على جسمه، وحاولوا تهدئته وهم يكلّمونه بكلام كثير لم يفهم منه شيئا. وعندما رأوا أنّه يصكّ أسنانه من البرد وضعوا عليه أحد شالاتهم وأجلسوه لينام. فنام مع دخول الليل، وأيقظوه عندما صار في قرطبة.

آه! بأيّ طريقة تنفّس الصعداء. وبأيّ حماسة اندفع خارج العربة! سأل أحد موظّفي المحطّة عن مكان بيت المهندس ميكوينيز فدلّه على اسم دار عبادة، وقال له إنّ بيته قرب دار العبادة تلك، فانطلق الفتى مسرع الخطى. كان الوقت ليلا، فبدا له أنّه قد عاد إلى روزاريو مرّة أخرى بعد أن رأى تلك الشوارع

المستقيمة المحاطة بالبيوت المنخفضة البيضاء والمتقاطعة مع شوارع أخرى مستقيمة وطويلة. لكنّ عدد الناس كان قليلا، وكان يرى على ضوء المصابيح القليلة وجوها غريبة ألوانها مجهولة بين مسودّة ومخضرّة، وعندما كان يرفع رأسه من حين لآخر كان يرى دور عبادة غريبة الطراز ترتفع بعمارتها الضخمة القاتمة في عنان السماء. كانت المدينة قاتمة صامتة، لكنّه وجدها مرحة بالمقارنة مع الصحراء الواسعة التي اجتازها لتوّه. سأل رجل دين عن دار العبادة، وسرعان ما وجدها ووجد البيت المقصود، فسحب حبل الجرس بيد مرتعشة وضغط بيده الأخرى على صدره ليحبس ضربات قلبه التي كانت تصل إلى حنجرته.

جاءت عجوز وفتحت له الباب وفي يدها مصباح. لكنّ الفتى لم يتمكّن من الكلام في الحال.

فسألته تلك بالإسبانيّة: "عمّن تبحث؟".

فقال ماركو: "عن المهندس ميكوينيز".

صالبت العجوز يديها على صدرها وأجابت وهي تهزّ رأسها: "إذا، أنت أيضا تبحث عن المهندس ميكوينيز! يبدو لي أنّ الوقت قد حان لإنهاء هذه القصّة. منذ ثلاثة أشهر والناس يزعجوننا. ألم يكف أنّ الصحف قد أعلنت الخبر؟! هل علينا أن نطبعه على جدران الشوارع ونقول إن السيّد ميكوينيز ذهب ليسكن في توكومان!

قام الفتى بحركة يائسة، ثم انفجر غاضبا من شدّة حنقه. "إذا، إنها لعنةٌ! هل يجب أن أموت في الطريق قبل أن أرى أمّي!؟ سأجنّ، يا إلهي. ما اسم ذلك البلد؟ أين يقع؟ كم هي المسافة إليه؟".

أجابت العجوز وقد أخذتها الرأفة بالفتى: "يا للفتى المسكين، إنّها مجرد دعابة! يمكن أن يكون هناك أربعمائة أو خمسمائة كيلومتر، على الأقلّ".

غطّى الفتى وجهه بيديه وسأل وهو يشهق بالبكاء: "والآن... ماذا أفعل؟".

فأجابت العجوز: "ماذا تريد أن أقول لك يا بنيّ، لا أعلم حقّا".

غير أن خاطرة لمعت في ذهنها فأضافت على عجل: "اسمع، لقد تذكّرت. افعل ما سأقوله لك. انعطف عن يمين الشارع وستجد في القسم الثالث رواقا

فيه كاباتاز وهو تاجر سيسافر غدا صباحا إلى توكومان بعرباته وثيرانه، اذهب لترى إن كان يقبل بأن يأخذك معه. اعرض عليه خدماتك، فلربّما أعطاك مكانا فوق إحدى عرباته، اذهب حالا".

أمسك الفتى بحقيبته، وشكرها وهو يسرع الخطى. بعد دقيقتين كان في ردهة رواق واسعة مضاءة بالفوانيس، فيها الكثير من الرجال الذين يعملون ويحمّلون أكياس القمح على عربات ضخمة تشبه العربات التي يستعملها المهرّجون كبيوت لهم. كانت سقوفها مستديرة وعجلاتها مرتفعة، وكان هناك رجل طويل ذو شارب كبير يرتدي نوعا من المعطف الملوّن بمربّعات بيضاء وسوداء، وينتعل جزمة كبيرة، ويدير العمل كلّه. اقترب الفتى من الرجل، وطرح عليه بخجل سؤاله قائلا إنّه أتى من إيطاليا وإنّه ذاهب ليبحث عن أمّه.

ألقى الكاباتاز أي الرئيس (آمر تلك القافلة من العربات) نظرة على الفتى من رأسه إلى أخمص قدميه، ثمّ أجاب بجفاف: "لا يوجد لديّ مكان".

قال الفتى مستعطفا: "معي خمس عشرة ليرة، وسأعطيكم إيّاها كلّها، وسأعمل خلال الرحلة. سأذهب لأجلب الماء والعلف للحيوانات، وسأقوم بكلّ الخدمات. يكفيني القليل من الخبز. أفسح لي مكانا أيّها السيّد!".

عاد الكابتاز ليتفحّص الفتى ثمّ أجاب ببعض اللطف: "لا يوجد لديّ مكان. ثمّ إنّنا لن نذهب إلى توكومان بل إلى مدينة أخرى اسمها سانتياغو الأجنبيّة. يمكن أن نتركك فيها وعليك بعدها أن تسير مسافة طويلة على قدميك".

فهتف الفتى: "آه، يمكنني أن أسير ضعف تلك المسافة! إنّي أسير، لا تخشَ عليّ؛ سأصل بأيّ طريقة، أفسح لي بعض المكان أيّها السيّد، اصنع معي معروفا، أرجوك ألاّ تتركني هنا وحيدا!".

- احذر فالرحلة تدوم عشرين يوما.
- لا يهم.
- إنّها رحلة قاسية.
- سأتحمّل كلّ شيء.
- ستسافر وحدك.

- لا أهاب شيئا. عليّ أن أجد أمّي، أشفق عليّ.

قرّب الكابتاز فانوسا من وجهه ونظر إليه ثم قال: "حسنا".

فقبّل الفتى يده.

أضاف الكابتاز وهو يتركه: "ستنام هذه الليلة في عربة، وسأوقظك في الرابعة من صباح الغد. ليلة سعيدة".

في الرابعة صباحا، وعلى ضوء النجوم، تحرّك طابور طويل من العربات محدثا ضجيجا كبيرا: كانت ستة ثيران تقود كلّ عربة، ويتبع الجميع عدد كبير من الحيوانات البديلة. أيقظوا الفتى ووضعوه فوق الأكياس على إحدى العربات حيث عاد ونام في الحال نوما عميقا. وعندما استيقظ، وجد القافلة واقفة في مكان مقفر تحت الشمس، فيما كان الحمّالون متحلّقين حول ربع عجلٍ يشوونه في الهواء الطلق مغروزا في سيخ كبير على الأرض قرب نار عظيمة تنفخ فيها الريح. أكل الجميع معا، ثمّ ناموا قبل أن يستأنفوا المسير. وهكذا تواصلت الرحلة المنظّمة كرحلات الجنود. كانوا يبدأون السير كلّ صباح في الخامسة، ويتوقّفون عند التاسعة، ثم ينطلقون مجددا عند الخامسة مساء، ويتوقّفون عند العاشرة. كان الحمّالون يركبون على الخيل ويحثّون الثيران بقصبات طويلة. وكان الفتى يشعل النار للشواء ويعلف الحيوانات وينظّف الفوانيس ويناول العمال مياه الشرب. وكان يرى المناظر رؤية غير واضحة المعالم: مجرّد غابات من الأشجار الصغيرة بنية اللون، وقرى ليس فيها إلاّ عدد قليل من البيوت المتفرّقة بواجهاتها وشرفاتها الحمراء، ومساحات واسعة، وهناك أحيانا مهودُ بحيراتٍ ملحيّة قديمة بيضاء حتّى الأفق، فضلا عن السهوب المنتشرة دائما عن كلّ جانب، سهوب مقفرة وصمت مطبق. ونادرا ما كانوا يلتقون مسافريْن أو ثلاثة على خيولهم يتبعهم قطيع من الأحصنة الطليقة التي تسير خببا كالزوبعة. كانت الأيام متشابهة كالأيّام التي قضاها في البحر، فهي كئيبة ولامتناهية. لكنّ الطقس كان جميلا. أمّا الحمّالون فكانوا يكثرون طلباتهم من الفتى ويزيدونها كما لو أنّه أصبح خادمهم المجبور بهم. بل إنّ بعضهم كانوا يسيئون معاملته ويهدّدونه، وكانوا جميعهم يستغلونه من دون أيّ اعتبار. فكانوا يحمّلونه حمولات

كبيرة من العلف، ويرسلونه ليأتي بالمياه من مسافات بعيدة، وكان التعب يأخذ منه كلّ مأخذ، حتّى إنّه لم يكن ينام الليل تحت وطأة صدمات العربة العنيفة وضجيج العجلات وقرقعة محاورها الخشبية الذي يصمّ الآذان. والأدهى أنّ هبوب الرياح كان يثير الرمال الناعمة الحمراء اللزجة التي كانت تغطّي كلّ شيء وتتسرّب تحت الثياب وتملأ العيون والأفواه، وتحجب الرؤية وتمنع التنفّس وتتواصل لتطغى فلا يمكن تحمّلها. لقد أبلاه التعب والأرق فانقلب رثّا قذرا، وأنهكه التوبيخ والتقريع في الليل والنهار. وكان الفتى المسكين يزداد كلّ يوم اكتئابا، بل كان سينهار كلّيا لولا أنّ الكاباتاز كان يتوجّه إليه من حين لآخر ببعض الكلمات اللطيفة. كان كثيرا ما يختبئ في زاوية من زوايا العربة ليبكي وهو يدفن وجهه في حقيبته التي لم تعد تحوي إلاّ بضع خروق. كان يستيقظ كلّ صباح وقد زاد وهنه وضعفت عزيمته، وكان إذا ما نظر إلى الريف حوله ورأى تلك السهوب الحقود اللامتناهية الشبيهة ببحر محيطٍ أرضيّ، كان يقول في نفسه: "آه، لا يبدو أنّي سأبلغ هذا المساء سالما معافى! سأموت هذا الصباح في الطريق!". وكان التعب يزداد، وسوء المعاملة يتضاعف. ذات صباح، ضربه أحد الرجال لأنّه تأخّر بحمل الماء وكان الكاباتاز غائبا. بعدها اعتادوا الأمر، وأصبحوا يأمرونه بالضرب والرفس والشتم: "خذ هذه يا شريد! احمل هذه لأمّك!". فانفجر قلبه حزنا ومرض. بقي لمدّة ثلاثة أيّام في العربة ملتحفا الغطاء يقارع الحمّى ولا يرى أحدا غير الكاباتاز الذي كان يأتيه بالماء ويفحص نبضه. ظنّ أنّه أسقط في يده وضاع، ودفعه اليأس إلى مناداة أمّه مئات المرات. "آه يا أمّي! يا أمّي! ساعديني! تعالي إلى هنا إنّي أموت! آه يا أمّي المسكينة، لن أراك ثانية! ستجدينني ميتا على قارعة الطريق!". ثمّ كان يضمّ راحتي يديه ويدعو. لكنّه تحسّن بعد ذلك بفضل عناية الكاباتاز وحده. ثمّ شفي شفاء تامّا، وكان يوم شفائه أصعب يوم في تاريخ رحلته كلّها لأنّه كان عليه أن يبقى وحده. كانوا يسيرون منذ أكثر من أسبوعين، وعندما وصلوا إلى النقطة التي تفترق فيها الطريق إلى توكومان عن تلك التي ستمضي بها القافلة إلى سانتياغو الأجنبيّة أخبره الكاباتاز أنّهم يجب أن يفترقوا. أعطاه بعض المعلومات عن وجهة سيره،

وربط له حقيبته على كتفيه حتّى لا تضايقه في المشي، ثمّ حيّاه باقتضاب خشية أن ينفعل. وبالكاد تمكّن الفتى من تقبيل ذراعه. كما شعر الرجال الذين كانوا يسيئون معاملته بالشفقة عليه وهم يرون أنّه بقي وحيدا فلوّحوا له بتحيّة الوداع وهم يبتعدون. بادلهم التحيّة بيده، ووقف ينظر إلى القافلة حتى ضاعت في الغبار الأحمر الثائر هناك، ثمّ استأنف سيره حزينا.

هناك أمر بين غيره من الأمور ما فتئ منذ البداية يريحه. فبعد أيّام طويلة من السفر عبر تلك السهوب المتشابهة اللامتناهية رأى أمامه سلسلة جبال مرتفعة زرقاء اللون وقممها بيضاء. كانت تذكّره بجبال الألب فشعر وكأنّه اقترب من بلاده. كانت هذه هي جبال الأنديز، العمود الفقري للقارّة الأميركيّة، السلسلة العظيمة التي تمتدّ من أراضي النار إلى المحيط المتجمّد في القطب الشمالي على خط العرض مائة وعشرة. وكان يرتاح أيضا لأنّ نسيم الهواء الذي كان يصله كان يزداد سخونة؛ لأنّه بصعوده نحو الشمال كان يقترب من المناطق المداريّة. بين مسافات شديدة التباعد كان يجد مجموعات صغيرة من البيوت، في كلّ منها أيضا دكّان صغير اشترى من بعضها شيئا يأكله. صادف رجالا على خيولهم، وبين الحين والآخر نساء مع أولادهنّ جالسين على الأرض بلا حراك، ووجوههم جديدة عليه كليّا، بشرة بألوان الأرض، وعيون مائلة، وعظام الوجنتين ناتئة، وكانوا يحدّقون فيه ويتابعونه بنظراتهم وهم يلفتون رؤوسهم ببطء وكأنّهم آلات بشريّة. كانوا هنودا. سار في اليوم الأوّل حتى أنهكت قواه ثمّ نام تحت شجرة. وفي اليوم الثاني سار أقلّ بكثير وباندفاع أقلّ. تمزق حذاؤه، وتقشّرت قدماه، وضعفت معدته بسبب قلة الغذاء. عندما كان المساء يقترب كان شعوره بالخوف يزداد؛ خاصّة وأنّه كان يسمع في إيطاليا أنّ الثعابين تكثر في هذه الأماكن، لذلك كان يتوقّف إذا تخيّل أنّه يسمع صوت زحف، ثمّ يتابع سيره بينما تسري القشعريرة في عظامه المرتجفة. كان يشعر أحيانا بالشفقة على نفسه فيبكي بصمت وهو يمشي. ثمّ كان يفكّر: "لا بد أن أمّي ستتألّم إذا عرفت أنّي خائف لهذه الدرجة!". وهكذا كان يستعيد شجاعته، وكان يتحايل على خوفه بالتفكير في بعض شؤونها كأن يتذكّر كلمات قالتها عندما سافرت من جنوى، والطريقة

التي كانت تعمل بها لترتّب الغطاء تحت ذقنه وهو في سرير الطفولة، وكيف كانت تأخذه أحيانا بين ذراعيها وتقول له: "ابق قليلا من الوقت معي، لكنّها كانت تبقى وقتا طويلا ورأسها يستند إلى رأسه وهي تفكّر وتفكّر". ثمّ إنّه كان يقول لها في نفسه: هل سأراك ثانية يا أميّ الغالية؟ هل سأصل إلى نهاية هذه الرحلة يا أمّي؟ ثمّ كان يسير ويسير وسط أشجار مجهولة وغابات قصب السكر، وسهول بلا نهاية، تحت تلك الجبال الزرقاء أمامه التي كانت تبرز بقممها الشاهقة في السماء الصافية. مرّت أربعة أيّام، أو خمسة أو أسبوع بكامله. كانت قواه تتناقص بسرعة، وقدماه تدميان. أخيرا، ذات مساء قالوا له عند المغيب إن توكومان على بعد خمسة كيلومترات من هنا. فسأطلق صيحة فرح، وحثّ خطاه وكأنّه استعاد في لحظة كلّ قوّته الضائعة. لكنه كان وهما مؤقّتا. لأنّ قواه تلاشت فجأة ووقع منهكا على طرف حفرة. لكنّ قلبه كان ينبض فرحا، ولم تبد له السماء المزيّنة بالنجوم الرائعة جميلة مثلما كانت جميلة وقتها. كان يتأمّلها وهو يتهادى فوق العشب قبل أن ينام، وكان يفكّر أنّ أمّه كانت تتأمل المنظر نفسه في هذا الوقت بالذات. فيقول: "أين أنت يا أمّي؟ ماذا تفعلين في هذه اللحظة؟ هل تفكّرين بابنك؟ هل تفكّرين بابنك ماركو؟ إنّه الآن قريب منك جدّا".

يا لماركو المسكين، لو استطاع أن يرى أمّه في تلك اللحظة وعلى أيّ حال هي لبذل جهدا لا يبذله أيّ إنسان، ولجدّ في السير حتّى يصل إليها أسرع بساعات. كانت مريضة، ومستلقية على السرير في غرفة أرضيّة من بيت فخم تسكنه كلّ عائلة ميكوينيز التي أحبّتها كلّ الحبّ وقدّمت لها كل مساعدة وعطف. كان المرض قد بدأ يعضّ المرأة المسكينة منذ أن توجّب على المهندس ميكوينيز أن يسافر فجأة من بوينيس آيريس، ولم تشف حتى عندما استنشقت هواء قرطبة العليل. خاصّة وأنّها لم تستلم بعد ذلك رسائل من زوجها ولا من قريبها، فأحسّت بشعور غامض بأن هناك مصيبة قادمة. عاشت وقتها في قلق دائم حائرة لا تدري هل تبقى أو تسافر، وكانت تنتظر خبرا ما سيّئا، كلّ هذا جعل صحّتها تتدهور كلّ التدهور. بعد ذلك أصيبت بمرض خطير عندما اختنق فتاقها المعوي. لم تنهض عن السرير منذ خمسة عشر يوما. وكان لا بد من

إجراء عمليّة جراحيّة لها تنقذ حياتها. في تلك اللحظة بالذات، وبينما كان ابنها ماركو يدعو لها، كان سيّد البيت وسيّدته يقفان إلى جانب سريرها ويشجّعانها بلطف كبير على القبول بإجراء العمليّة، فيما هي تبكي وتصرّ على الرفض. وكان طبيب حاذق من توكومان قد عادها قبل أسبوع ولم يفلح في إقناعها. وكانت تجيب: "لا أيّها السيّدان، لا تفكّرا بهذا، فليست لديّ قوّة المقاومة وسأموت تحت حديد الجرّاح، الأفضل إذا أن أموت هنا. لم تعد الحياة تهمّني في شيء. لقد انتهى الأمر بالنسبة لي. من الأفضل أن أموت قبل أن أعرف ما الذي أصاب عائلتي". كان السيّدان يقولان لا ويشجّعانها، ويخبرانها أنها لا بدّ أن تتلقى ردّا على الرسائل الأخيرة التي أرسلوها مباشرة إلى جنوى، لذلك عليها أن تقبل بإجراء العمليّة وأن تقبل بها من أجل خاطر عائلتها. لكنّ التفكير بعائلتها هو الذي كان يزيد قلقها ويثبّط عزيمتها حتّى فقدت منذ حين الشجاعة كلّها؛ لذلك انفجرت في البكاء. آه، يا ولدَيّ! يا ولدَيّ! وردّدت هذه الكلمات وهي تضمّ يديها، ثمّ قالت: "ربّما كانا غير موجودين وميتين. من الأفضل أن أموت أنا أيضا. إنّي أشكركما أيّها السيّدان الطيّبان، أشكركما من كلّ قلبي، لكنْ من الأفضل لي أن أموت، على كلٍّ لن أشفى حتى بالعمليّة، أنا متأكدّة. شكرا أيّها السيّدان على هذه العناية الفائقة، لكن لا فائدة من عودة الطبيب بعد غد. أريد أن أموت. قدري هو أن أموت هنا. وقد قرّرت هذا". عادا لمواساتها وردّدا: "لا، لا تقولي هذا". وأخذا بيديها وترجّياها، غير أنّها أطبقت عينيها من شدّة التعب، وغفت نائمة فبدت كالأموات. بقي السيّدان قربها لفترة من الوقت على ضوء فانوس ضعيف ينظران بشفقة وعطف إلى تلك الأمّ الرائعة التي أتت لتموت على بعد أكثر من ستة آلاف كيلومتر من وطنها في سبيل أن تنقذ عائلتها، لتموت بعد معاناة كثيرة، يا للمرأة المسكينة! يا لها من شريفة طيّبة، وإن كانت سيّئة الحظ!

دخل ماركو مدينة توكومان في الصباح الباكر من اليوم التالي، كان يحمل حقيبته على كتفيه، وكان يعرج منحني الظهر لكنّه كان مفعما بالأمل. توكومان هي أحدث مدن جمهوريّة الأرجنتين وأكثرها ازدهارا. بدا له أنّه يرى قرطبة ثانية أو روزاريو أو بوينيس أيريس؛ ففيها الشوارع المستقيمة الطويلة ذاتها وتلك

البيوت المنخفضة البيضاء، لكنّ ما يميّزها كان تلك النباتات الجديدة الرائعة المنتشرة في كلّ مكان، وذلك الجوّ المعطّر والنور الباهر والسماء الصافية التي لم يرَ مثلها أبدا ولا حتّى في إيطاليا. عندما تقدّم عبر الشوارع أحسّ بالتوتّر المحموم الذي شعر به في بوينيس أيريس. بدأ ينظر إلى كلّ النوافذ، وأبواب كلّ البيوت، إلى كلّ النسوة المارّات؛ يحدوه أمل بلقاء أمّه، وكان بودّه أن يسأل الجميع لكنّه لم يملك الشجاعة لكي يستوقف أحدا. كان الناس عند الأبواب ينظرون إلى ذلك الفتى المسكين الأشعث الأغبر الذي كان من الواضح أنّه قادم من بعيدٍ بعيد. فيما كان هو يبحث بين الناس عن وجهٍ يوحي له بالثقة ليوجّه إليه ذلك السؤال المروّع. عندها، وقع نظره على لافتة دكّان كُتب عليها اسم إيطاليّ. كان في داخلها رجل يضع نظارة وامرأتان. اقترب بحذر من الباب وتشجّع ثمّ سأل: "هل يمكنك أيّها السيّد أن تخبرني أين تسكن عائلة ميكوينيز؟".

بدوره سأل صاحب الدكّان بالإسبانيّة: "المهندس ميكوينيز؟".

فأجاب الفتى بصوت منخفض: "المهندس ميكوينيز".

قال صاحب الدكّان: "عائلة ميكوينيز ليست في توكومان".

كان صدى هذا الكلام صرخة ألم كأنّما أطلقها شخص مطعون.

نهض صاحب الدكّان والمرأتان وهرع بعض الجوار. وقال صاحب الدكّان وهو يسحب الفتى إلى الداخل ويجلسه: "ماذا هناك؟ ما بك يا فتى؟ ليس هناك ما يدعو إلى اليأس، ماذا حلّ بك!؟ عائلة ميكوينيز ليست هنا لكنها قريبة من هنا، على بعد ساعات قليلة من توكومان!".

فصرخ ماركو وقفز وقد عاد إليه الأمل: "أين؟ أين؟".

استطرد الرجل: "على بعد خمسة عشر كيلومترا تقريبا من هنا. على شاطئ نهر سالاديللو[1]. في مكان يبنون فيه معملا ضخما لصنع السكّر ومجمّع بيوت، هناك يقع بيت السيد ميكوينيز، يعرفه الجميع، ستصل إلى هناك خلال ساعات قليلة".

وقال فتى كان قد هرع إلى الدكان عند سماعه الصراخ: "قبل شهر كنت

(1) نهر سالاديللو يجري في جنوب الأرجنتين، وتم اكتشافه عام 1892 (ويكيبديا).

هناك".

نظر إليه ماركو وقد اتّسعت حدقتا عينيه، ثمّ تهوّر وسأله ووجهه يزداد امتقاعا: "هل رأيت خادمة السيد ميكوينيز، الإيطاليّة؟".

- الجنويّة؟ رأيتها.

انفجر ماركو في نشيج مضطرب بين الضحك والبكاء، وأتبعه بموجةِ كلامٍ اندفعت بحزم عنيف: "من أين الطريق، أسرع، الطريق، سأسافر في الحال، علّمني على الطريق".

فقالوا له جميعا: "إنّ هناك يوما من المسير. أنت الآن منهك، يجب أن تستريح، ستسافر غدا".

فأجاب الفتى: "مستحيل، مستحيل. أخبروني من أين أذهب. لن أنتظر دقيقة واحدة، سأسافر الآن ولو متّ على الطريق".

توقّفوا عن معارضته وقالوا له بعد أن رأوا عناده: "برعاية الله. احذر طريق الغابة. سفرا سعيدا أيّها الإيطاليّ الصغير". ثمّ رافقه رجل إلى خارج المدينة ودلّه على الطريق، وقدّم له بعض النصائح ووقف حتّى اطمأن إلى أنه انطلق. في بضع دقائق غاب الفتى بالحقيبة على كتفيه وهو يعرج، غاب وراء الأشجار الكثيفة المحيطة بجانبي الطريق.

كانت ليلة ليلاء بالنسبة لتلك المريضة. فقد كانت تشعر بآلام عنيفة فجّرت منها صراخا يمزّق العروق، وأوقعتها في دقائق من الهذيان. فقدت النسوة اللائي كنّ يخدمنها عقولهنّ، وكانت السيّدة تهرع من حين لآخر مستاءة وفزعة. وبدأ الجميع يخشون أنّه حتّى لو قرّرتْ أن تجري العمليّة فإنّ الطبيب سيصل متأخّرا لأنّه لن يأتي إلاّ في صباح الغد.

في اللحظات التي لم تكن تهذي فيها كان يفهم من كلامها أنّ أكثر ما يؤلمها ليس آلام الجسد بل القلق على العائلة البعيدة.

اشتدّ بها الهزال، ونال منها المرض، فانقلب وجهها وبدأت تغرز يديها في شعرها علامة على شدّة يأسها الذي حطّم قلبها، وكانت تصرخ: "يا إلهي، يا إلهي، هل سأموت بعيدة!؟ هل سأموت من غير أن أراهم!؟ هل سيبقى ولداي

المسكينان من دون أم؟ يا ولديّ المسكينين. ماركو حبيبي، ما زلت صغيرا، لم تكبر كما يجب، أنت الطيّب الحنون! إنّكم لا تعرفون أيّ فتى كان. لو تعرفين أيّتها السيّدة، لم أتمكّن من إنزاله من على عنقي عندما سافرت، كان يجهش بالبكاء بما يمزّق القلب، بدا وكأنّه يعرف أنّه لن يرى أمّه ثانية، ماركو المسكين، طفلي المسكين. كنت أحسّ أنّ قلبي سينفجر! آه، ليتني متّ وقتها، ليتني متّ عندما كان يودّعني. ستكون بدون أمّ يا طفلي المسكين، لشدّ ما أحببتني. أنت الذي كنت دائما بحاجة إليّ. إنّك الآن بدون أمّ، في البؤس. لا بد أنّه الآن يشحذ، ماركو، ماركو حبيبي، سيمدّ يده من الجوع! آه، يا إلهي. لا، لا، لا أريد أن أموت. الطبيب، اطلبوا الطبيب وليأت حالا، فليأت! ليقطّعني، ليمزّقني، ليجعلني مجنونة، لكن لينقذ حياتي. أريد أن أشفى، أريد أن أعيش، أن أسافر، أن أهرب، غدا، حالا! الطبيب! النجدة! النجدة!". أمسكت النسوة بيديها، وبدأن يلمسنها وهنّ يدعون عسى أن تعود شيئا فشيئا إلى رشدها، وكلّموها عن الله وعن الأمل. فوقعت من جديد في اكتئاب مميت، وبكت ويداها في شعرها الرماديّ، وهي تندب كالأطفال، وتطلق آهة مديدة وتتمتم من حين لآخر: "آه، جنوى حبيبتي، بيتي الحبيب، ذلك البحر... ماركو حبيبي، ماركو حبيبي المسكين! أين هو الآن؟ أين طفلي الحبيب!؟".

حلّ منتصف الليل بعد أن أمضى ابنها ماركو المسكين ساعات طويلة على طرف خندق وقد هدّه الإرهاق، سار وسط غابة واسعة أشجارها ضخمة كثيفة تبدو مثل وحوش نباتيّة ذات جذوع عظيمة كأعمدة الكاتدرائيات الكبيرة، وكانت أغصانها تتشابك في الأعالي فتبدو رائعة بمنظرها الفضيّ تحت ضياء القمر. كان يرى في شبه الظلام السائد أشباح جذوع بكلّ الأشكال، مستقيمة ومائلة ومعوجّة ومتشابكة في أوضاع غريبة توحي بالتصارع والتهديد، وكان بعضها مقلوبا على الأرض كأبراج سقطت بكامل عمارتها، أو مغطّاة بنباتات كثيفة مضطربة التوزيع كما لو أنّها حشدٌ غاضب من الناس الذين يتنازعون على الأرض شبرا شبرا، وهناك أخرى مجموعة في مجموعات كبيرة عموديّة، ومحزومة كحزم سهام عظيمة تلامس رؤوسها الغيوم في السماء: عظمة مذهلة، وفوضى من الأشكال

الضخمة التي تعطي المشهد فظاعة مهيبة لم تقدّم الطبيعة النباتيّة لها مثيلا. كانت تأخذه أحيانا دهشة غامرة لا ينزعه عنها إلاّ تفكيره بأمّه. كان منهكا بحقّ، يمشي وحيدا على قدمين داميتين وسط تلك الغابة الخارقة التي لم يشاهد فيها إلاّ من حين لآخر بضعة مساكن بشريّة صغيرة بدت أمام تلك الأشجار كأعشاش النمل. رأى كذلك بعض الجواميس النائمة قرب الطريق. كان منهكا بحقّ، لكنّه لم يكن يشعر بالتعب، وكان وحيدا لكنّه لم يكن يشعر بالخوف. كانت عظمة الغابة تنعكس على نفسه فتسمو روحه، وكان اقترابه من أمّه يمنحه الشجاعة وفتوّة الرجال. أمّا ذكرياته عن المحيط والأحزان والآلام التي شعر بها ثمّ تغلّب عليها، والمتاعب التي عانى منها، وثباته الصلب الذي أبداه، فقد جعلته يرفع جبهته عاليا ليندفع دمه الجنويّ النبيل إلى قلبه، ويتدفّق متوهّجا بالفخر والكبرياء. وحدث شيء جديد في داخله: فصورة أمّه بقيت في ذهنه حتّى ذلك الحين؛ صورة باهتة مشوّهة بفعل سنتين من البعد، أمّا الآن فقد بدأت الصورة تتوضّح، وبدأ يرى وجهها كاملا وواضح المعالم كما لم يره لمدّة طويلة قبل الآن. رآه قريبا ومنيرا وناطقا، ورأى حركات عينيها وشفتيها السريعة، وكلّ مواقفها وكلّ حركاتها وكلّ ظلال أفكارها. دفعته كلّ هذه الذكريات المتتابعة إلى تسريع خطاه، بينما نمت في قلبه عواطف جديدة ورقّة مبهمة جعلته يجري ووجهه مبلل بدموع حلوة هادئة، حتّى إنّه بدأ يكلّمها وهو يمشي في العتمة، ويقول لها الكلمات التي يريد أن يهمس بها في أذنها بعد قليل: "إنّي هنا يا أمّي، ها أنذا، لن أتركك بعد الآن، سنعود معا إلى البيت، وسنجلس معا في السفينة، سأكون قربك، ولن يبعدني أحد عنك، لا أحد، لا أحد بعد الآن ما دمت حيّة". لكنّه لم يلاحظ أنّ ضوء القمر الفضيّ بدأ ينحسر عن قمم الأشجار الضخمة ليحلّ محلّه بياض الفجر الناعم.

في الثامنة من ذلك الصباح، كان شابٌّ أرجنتيني هو طبيب توكومان عند سرير المريضة يحاول بصحبة مساعده بذل آخر محاولة لإقناعها بالخضوع للعمليّة الجراحيّة، وكان يدعمهما بأحرّ العبارات المهندس ميكوينيز وزوجته. كلّ هذا كان هباء. فالمرأة شعرت بقواها تنهار أكثر فأكثر، ولم تعد ترى للعمليّة

نفعا. بل كانت على ثقة بأنّها ستموت تحت العمليّة أو بعدها بساعات قليلة، وبهذا ستكون قد عانت آلاما جديدة لا طائل من ورائها، بل وأشدّ إيلاما من تلك التي قد تميتها ميتة طبيعيّة. لكنّ الطبيب أصرّ على ترديد قوله: "العملية موثوقة، ونجاتك أكيدة إذا أظهرتِ بعض الشجاعة! لكنّك ستموتين من كلّ بدّ إذا بقيت على رفضك!". ذهبت كلّ هذه الكلمات أدراج الرياح. أجابت بصوتها المنهك: "لا، ما زالت لديّ الشجاعة كي أموت، وليس كي أتألم بلا طائل. أشكرك أيّها السيّد الطبيب. هذا هو قدري. اتركني أموت بسلام". استولى اليأس على الطبيب فأقلع عن محاولاته، ولم يتكلّم أحد بعدها. فالتفتت المرأة بوجهها نحو سيّدتها وتمتمت بصوت المحتضرين، وقالت وهي تتنهّد منهكة ومرهقة: "إنّك سترسلين تلك الدراهم القليلة وأغراضي التعيسة إلى عائلتي... عن طريق السيد القنصل، أليس كذلك؟ أرجو أن يكونوا كلّهم أحياء. فقد بدأ قلبي ينبئني خيرا عنهم. أرجوك أن تكتبي لهم... أخبريهم أنّي كنت أفكّر بهم على الدوام، وأنّي عملت من أجلهم... من أجل ولدَيّ... وأنّ ألمي الوحيد حقّا هو ألمي لغيابهم عنّي. أخبريهم أنّي واجهت الموت بشجاعة، مستسلمة له، وأنّي أباركهم، وأوصي زوجي وابني الكبير... بالصغير، بابني ماركو المسكين... الذي كان في قلبي حتّى آخر لحظة". وهنا، اهتاجت فجأة وصرخت وهي تضمّ يديها إلى بعضهما: "ابني ماركو، طفلي الصغير، حياتي". لكنّها أدارت عينيها المليئتين بالدموع فرأت أنّ سيّدتها قد غادرت بعد أن نادوها على جناح السرعة. بحثت عن سيّدها فرأت أنّه غاب أيضا، ولم يبق إلى جانبها إلاّ ممرّضان والمساعد. وكان يسمع في الغرفة المجاورة وقع خطى مستعجلة، وأصوات همسات تعجّب سريعة مخنوقة. وهنا ثبّتت المريضة عينيها على الباب، وانتظرت لتعرف ما الأمر. بعد لحظات قليلة، شاهدت الطبيب يعود بوجه غير معهود، وتبعته السيّدة والسيّد ووجهاهما متغيّران أيضا. نظر إليها ثلاثتهم بتعبير غريب وفريد، وتبادلوا في ما بينهم بضع كلمات همسا. وبدا لها أن الطبيب قال للسيّدة: "يُفضّل في الحال". لكنّ المريضة لم تفهم.

قالت السيّدة بصوت مرتجف: "جوزيفا، لديّ خبر جيّد أخبرك به. حضّري

قلبك لسماع خبر جيّد".

نظرت إليها المرأة بانتباه.

فاستأنفت السيّدة وهي تزداد هياجا واضطرابا: "خبر سيفرحك فرحا عظيما".

توسّعت حدقتا عيني المريضة.

فاستأنفت السيّدة: "استعدّي لرؤية شخص... تحبّينه أشدّ الحبّ".

رفعت المرأة رأسها بحركة عنيفة، وبدأت تجيل نظرها بسرعة بين السيّدة والباب، وقد صعقت عيناها.

أضافت السيّدة بوجه ممتقع: "وصل الآن... على غير انتظار".

صرخت المرأة بصوت غريب مخنوق كصوت شخص مرعوب: "من هو؟".

بعد لحظة، أطلقت صرخة حادّة وهي تقفز وتجلس على السرير وبقيت جامدة عليه بعينين متسعتين ويداها على صدغيها كما لو أنّها تشاهد رؤية عجيبة.

كان ماركو يقف منتصبا عند عتبة الباب، أشعث وأغبر كما وصل، لكنّ ذراع الطبيب كانت تمنعه من الدخول.

صاحت المرأة ثلاث مرّات: "يا إلهي! يا إلهي! يا إلهي!".

اندفع ماركو نحوها، ففتحت ذراعيها الهزيلتين وضمّته إلى صدرها بقوّة النمرة، ثمّ انفجرت في ضحك عنيف تخللته شهقات بكاء عميقة بلا دموع أسقطتها كالمخنوقة على الوسادة.

لكنّها استفاقت بسرعة، وصرخت كالمجنونة من شدة الفرح وهي تغمره بالقبل: "كيف وصلت إلى هنا؟ لماذا؟ كم كبرت! من جاء بك؟ هل أنت وحدك؟ ألست مريضا؟ هل أنت ماركو بالذات! أليس هذا حلما! يا إلهي!". ثمّ غيّرت لهجتها فجأة: "لا، اسكت، انتظر". والتفتت نحو الطبيب على عجل: "أسرع، حالا أيها الدكتور. أريد أن أشفى. إنّي مستعدَة. لا تضع أيّ لحظة. لكن أخرجوا ماركو كي لا يسمع. ماركو، ليس في الأمر شيء. سأحكي لك كلّ شيء. قبلة ثانية. اذهب. ها أنذا يا دكتور".

سحبوا ماركو إلى خارج الغرفة، وخرج السيّدان والنسوة بسرعة، وبقي الطبيب مع مساعده وأغلقا الباب.

حاول السيد ميكيوينيز سحب ماركو إلى غرفة بعيدة، لكنّ ذلك كان مستحيلا؛ فقد بدا أنّه تسمّر على الأرض.

وسأل: "ماذا هناك؟ ماذا حلّ بأمّي؟ ماذا سيفعلان لها؟".

واصل ميكيوينيز سحبه بعيدا وهو يقول له بصوت منخفض: "اسمع، سأخبرك الآن، أمّك مريضة ويجب إجراء عمليّة جراحيّة بسيطة لها، سأشرح لك كلّ شيء، تعال معي".

أجاب الفتى وهو يقاوم: "لا، أريد أن أبقى هنا. اشرح لي الأمر هنا".

أخبره المهندس عن حال أمّه وهو يسحبه، لكنّ الفتى ازداد رعبا وبدأ يرتجف.

رنّت فجأة صرخة حادّة في كل أرجاء البيت وكأنّ أحدهم قد جُرح جرحا مميتا.

فردّد الفتى الصرخة، وأتبعها بأخرى يائسة: "لقد ماتت أمّي!".

لكنّ الطبيب ظهر عند الباب وقال: "أمّك سالمة".

نظر إليه الفتى للحظة، ثم ارتمى عند قدميه وهو يشهق بالبكاء: "شكرا يا دكتورا!".

لكنّ الطبيب تحرّك وأنهضه وقال له: "انهض... إنّك أنت أيّها الطفل البطل الذي أنقذت أمّك".

صيف

الأربعاء 24

كان ماركو الجنويّ البطل الصغير قبل الأخير الذي نتعرّف عليه هذا العام؛ فقد بقي أمامنا واحد آخر لشهر حزيران. لم يتبقّ إلا فحصان شهريّان، وستة وعشرون يوما من الدروس، ستة أيّام خميس وخمسة أيّام أحد. بدأنا نشمّ رائحة نهاية العام الدراسيّ. كانت أشجار الحديقة المورقة المزهرة تلقي ظلالا جميلة على أجهزة الرياضة. ارتدى التلاميذ الملابس الصيفيّة، وأصبح منظر خروج الصفوف جميلا، ومختلفا عمّا كان عليه في الأشهر الماضية. فالشعر الذي كان طويلا يتدلّى منسدلا على الأكتاف اختفى بعدما أصبحت كل الرؤوس حليقة، وبدأت الأرجل تظهر عارية وكذلك الأعناق، وهناك قبّعات القشّ بكلّ الأشكال وعليها شرائط تتدلّى على الأكتاف، وكذلك قمصان وربطات عنق من كلّ الألوان، والصغار تغطّيهم أشياء حمراء أو زرقاء، من بطانات وحواشٍ وشرّابات وقصاصات ذات ألوان حيّة علّقتها الأمّهات حتّى الفقيرات منهنّ كيفما كان على أن تعطي انطباعا حسنا، والكثير منهم يأتون إلى المدرسة بدون قبّعات وكأنهم خرجوا هربا من بيوتهم. بعضهم يرتدي ملابس الرياضة البيضاء. هناك واحد من فتيان المعلّمة ديلكاتي كلّه أحمر من رأسه وحتّى أخمص قدميه وكأنّه جامبري مطبوخ. الكثيرون كانوا يرتدون ملابس البحّارة، لكنّ أجملهم كان المعماريّ الصغير الذي اعتمر قبّعة كبيرة من القشّ فبدا مثل نصف شمّاعة إنارة عُلّق فوقها مخروط حماية، ولشدّ ما كان منظره وهو يقلّد وجه الأرنب تحت تلك القبّعة مضحكا. أمّا كوريتّي فقد أقلع عن اعتمار قبّعة وبر القطّ ولبس أخرى قديمة من الحرير رماديّ اللون كقبّعات السفر. وارتدى فوتيني لباسا ضيّقا على الطريقة الإسكتلنديّة، وعرض كروسّي صدره العاري، وظهر بريكوسّي مرتديا قميص

الحدّادين أزرق اللون. وغاروفّي؟ عليه الآن أن يستغني عن معطفه الواسع الذي كان يخبئ فيه بضاعته، وظهرت جيوبه المنفوخة بكلّ نوع من الخردة، كما برزت منها قوائم اليانصيب. الجميع يظهرون الآن ما يحملونه: فمعهم مراوح صنع نصفها من ورق الصحف، وفحم القصب، وسهام صيد العصافير، وحشائش بل وخنافس تطلّ من الجيوب وتتسلق ببطء على السترة. والكثير من الصغار يحملون باقات الورود لمعلّماتهم. المعلّمات يرتدين أيضا الملابس الصيفيّة ذات الألوان المرحة، ما عدا الأخت الصغيرة؛ فقد بقيت بملابسها السوداء، وأبقت المعلّمة الصغيرة ذات الريشة الحمراء على ريشتها الحمراء، وأضافت إليها عقدا من الأشرطة الحمراء وضعته حول عنقها، وكان واضحا أنّ الصغار عبثوا به بل وداسوه بأقدامهم مرارا عندما كانت تركض خلفهم ضاحكة فيقع العقد على الأرض. إنّه فصل الكرز والفراشات والموسيقى التي تصدح في الشوارع والنزهات في الأرياف، وكان الكثيرون من صفوف الرابع يهربون ليسبحوا في نهر البو، فقد تعلّقت قلوب الجميع بالعطلة المرتقبة، وصاروا ينصرفون من المدرسة وهم في كلّ يوم أقلّ صبرا من اليوم السابق على تحمّل ما بقي من وقت عليها، وأكثر سعادة لاقترابها. ولم يحزنني إلاّ مشاهدة غاروني وأحزانه، ومعلّمتي في الصفّ الأول وهي تزداد هزالا وامتقاع وجه وسعالها يشتدّ. بدأت تمشي منحنية الظهر وهي تحيّيني بحزن ظاهر!

t.me/t_pdf

t.me/book4kid

شعر

الجمعة 26

بدأتَ الآن يا أنريكو تفهم شاعريّة المدرسة. وإذا كنت لا تستطيع اليوم أن ترى المدرسة إلاّ من الداخل، فإنّها ستبدو لك أجمل بكثير وأبلغ شاعريّة بعد ثلاثين سنة؛ عندما ستأتي لمرافقة أولادك؛ لأنّك ستراها حينها من الخارج كما أراها أنا اليوم. عندما أنتظر الانصراف أذهب لأتجوّل في الشوارع الصامتة حول المبنى، وأصغي السمع إلى الأصوات الصادرة من نوافذ الطابق الأرضي التي تحجبها الستائر الخشبية. أسمع من خلال إحدى النوافذ صوت المعلّمة وهي تقول: "آه يا بنيّ لا يمكن قبول هذا الرسم لحرف التاء، ماذا سيقول أبوك عنه؟ ومن نافذة أقرب أسمع صوتا ضخما لأستاذ يملي ببطء: سأشتري خمسين مترا من القماش بأربع ليرات وخمسين للمتر... هل تبيع... وفي نقطة أبعد، كانت المعلّمة ذات الريشة الحمراء تقرأ بصوت مرتفع: بيترو ميكّا يفتعل بالفتيل المشتعل... وهناك في الصف القريب أصوات تصدح كتغريد مائة عصفور؛ مما يعني أنّ الأستاذ قد خرج من الصف لبضع دقائق. أبتعد قليلا فأسمع عند المنعطف تلميذا يبكي وصوت المعلّمة وهي توبّخه أو وهي تهدّئه. من نافذة أخرى تتسرّب أبيات شعر، ثمّ أسماء رجالات كبار، ومقاطع من أحكام تنصح بالفضائل وبحبّ الوطن والشجاعة. تتبع لحظات صمت حتّى يخيل إليّ أن المبنى فارغ ولا يوجد فيه سبعمائة فتى. ينفجر بعد ذلك صخبٌ مرحٌ عقب مزاح أستاذ في مزاج جيد.... فيقف الناس في الشارع ليسمعوا ولينظروا بمحبّة نحو ذلك البناء اللطيف الذي يضمّ الكثير من الفتية والآمال. فجأة، يُسمع دويّ عالٍ، من ضرب كتب وحقائب وأصداء خطى كثيرة وأزيز ينتشر من صفّ إلى صفّ ومن الأسفل إلى الأعلى: إنّه الآذِن يدور ليعلن عن حلول ساعة الانصراف.

يتبع ذلك الضجيج حشد من نساء ورجال وفتيات وصبية يتزاحمون هنا وهناك حول الباب بانتظار أولادهم وإخوتهم وأحفادهم بينما يركض الفتية الصغار ليتدفقوا نحو الصالة الكبيرة ويتناولوا معاطفهم وقبّعاتهم فتتبعثر على الأرض وهم يتراقصون حولها حتّى يصل الآذن ليطردهم ويدخلهم الواحد تلو الآخر. في النهاية، يخرجون في طابور طويل وهم يضربون بأرجلهم على الأرض. وهنا ينهمر وابل من الأسئلة التي يوجّهها الآباء: هل عرفت الدرس؟ كم أعطاك على عملك؟ ما هي وظيفة الغد؟ متى يحين وقت الفحص الشهري؟ حتّى الأمهات المسكينات اللائي لا يعرفن القراءة تراهنّ يفتحن دفاتر أولادهنّ وينظرن إلى المسائل، ثمّ يسألن عن العلامات: ثمانية فقط؟ عشرة مع التقدير؟ تسعة لكل درس؟ فيضطربن ويفرحن ويسألن الأساتذة ويناقشن البرامج والفحوص. ما أجمل كلّ هذا وما أعظمه! وأيّ وعدٍ بعالم رائع يمنحنا.

أبوك

الصمّاء البكماء

الأحد 28

لم يكن بوسعي إنهاء شهر أيار بأفضل ممّا فعلت حين قمت هذا الصباح بهذه الزيارة. سمعنا رنين الجرس فجرينا جميعنا، ثمّ سمعت أبي يقول بلهجة دهشة: "أأنت هنا يا جورجو؟". كان جورجو بستانيّا يعمل في حديقة بيتنا في كييري وتسكن عائلته الآن في كوندوفِهْ، وقد وصل لتوّه من جنوى التي نزل فيها قبل يوم قادما من اليونان حيث عمل لمدّة ثلاث سنوات في السكك الحديديّة. كان يحمل كيسا كبيرا بين ذراعيه. وكان قد هرم بعض الشيء، رغم أنّ وجهه ما زال يحتفظ بنضارة الشباب وحمرة اللون.

دعاه أبي إلى الدخول، لكنّه رفض وسأل في الحال بلهجة الجدّ: "كيف حال عائلتي؟ كيف حال جيجا؟".

فأجابت أمّي: "جيدة؛ حتّى أيّام مضت".

تنفّس جورجو الصعداء وقال: "أوه، الحمد لله، لم أملك الشجاعة للذهاب إلى معهد الصمّ والبكم قبل أن أسمع أخبارها. سأترك كيسي هنا وسأذهب لآخذها. لم أرها منذ ثلاث سنوات، ابنتي المسكينة! ثلاث سنوات لم أر فيها أحدا من عائلتي!".

فقال لي أبي: "اذهب معه".

قال البستانيّ بعدما وصل إلى رصيف الدرج: "عفوا، كلمة أخرى".

فقاطعه أبي: "والعمل؟".

أجاب: "جيّد، والحمد لله. بل إنّي قد وفّرت بضعة دراهم. لكنّي كنت أريد أن أسأل عن تعلّم البكماء. أخبرني، فلقد تركتها كأنّها حيوان صغير مسكين، يا للمخلوقة المسكينة! إنّي لا أثق أصلا بهذه المعاهد. هل تعلّمت لغة الإشارة؟ أخبرتني زوجتي في رسائلها أنّها تتقدّم في التعلّم، وأنّها تتعلّم المخاطبة. لكنّي

أقول ماذا يفيد أن تتعلّم هي مخاطبتي بالإشارة إذا كنت لا أفهم عليها؟ كيف سنتفاهم؟ يا لصغيرتي المسكينة! تلك اللغة فعّالة للتخاطب في ما بينهم، في ما بين أولئك البائسين التعساء. كيف حالها إذا؟ كيف حالها؟".

ابتسم أبي وأجاب: "لن أقول لك شيئا، سترى بنفسك، اذهب، اذهب. لا تضيّع عليها مزيدا من الوقت".

خرجنا، كان المعهد قريبا. كان البستانيّ يحادثني ونحن نمشي مسرعين، وكانت تبدو عليه علامات الحزن. "آه، مسكينة ابنتي جيجا. ما أقسى أن يتعرض الإنسان لهذه التجربة! فأنا لم أسمعها قطّ تناديني "أبي"، وهي لم تسمع منّي أبدا كلمة "ابنتي"، بل إنّها لم تقل ولم تسمع أيّ كلمة في هذا العالم! أنعم الله عليّ أنيّ وجدت شخصا محسنا دفع عنّي نفقات المعهد. لكنّها... لم تتمكّن من الالتحاق بالمعهد إلى أن أصبح عمرها ثمانية أعوام. لقد غابت عن البيت ثلاث سنوات. تكاد تكون الآن في الحادية عشرة من عمرها. لقد كبرت. أخبرني، قل لي هل كبرت؟ هل هي في مزاج جيّد؟".

أجبته وأنا أسرّع خطاي: "ستراها، ستراها الآن".

سألني: "وأين يقع هذا المعهد؟ فقد وضعتها زوجتي فيه بعدما سافرت. يبدو لي أنّه في هذه النواحي".

كنّا قد وصلنا بالفعل. دخلنا حالا صالة الاستقبال، فجاء الحارس لاستقبالنا. قال له البستانيّ: "أنا أبو جيجا فودجي. ابنتي، حالا، بسرعة". فأجاب الحارس: "أنا الآن في وقت الاستراحة، سأذهب لأخبر المعلّمة". ثمّ انصرف.

عجز البستاني عن الكلام، كما أنّه لم يتمكّن من البقاء واقفا، فبدأ ينظر إلى اللوحات المعلّقة على الجدران من دون أن يرى منها شيئا.

فُتح الباب ودخلت معلّمة ترتدي ثيابا سوداء وتقود فتاة بيدها.

تبادل الأب والفتاة النظرات في ما بينهما، ثمّ اندفعا بين أحضان بعضهما بعضا وهما يصرخان فرحا.

كانت الفتاة ترتدي ملابس مخطّطة بالأبيض والورديّ المحمرّ، وتضع مئزرا رماديّ اللون. كانت أطول منّي، وكانت تبكي وهي تضمّ أباها إلى عنقها بكلتا ذراعيها.

حرّر الأب نفسه، وابتعد لينظر إليها من رأسها إلى أخمص قدميها وعيناه تلمعان، وهو يلهث وكأنّه كان يجري لمسافات طويلة. ثمّ هتف قائلا: "آه، كم كبرت! كم أصبحت جميلة! آه يا عزيزتي، ابنتي جيجا العزيزة! ابنتي الخرساء الصغيرة! وأنت أيتها السيّدة المعلّمة، أخبريها بأن تقوم ببعض إشاراتها فلا بد أن أفهم منها شيئا، بل إنّي سأتعلّم بعضها شيئا فشيئا. قولي لها أن تفهمني شيئا ما بالإشارة".

ابتسمت المعلّمة وقالت للفتاة بصوت منخفض: "من هو هذا الرجل الذي جاء ليزورك؟".

أجابت بصوت غليظ وغريب كصوت أجنبيّ متوحّش تكلّم للمرّة الأولى بلغتنا، لكن بلفظ واضح وبابتسامة: "إنـ... ـه أ... بـ... ـي".

تراجع البستانيّ خطوة، وأطلق صرخة كالمجنون: "إنها تتكلّم! هل هذا ممكن؟ هل تتكلّم؟ إنّك تتكلّمين، يا طفلتي، هل تتكلّمين؟ أخبريني، هل تتكلّمين؟". ثمّ عانقها من جديد وقبّل جبينها ثلاث مرّات. "لكن، ألا يتكلّمون بالإشارة أيتها السيّدة المعلّمة؟ بأيديهم، هكذا؟ ما هذا الذي أراه؟".

أجابت المعلّمة: "لا أيّها السيّد فودجي، ليس بالإشارة. هذه كانت طريقة قديمة. هنا نعلّمهم الطريقة الجديدة، الطريقة الشفهية، ألم تكن تعرف ذلك؟".

أجاب البستانيّ مشدوها: "لم أكن أعرف شيئا! منذ ثلاث سنوات وأنا في الغربة، أو ربما كتبوا لي ولم أذكر. لست إلاّ لوحا من خشب. أوه يا ابنتي، إنّك تفهمينني إذا، وتسمعين صوتي، أليس كذلك؟ أجيبيني، هل تسمعينني؟ هل تسمعين ماذا أقول لك؟".

قالت المعلّمة: "لا أيّها الرجل الطيّب، إنّها لا تسمع الأصوات لأنّها صمّاء. لكنّها تفهم من حركات فمك الكلمات التي تقولها. لكنّها لا تسمع كلماتك ولا ما تقوله هي لك، إنّها تلفظ الكلمات لأنّنا علّمناها ذلك، حرفا حرفا، علّمناها كيف تحرّك شفتيها وكيف تحرّك لسانها وما هي طبيعة الحركة التي يجب أن تصدر عن صدرها وعن حنجرتها لكي تطلق الصوت".

لم يفهم البستانيّ شيئا، ووقف فاغر الفم، بل كان غير مصدّق.

لذلك سأل ابنته همسا في أذنها: "هل أنت مسرورة من عودة أبيك؟". ثمّ رفع رأسه ووقف ينتظر جوابها.

لكنّ الفتاة نظرت إليه نظرة تأمّل من دون أن تجيبه.

فشعر الأب بالقلق.

ضحكت المعلّمة، ثمّ قالت: "إنها لم تجبك أيّها الرجل الطيّب لأنّها لم تر حركات شفتيك، ولأنّك كلّمتها همسا في أذنها! فكرِّر السؤال ووجهك مقابل لوجهها".

كرّر الأب السؤال بعد أن نظر إلى وجهها: "هل أنت مسرورة من عودة أبيك؟ وأنّه لن يسافر ثانية؟".

نظرت الفتاة بانتباه إلى شفتيه، بل وإلى داخل فمه، ثمّ أجابت بصراحة:

- أج... ـل، إنـ... ـي مسرورة أنـ... ـك عـ... ـدت ولـ... ـن تـ... ـساف... ـر ثانـ... ـيـ... ـة...أبـ... ـدا.

عانقها الأب عناقا عنيفا، ثمّ أراد أن يتأكّد أنّ كلّ شيء على ما يرام فأمطرها بوابل سريع من الأسئلة.

- ما اسم أمّك؟

- آنطـ... ونـ... ـيا.

- ما اسم أختك الصغيرة؟

- آديـ... ـلا... يـ... ده.

ما اسم هذا المعهد؟

- الـ... صمّ الـ... بـ... كم.

- ما مجموع عشرتين؟

- عشـ... ـرون.

ظننّا أنه يضحك فرحا، لكنّه فجأة بدأ يبكي. وكان هذا بكاء فرح.

قالت له المعلّمة: "تشجّع، هذا سبب فرح وليس مدعاة للبكاء. ألا ترى أنّك أبكيت ابنتك أيضا. هل أنت مسرور؟".

أخذ البستانيّ يد المعلّمة وقبّلها مرتين أو ثلاث مرّات وقال: "شكرا، شكرا، وألف مرّة شكرا أيّتها السيّدة المعلّمة العزيزة! واعذريني لأنّي لا أستطيع أن أقول المزيد!".

قالت له المعلّمة: "إنّها لا تتكلم فقط، بل إنّ ابنتك أصبحت تجيد الكتابة أيضا، وتعرف إجراء الحساب، وتعرف أسماء كلّ الأشياء المعهودة، وتعرف

شيئا عن التاريخ والجغرافية. وهي الآن في الصف العادي، وعندما تترفع إلى صفّين آخرين فإنّها ستتعلّم أكثر بكثير. حتّى إنّها ستخرج من هنا وهي قادرة على استلام عمل بإحدى المهن. لدينا الآن صمّ بكم يعملون في الدكاكين ويخدمون الزبائن ويقومون بأعمالهم مثل الآخرين".

دهش البستانيّ من جديد، وبدا أنّ أفكاره اضطربت مرّة أخرى، فنظر إلى ابنته وحكّ جبهته. وبدا أنّ هناك سؤالا ما زال يشغل باله.

التفتت المعلّمة عندها نحو الحارس وقالت له:

- نادِ طفلة من الصفّ التحضيري.

عاد الحارس بعد قليل مع صمّاء بكماء يتراوح عمرها بين الثامنة والتاسعة التحقت قبل أيّام بالمعهد.

قالت المعلّمة: "هذه من اللائي نعلّمهنّ الأوّل الابتدائي. راقب ما نفعله. سأطلب منها الآن أن تقول e. انتبه". فتحت المعلّمة فمها كما يفتحه المرء ليلفظ حركة حرف e، ثمّ أشارت إلى الطفلة كي تفتح فمها بالطريقة نفسها. أطاعت الطفلة، فطلبت منها المعلّمة أن تصدر الصوت فقالت صوت حرف o بدل صوت e. فقالت المعلّمة: "ليس هذا الصوت". ثمّ أخذت بيدي الطفلة ووضعت إحداها مفتوحة على حنجرتها، والأخرى على صدرها، وكرّرت: "e". أحسّت الطفلة بيدها بحركة حنجرة المعلّمة وصدرها، وفتحت فمها مثل السابق ولفظت الصوت على وجه الدقّة: "e". أعادت المعلّمة المحاولة مع الحرف c وd وهي لا تزال تضع اليدين الصغيرتين على حنجرتها وصدرها. ثمّ سألت الرجل: "هل فهمت الآن؟".

فهم الأب، لكنّه بدا مندهشا أكثر مما كان عندما لم يفهم. وسأل المعلّمة بعد دقيقة تفكير وهو ينظر إليها: "وهل تعلّمنهن الكلام بهذه الطريقة؟ هل لديكنّ صبرا يكفي لتعليمهنّ النطق بهذه الطريقة، شيئا فشيئا، وللجميع؟ فردا فردا؟ لسنين وسنين؟! إذا إنكنّ رائعات بالفعل! بل إنّكن هبة من السماء. لا يوجد تعويض على وجه الأرض لمثل هذا العمل. ماذا يمكنني أن أقول؟ اتركوني الآن رجاء قليلا مع ابنتي. اتركوها لي وحدي خمس دقائق".

سحبها جانبا وجلسا وبدأ يوجّه لها أسئلته. وكانت تجيب وكان هو يضحك

بعينين برّاقتين، وهو يضرب بقبضتيه على فخذيه ويأخذ ابنته بكلتا يديه، وينظر إليها وهو مسرور حين يسمعها؛ كما لو أنّه يسمع أصواتا رائعة، ثمّ سأل المعلّمة: "هل من المسموح لي أن أشكر السيّد المدير؟".

أجابت المعلّمة: "المدير غير موجود. لكنّ هناك شخصا آخر عليك أن تشكره. فكلّ فتاة صغيرة هنا يُعهد برعايتها إلى رفيقة لها أكبر منها سنّا، لتكون بمثابة أخت وأمّ لها. وقد عهد بابنتك إلى فتاة صمّاء وبكماء عمرها سبعة عشر عاما، وهي ابنة فرّان. إنها فتاة طيّبة تُكنّ لها الكثير من المحبّة: بدأت منذ سنتين بمساعدتها، وهي التي تعينها على ارتداء ملابسها كل صباح، وهي التي تسرّح لها شعرها وتعلّمها الخياطة وترفو ثيابها وهي رفيقتها وجليستها. لويجا، ما اسم ماما المعهد؟".

ابتسمت الفتاة وأجابت: "كاتـ... ـر... يـنـ... ـا جـ... ـوردانـ... ـو". ثمّ قالت لأبيها: "إنّـ... ـها طيّـ... ـبة جـ... دّا".

بعد أن خرج الحارس بإشارة من المعلّمة عاد في الحال تقريبا بصحبة صمّاء بكماء شقراء ضخمة، وجهها مرح، وترتدي هي أيضا ملابس مقلّمة بلون ورديّ محمر ومئزر رمادي، توقّفت هذه عند المدخل واحمرّ وجهها، ثمّ خفضت رأسها وهي تضحك. كان لها جسم امرأة لكنّها بدت طفلة.

هرعت ابنة جورجو نحوها في الحال، وأخذتها من ذراعها مثل طفلة، وسحبتها نحو أبيها وقالت بصوتها الضخم: "كاتـ... ـر.. يـنـ.. ـا جـ.. ـوردانـ... ـو".

فصاح الأب: "آه، إنّها الفتاة الشاطرة!". ثمّ مدّ يده ليلاطفها لكنّه سحبها في الحال وكرّر: "آه، الفتاة الطيّبة، فليباركك الله وليمنحك الحظّ الكبير وليجعلك سعيدة دائما وأبدا أنت وكل أحبّائك. إنّ فتاة طيّبة مثلك تساعد ابنتي المسكينة جيجا لا بد أن تكون عاملة شريفة ومخلصة. هذه تمنيات أب أسرة مسكين يتمنّاها من كلّ قلبه".

كانت الفتاة الكبيرة تداعب الفتاة الصغيرة وتلاطفها وهي خافضة الرأس مبتسمة، وكان البستانيّ يواصل النظر إليها كما لو أنّها مبجلة.

قالت المعلّمة: "يمكن أن تأخذ ابنتك اليوم معك".

أجاب البستانيّ: "آخذها معي! سأصطحبها إلى كوندوفه وأعيدها غدا

صباحا. تصوّري أن لا آخذها معي! وفي الحال، انسحبت الفتاة لترتدي ثيابها بينما تابع هو القول: "لم أرها منذ ثلاث سنين! أما وهي تنطق الآن وتتكلم، فسآخذها حالا إلى كوندوفه. لكنّي أريد قبلها أن أمسك بذراع ابنتي البكماء الصغيرة الحبيبة لأتجوّل بصحبتها في مدينة تورينو وأعرضها على الجميع، وليسمعها أصدقائي القليلون وهي تتكلّم! آه، ما أجمل الطقس في هذا اليوم! إنّها مواساة لنا بالفعل. أعطي ذراعك لأبيك يا حبيبتي جيجا!". كانت الفتاة قد عادت ومعها معطف وقبّعة صغيرة، فمدّت ذراعها في الحال.

عندما وصل نحو الباب قال الأب: "شكرا للجميع. أشكركم جميعا بكلّ جوارحي! سأعود مرة أخرى لأشكر الجميع!".

توقّف لحظة وهو يفكّر، ثمّ حرّر نفسه بعنف من الفتاة وعاد إلى الخلف وهو يفتّش داخل جيب صدارته ثمّ صاح كالمجنون: "مع أنّي لست إلاّ فقيرا فإني أترك للمعهد عشرين ليرة، في قطعة ذهبية جديدة".

ووضع القطعة على الطاولة بضربة قويّة من يده.

قالت المعلّمة منفعلة: "لا، لا، أيّها الرجل الطيّب. استعد دراهمك. لا أستطيع أن أقبلها. استعدها. ليس هذا من صلاحيّتي. عد عندما يكون المدير موجودا، لكن، تأكّد من أنه لن يقبل هذا هو أيضا. لقد تعبتَ حتّى حصّلتها أيّها الرجل المسكين. سنكون شاكرين لك جميعا في كلّ الأحوال".

أجاب البستانيّ: "لا، بل سأتركها هنا. لا مجال، وسنرى بعدها...".

لكنّ المعلّمة وضعت الدراهم في جيبه من دون أن تترك له مجالا كي يدفعها.

عندها، استسلم وهو يخفض رأسه، ثمّ أرسل قبلة سريعة نحو المعلّمة والفتاة الكبيرة، واستعاد ذراع ابنته وانطلق معها إلى الخارج وهو يقول: "تعالي، تعالي يا بنيّتي، أيتها المسكينة، يا غاليتي!".

هتفت الابنة بصوتها الضخم: "أوه ما أجـ... ـل الـ... ـشمـ... ـس!".

غاريبالدي

السبت 3 - غدا الاحتفال الوطنيّ

أعلن في هذا اليوم الحداد الوطنيّ بعد أن مات غاريبالدي مساء البارحة. هل تعلم من هو غاريبالدي؟ كان الرجل الذي حرّر عشرة ملايين إيطالي من طغيان البوربون[1]. مات عن عمر يناهز خمسا وسبعين سنة. ولد في نيس ابنا لقبطان سفينة. كان عمره ثماني سنوات عندما تمكّن من إنقاذ حياة امرأة، وكان في الثالثة عشرة من عمره حين أنقذ قاربا مليئا بالركّاب من الغرق، أمّا في السابعة والعشرين فقد رفع من مياه مرسيليا فتى مشرفا على الغرق، وفي الحادية والأربعين أنقذ سفينة من الحريق وهي في عرض المحيط. في أميركا حارب لمدّة عشر سنوات من أجل حريّة شعب أجنبيّ، وخاض ثلاث حروب ضد النمساويين من أجل تحرير منطقة لومبارديا والترينتينو، ودافع عن روما من الفرنسيين في عام 1849، ثمّ حرّر باليرمو ونابولي عام 1860، وحارب من أجل روما عام 1867، وحارب الألمان عام 1870 دفاعا عن الفرنسيين. كان يمتلك شعلة البطولة وعبقريّة الحرب. خاض أربعين حربا وربح سبعا وثلاثين منها. في الفترات التي لم يكن يقاتل فيها كان يعمل من أجل كسب عيشه، أو يزرع الأرض في جزيرة بعيدة. كان معلّما في البحريّة، وعاملا، ومفاوضا، وجنديّا، وعقيدا. كان عظيما وبسيطا وطيّبا. كان يكره كلّ الطغاة، ويحبّ كلّ الشعوب، ويدافع عن كلّ

(1) عائلة البوربون من أهم العائلات التي حكمت خلال فترات متفاوتة اعتبارا من القرن السادس عشر في كل من فرنسا وصقلية وتوسكانا وبارما. وما زالت فروع منها تحكم في إسبانيا واللوكسمبورغ. من أهم شخصياتها التاريخية لويس الرابع عشر المعروف بالملك الشمس، وفيليب الخامس الإسباني، وفرديناند الثاني ملك صقلية.

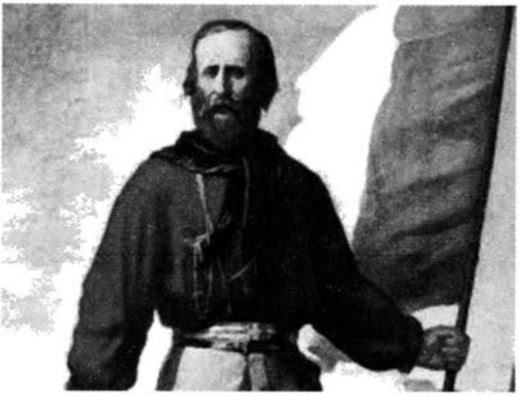

الضعفاء. لم يكن له طموحٌ إلاّ للخير، وكان يرفض التشريف والتعظيم، ويحب إيطاليا إلى أبعد الحدود. عندما كان يطلق صرخة الحرب كانت فرق الشجعان البواسل تسرع من كلّ حدب وصوب لتلتحق به. رجال شهام يهجرون القصور، وعمال يتركون المعامل، وصبية يتركون المدارس ليذهبوا جميعا ويقاتلوا تحت شمس أمجاده. كان يرتدي أثناء الحرب قميصا أحمر. كان قويّا وأشقر ووسيما. كان كالصاعقة في ساحة الوغى، وكالطفل وقت العواطف، كما كان صبورا على الألم. لقد مات آلاف الإيطاليين من أجل الوطن، وماتوا سعداء لأنّهم شاهدوه من بعيد وهو يمرّ منتصرا، والآلاف منهم كانوا على استعداد لأن يموتوا من أجله، كما دعا له الملايين، وستدعو له ملايين أخرى. لقد مات. إنّك لن تفهم هذا الآن، لكنّك ستقرأ عن بطولاته، وستسمع الكثير عنه خلال حياتك، وكلّما كبرت فإنّ صورته ستكبر أيضا أمامك. عندما تصبح رجلا ستراه عملاقا، وعندما ستذهب من هذا العالم، بل عندما لن يكون أولادك أو أولاد أولادك وكلّ من سينحدر منهم على قيد الحياة، فإنّ أجيالا أخرى بعدهم سترى رأسه المنير في الأعالي؛ هو محرّر الشعوب، بتيجان سطّرت عليها انتصاراته مثل هالة من النجوم. وستشرق جبهة كلّ إيطالي عندما يُنطق اسمه.

أبوك

الجيش

الأحد 11. تأجيل الاحتفالات الوطنية بسبب موت غاريبالدي

ذهبنا إلى ساحة كاستيلّلو لنشاهد العرض العسكري الذي جرى أمام قائد فيالق الجيش، ووسط جناحين كبيرين من جمهور الشعب. كان أبي يقدّم لي أسماء الفيالق والأمجاد التي تمّ تحقيقها تحت كلّ راية؛ وذلك كلّما مرّ واحد منها على أنغام الأبواق والفرق الموسيقيّة. مرّ أوّلا طلبة الكليّة الذين سيصبحون ضباط هندسة ومدفعيّة. كانوا حوالى ثلاثمائة بملابسهم السوداء الأنيقة التي تميّزهم كطلبة وكجنود. مرّ بعدهم المشاة: فيلق اوشتا الذي خاض في سان مارتينو حرب غويتو، ثمّ فيلق بيرغامو الذي خاض معركة كاستيل فيداردو، مرّت منه أربعة أفواج؛ السرايا تلو السرايا، وآلاف الشرّابات الحمراء التي تبدو كأكاليل مزدوجة طويلة مصنوعة من ورود بلون الدم، تتموّج مفرودة الطرفين وهي تتقدَم بين الحشود. بعد المشاة جاء دور جنود الهندسة، عمّال الحرب بخوذهم المزيّنة بأشعار سوداء كذيول الخيل، وأنطقتهم القرمزيّة. وبينما كان هؤلاء يمرّون، كانت تشاهد وراءهم مئات الأرياش الطويلة المستقيمة التي كانت تمرّ فوق رؤوس المشاهدين. كانت فرقة جبال الألب تضمّ المدافعين عن أبواب إيطاليا، كانوا طويلي القامة، ومتورّدي الوجوه، وأقوياء البنية، يعتمرون قبّعات من طراز منطقة كالابريا التي تظهر بطاناتها ذات اللون الأخضر البرّاق الجميل؛ لون عشب جبالهم. كان عرض الألبيّين مستمرّا عندما سرى صدى هزيم بين الجمهور، كانت كتيبة الرماة (البيرسالْييري) الشهيرة، وهي الكتيبة الثانية عشرة القديمة التي كانت أولى الكتائب التي دخلت روما من ثغرة بورتا بيا، كانوا سمرا وسريعين ويقظين بأرياشهم الخفّاقة. مرّوا كموج سيل أسود، وتردّد صدى أبواقهم الحادّ في الساحة كصيحات فرح ومرح. لكنّ ضجيجا

متقطّعـا غطّـى علـى جلبة أبواقهم ليعلـن عن عرض مدفعيّة الميدان. مرّوا وقتئذ بكبرياء، وهم جالسون على عربات المدافع العالية التي يجرّها ثلاثمائة زوج من الخيل العاتية، كانوا الجنود الرائعين ذوي الأربطة الصفراء، مع مدافعهم الضخمة الفولاذيّـة والبرونزيّـة التـي تلمع على عرباتها الخفيفة التي كانت تجري وتقرقع فتهتزّ لها الأرض. ثمّ جاءت وتقدّمت بتؤدة، جميلة رغم مظهرها الخشن، بجنود عظماء على بغالٍ جسيمة؛ إنّها فرقة مدفعيّة الجبال التي تجلب الرعب وتسبّب المـوت حتّـى أعلـى قمّة يمكن لقدم إنسـان تسـلّقها. بعدها جـاءوا عدْوا بخوذ برّاقة تحت أشـعّة الشـمس، ورماح منتصبة، ورايات في مهبّ الريح، يتلألأون بالفضّـة والذهـب ويمـلأون الجوّ بالصلصلة والصهيل؛ إنّها فرقة فرسـان جنوى التي عصفت كالزوبعة في عشـر سـاحات وغى من سـانتا لوشـيا إلى فيلاّفرانكا. هتفـتُ: "مـا أجملهـا!". فكاد أبي يوبّخني علـى هذه الكلمة وقال لي: "يجب ألاّ تعتبـر الجيـش مجـرّد عـرض جميل. لأنّـه يمكن لكلّ هؤلاء الشـباب المفعمين بالقـوّة والأمـل أن يسـتدعوا إلـى الدفـاع عـن بلادنـا، ويمكن أن يقـع منهم في سـاعات قليلة من تمزّقه القنابل والرشّاشـات. عليك كلّما سـمعت صيحات في الاحتفالات أن تهتف: عاش الجيش، عاشـت إيطاليا... عليك وقتها أن تتصوّر فيالق تمرّ وساحات حرب تغطّيها الجثث وتغرقها الدماء. وقتها ستشعر أنّ كلمة عاش تخرج من صميم قلبك، وأنّ صورة إيطاليا تبدو أشدّ صرامة وأعظم وقعا.

إيطاليا

الثلاثاء 14

فلتحيَ الوطن في أيّام الاحتفال به: إيطاليا، يا وطني، يا أرضي النبيلة العزيزة، وطني الذي ولد على أرضه أبي وأمّي، وفي ترابه سيدفنان، حيث أرجو أن أعيش أنا أيضا وأموت، حيث سيعيش أولادي ويموتون، يا إيطاليا التي كانت منذ قرون عديدة جميلة وعظيمة التي توحّدت وتحرّرت منذ سنين قليلة، والتي أشعلت أنوارا كثيرة من الفكر في أنحاء العالم، والتي مات من أجلها الكثير من الشجعان في الساحات والكثير من الأبطال على حبال المشانق، يا أمّا جليلة لثلاثمائة مدينة ولثلاثين مليون ابن. إنّي أنا الطفل الذي لم يحط بعد بكلّ ما فيك، ولا أعرف كلّ أرجائك. إنّي أحبّك بكلّ روحي، وأنا فخور بأنّي ولدت منك وبأنّي سُمّيت ابنا لك. إنّي أحبّ بحارك الرائعة وجبال الألب السامية، أحبّ نُصبك وذكرياتك، أحبّ تاريخك وجمالك، أحبّ جميع أرجائك. والمكان الذي أفضله فيك هو الذي رأيت فيه الشمس لأوّل مرّة وسمعت فيه اسمك لأوّل مرّة. أحبّ جميع مدنك حبّا جما، وبالإخلاص نفسه. أحبّ تورينو العظيمة، وجنوى الجليلة، وبولونيا المثقّفة، والبندقية الساحرة، وميلانو العظيمة، وفلورنسة النبيلة، وباليرمو الرهيبة، ونابولي الواسعة الجميلة، وروما الرائعة الخالدة. أحبّك أيّها الوطن المبجّل! وأقسم إنّي سأحبّ كل أبنائك حبّ الإخوة، وسأبجّل بكلّ قلبي العظماء من أحيائك وأمواتك، وسأكون مواطنا فعّالا وشريفا، وسأعمل دائما على تطهير نفسي حتّى أكون جديرا بك وحتّى أستخدم قواي المتواضعة كي يزول البؤس يوما ما عن أراضيك، وكذلك الجهل والظلم والجريمة، وكي تعيش وتتمتع بأمجاد الحقّ والقوّة. أقسم إنّي سأخدمك ما استطعت إلى ذلك سبيلا؛ بعقلي وبذراعي وقلبي، بتواضع وحماسة. وإذا جاء

يـوم توجّـب علـيّ فيـه أن أضحّي بدمـي وحياتي فإنّي سـأبذل دمي وأموت في سبيلك هاتفا باسمك، وسأعطي آخر قبلة لرايتك المباركة.

أبوك

32 درجة

الجمعة 16

ازداد الحرّ ثلاث درجات خلال الأيام الخمسة التي تلت يوم الاحتفال الوطني. أصبحنا الآن في قلب الصيف، وبدأ الجميع يشعرون بالتعب، كما فقدوا لون الربيع الورديّ. استدقّت الأعناق والسيقان، وتراخت الرؤوس، وانغلقت العيون. وهكذا فإن وجه نيلّلي المسكين الذي يعاني من الحرّ أشدّ المعاناة صار بلون الشمع، وبدأ يرخي رأسه فوق دفاتره، بل ويغرق أحيانا في نوم عميق، وكان غارّوني حريصا على أن يسارع ليحجبه عن عيني الأستاذ بكتاب مفتوح، أمّا كروسّي فكان يسند يقطينته الحمراء على المقعد بطريقة يبدو فيها رأسه وكأنّه مفصول عن العنق وموضوع هناك. كما كان نوبيس يتذمّر من عددنا الكبير الذي يفسد الجوّ. آه! كم يجب على المرء أن يبذل الآن من جهد كي يتمكّن من الدراسة! أنظر من النافذة إلى تلك الأشجار الجميلة التي تلقي بظلالها القاتمة فأتمنّى من كلّ قلبي أن أذهب لأجري تحتها، بل إنّي أشعر بالحزن والغضب لأنّه عليّ أن أبقى سجينا بين المقاعد. لكنّي لا ألبث أن أستعيد شجاعتي عندما أرى أمّي الطيّبة وهي تنظر إليّ دائما عندما أخرج من المدرسة لترى إذا كان وجهي ممتقع اللون، والتي تقول لي بعد كلّ صفحة من وظائفي: "هل ما زلت مستعدّا؟". كما أنها توقظني كلّ صباح عند السادسة وهي تقول لي: "هيّا، تشجّع، لم تبق إلا أيام قليلة وستصبح بعدها حرّا وتستريح وتذهب إلى ظلال الشوارع العريضة. بلى، إنّها محقّة حقّا عندما تذكّرني بالصبية الذين يعملون في الحقول تحت أشعة الشمس، أو بين حصى الأنهار البيضاء التي تعمي البصر وتلسع الأرجل، أو في معامل الزجاج واقفين طيلة النهار بلا حراك ووجوههم منحنية فوق لهب الغاز مع أنّهم يستيقظون قبلنا ولا يتمتّعون بأيّ عطلة. هيا، تشجّع

إذا، لا بد من القول إنّ ديروسّي يبقى الأوّل بيننا حتّى في هذا المجال، فهو لا يتأثّر بالحرّ ولا بالبرد، بل يبقى يقظا ومرحا بخصل شعره الشقراء كما كانت في الشتاء، ويدرس بدون أيّ صعوبة، ويحمل كلّ من حوله على أن يبقوا نشيطين كما لو أنّه يجدّد الهواء ويجعله منعشا بصوته. هناك اثنان آخران أيضا نشيطان ويقظان: ألا وهما ستاردي العنيد الذي يخز نفسه كي لا ينام، بل إنّه كلّما اشتدّ الحر حوله وكلّما اشتدّ به التعب صرّ على أسنانه أكثر فأكثر وفتح عينيه حتّى يظن الناظر إليه أنّه يريد أن يلتهم الأستاذ بنظراته. أمّا الثاني فهو ذلك المقايض غاروفّي المشغول على الدوام بصنع المراوح الورقية الحمراء التي يزيّنها بصور من علب الكبريت وذلك ليبيع كلاً منها بسنْتَين. لكنّ الأفضل على الإطلاق هو كوريتّي، كوريتّي المسكين الذي يستيقظ عند الخامسة ليساعد أباه في حمل الحطب! لكنّه ما إن تصبح الساعة الحادية عشرة حتّى يعجز عن البقاء مفتوح العينين فترى رأسه يسقط على صدره. وهكذا يبدأ بهزّ نفسه وبضرب رقبته، ثمّ يطلب الإذن ليخرج ويغسل وجهه، بل ويطلب من جيرانه أن يهزّوه وأن يقرصوه. ومع هذا، لم يتمكن هذا الصباح من التحمّل فنام نوم الموتى في القبور. نادى الأستاذ عليه بصوت مرتفع: "كوريتّي!". لكنّه لم يسمع. استشاط الأستاذ غضبا فكرر نداءه: "كوريتّي!". عندها نهض ابن الفحّام وجاره في البيت وقال: "لقد عمل منذ الخامسة وحتى السابعة في تحميل الأكوام". عندها، تركه الأستاذ نائما، وواصل إلقاء الدرس لنصف ساعة. ذهب بعدها نحو مقعد كوريتّي وبدأ ينفخ بكل تؤدة على وجهه فأيقظه. تراجع كوريتّي إلى الوراء من الفزع عندما رأى الأستاذ أمامه، وهنا أخذ الأستاذ رأس الفتى بين يديه وقبّله على شعره قائلا: "إنّي لا أعنّفك يا بنيّ. فنومك ليس نوم كسل، بل إنّه نوم التعب".

أبي

السبت 17

من المؤكد أن رفيقك كوريتّي وكذلك غاروني لا يجيبان أبويهما بالطريقة التي أجبت بها أباك هذا المساء. هل هذا ممكن يا أنريكو؟ عليك أن تقسم لي إنّ هذا لن يتكرّر ثانية ما حييتُ. إذا وبّخك أبوك مرّة وسيق إلى شفتيك جوابٌ غير لائق على ذلك التوبيخ، ففكّر عندها بيومٍ لا بد أنه قادم يناديك فيه إلى جانب سريره ليقول لك: سأتركك الآن يا أنريكو. عندما تسمع صوته يا بنيّ للمرّة الأخيرة، ثمّ بعدها بوقت طويل عندما تجلس لتبكي وحيدا في غرفتك المنعزلة وسط كتبٍ لن يفتحها هو ثانية، عندها ستتذكّر أنّك قد أسأت إليه ذات مرّة أو عدّة مرّات، وستتساءل حينها أنت أيضا: هل كان هذا ممكنا يا أنريكو؟ وستفهم عندها أنه كان دائما أفضل صديق لك، وأنّه عندما كان يضطرّ لتوبيخك فإنّه كان يتألّم من الأمر أكثر منك، وأنّه لم يُبكِك مرّة إلاّ لصالحك، وستندم عندها، وستنكبّ على الطاولة التي طالما عمل وهدر حياته فوقها من أجل أولاده فتقبّلها وأنت تبكي. قد لا تفهم الآن؛ لأنّه يخفي عنك كل ما في داخله ولا يظهر لك إلاّ طيبته ومحبّته. إنّك لا تعلم أنّ التعب يصنيبه أحيانا فيظنّ أنه لم يبق له في هذه الحياة إلاّ أيام معدودة. في تلك اللحظات لا يتحدّث إلاّ عنك، ويشعر بالقلق من تركك فقيرا مستضعفا من دون أحد يحميك. كم مرّة فكّر بهذا الأمر فدخل غرفتك وأنت نائم وبقي فيها وهو يحمل السراج وينظر إليك، ثمّ يتركه ليعود بعد جهد جهيد إلى عمله منهك القوى حزينا. وأنت لا تعلم أيضا أنّ أباك كان يبحث عنك حين يشعر في بعض الأحيان بمرارة في قلبه بسبب أحزان أصابته كما تصيب كلّ إنسان على وجه الأرض، كان في تلك اللحظات يبحث فيك عن الصديق الذي يجد فيه المواساة والنسيان، والذي يلجأ إلى

محبّته وعطفه ليستعيد شجاعة القلب وصفاء النفس. أيّ ألمٍ إذا يعصر قلبه إذا وجد فيك استهتارا محلّ العطف وبرودة محل المحبّة! فلا تلوّثنّ نفسك ثانية، أبدا ومطلقا، بمثل هذا الجحود. وتذكّر أنّك حتّى لو كنت أطيب الناس، وحتّى لو كنت محترما جدا، فإنّك لن تعوّض البتّة عمّا فعله وما يفعله باستمرار من أجلك. وتذكّر أيضا أنّه لا مجال للمرء أن يعلّق آماله بالحياة؛ إذ تكفي مصيبة واحدة حتّى يفقد أباه بعد سنتين أو بعد ثلاثة أشهر أو في الغد، وهو لا يزال صغير السنّ. آه يا أنريكو الغالي، يا أنريكو المسكين! سترى كلّ شيء قد تغيّر حولك، آنئذٍ سيبدو لك البيت فارغا ومقفرا، وسترى أمّك بثياب الحداد السوداء. فاذهب يا بنيّ، اذهب لعند أبيك: إنّه يعمل في غرفته، اذهب على رؤوس أصابع قدميك حتّى لا يشعر بك وأنت تدخل عليه. اذهب وأسند جبهتك إلى ركبتيه واطلب منه الصفح والدعاء.

أمّك

في الريف

الاثنين 19

سامحني أبي الطيّب حتّى في هذه المرّة، بل وسمح لي بأن أشارك في النزهة التي تمَ التخطيط لها مع والد كوريتّي بائع الحطب. كنّا جميعنا بحاجة حقّا إلى شيء من هواء المرتفعات العليل. كانت تلك النزهة بمثابة عطلة لنا. اجتمعنا عند الساعة الثانية في ساحة الستاتوتو، وجاء ديروسّي وغاروني وغاروفّي وبريكوسّي وكوريتّي الأب والابن وأنا. أحضرنا جميعنا زوّادة من الفواكه والمقانق والبيض المسلوق، كما أحضرنا قوارير أو مطريّات جلدية وكؤوسا من القصدير، وجاء غاروني أيضا بقرعة ملأها شرابا أبيض، وكوريتي بقارورة أبيه العسكريّة وفيها شراب أسود، أمّا بريكوسّي الصغير الذي ارتدى قميص الحدّادين فقد حمل تحت إبطه رغيف خبز كبيرا يزن كيلوغرامين. ذهبنا بالحافلة حتى محلّة غران مادرى دي ديو، ثمّ تسلّقنا التلال بسرعة. كانت هناك خضرة في كل مكان، وظلال وبرودة. تواثبنا، وتقلّبنا فوق الأعشاب، وغمسنا وجوهنا في السواقي، وقفزنا فوق الحواجز. كان كوريتّي الأب يتابعنا من على بعد وقد وضع سترته على كتفه وهو يدخّن في غليون من جبصين، وكان يهدّدنا من حين لآخر بيده، ويطلب منّا أن ننتبه كي لا نثقب سراويلنا. كان بريكوسّي يصفر، ولم أسمعه يفعل ذلك قط. كوريتّي الابن فعل كلّ ما في بوسعه؛ وكان ذلك الرجل الصغير يعرف كيف يصنع كلّ شيء بالموسى الصغيرة التي يملكها والتي كانت بطول الإصبع من طحن والتقاط وبخّ، وكان يصرّ على أن يحمل متاع الآخرين رغم أنّه كان مثقَلا ينضح عرقا، ومع ذلك فقد حافظ كالعنزة على رشاقته وحيويّته. كان ديروسّي يتوقّف بين الفينة والأخرى ليذكر لنا أسماء النباتات والحشرات التي يصادفها، ولا أدري كيف له أن يعرف الكثير عن تلك

الأشياء. غارّوني كان يأكل الخبز بصمت، لكنّ المسكين لم يعد يلقي علينا نكاته المرحة كما كان يفعل قبل أن تموت أمّه. غير أنّه بقي كما كان طيّبا مثل الخبز. وعندما كان أحدنا يجري ليقفز فوق حفرة فإنّه كان يسرع إلى الطرف الآخر ليمدّ له يديه. وكان يسعى لأن يحول بين بريكوسّي وأيّ بقرة تمرّ لأنه كان يخاف من البقر بعد أن نطحته بقرة وهو صغير.

ذهبنا إلى قمّة عالية تدعى سانتا مارغريتا، ثم هبطنا قفزا وتدحرجا وانزلاقا... كأنّنا حبّات تفّاح. تعثّر بريكوسّي في إحدى الشجيرات فتمزق قميصه وخجل من منظره، لكنّ غاروفّي سارع وأصلح الأمر بأن وصل الطرفين بواحد من الدبابيس التي كان يغرزها في سترته، بينما واصل الأوّل تكرار عبارته الشهيرة: عفوا عفوا، ثمّ تابع جريه. لم يهدر غاروفّي شيئا من وقته، فكان يلتقط على طول الطريق أعشابا تصلح لصنع السلطة، والقواقع، بل وكان يضع في جيبه كلّ حجر يرى أنّه يلمع بعض الشيء ظانّا أنّ فيه ذهبا أو فضّة. ثم سرنا إلى الأمام جريا وتدحرجا وتسلّقا في الظلّ أو في الشمس، إلى أعلى المرتفعات وأسفل المنخفضات، وذلك حتّى وصلنا مرهقين منهكين إلى قمّة هضبة جلسنا على أعشابها لنتناول غداءنا الخفيف. شاهدنا من علٍ السهل الفسيح وجبال الألب الزرقاء بقممها البيضاء. كنّا نشعر بجوع شديد، وبدا لنا الخبز أنّه يذوب. وكان

كوريتّي الأب يناولنا قطع السجق موضوعة على ورق القرع. بدأنا بالكلام كلّنا معا وتحدّثنا عن الأساتذة وزملائنا الذين لم يتمكّنوا من المجيء معنا وعن الفحوص. كان بريكوسّي يخجل بعض الشيء من تناول الطعام، لكنّ غاروني كان يدسّ بالقوّة بعضا من أفضل حصّته في فم بريكوسّي. جلس كوريتّي إلى جانب أبيه، وقد صالب قدميه مثل أبيه، حتى إنه يُخيل لمن يشاهدهما وهما قريبان من بعضهما، بوجهيهما الأحمرين المبتسمين وأسنانهما البيضاء أنهما أخوان أكثر من كونهما أبا وابنا. كان الأب يعبّ الشراب بمتعة، حتّى إنّه أفرغ في فمه الكؤوس التي تركنا نصفها، وهو يقول: "الشراب يضرّكم أنتم الذين تدرسون. أمّا بائعو الحطب فيحتاجون إليه". ثمّ كان يمسك بأنف ابنه ويهزّه قائلا لنا: أحبّوا أيها الفتية هذا الشخص، إنّه زهرة النبل، أؤكد لكم هذا!". وهكذا كان يضحك الجميع ما عدا غاروني. فكان يواصل وهو يعبّ الشراب: "من المؤسف أنكم الآن مجتمعون معا رفاقا متحابّين، ثمّ من يدري بعد بضع سنين كيف ستكونون؟ سيكون أنريكو وديروسّي محاميين أو أستاذين أو لا أدري ماذا، بينما بقيّة أربعتكم في الدكاكين أو مهنيّين. السلام عندها على هذه الصداقة. لكنّ ديروسّي أجاب: "كيف!؟ سيبقى غاروني بالنسبة لي غاروني، وبريكوسّي سيبقى بريكوسّي. وكذلك البقيّة، حتّى لو أصبحت إمبراطور جميع البلاد الروسيّة، وسأذهب إلى حيث يذهبون". فصاح كوريتّي الأب وهو يرفع قارورته: "بوركت يا فتى. هذا هو الكلام الجيد. عاش الصبية الشجعان، وعاشت المدرسة أيضا، فهي التي جعلتكم عائلة واحدة، من عنده عائلة ومن ليس عنده". احتسينا آخر جرعة شراب، ثمّ هتف كوريتّي الأب وهو ينتصب واقفا ويبتلع الرشفة الأخيرة: "عاشت رباعيّة الـ 49. أمّا إذا رغبتم بتشكيل سريّة خاصّة بكم فاثبتوا يا فتية كما ثبتنا!". تأخّر الوقت، فهبطنا نجري ونغنّي ونسير لمسافات طويلة ونحن متشابكو الأذرع. ولم نصل إلى نهر البو إلاّ وقد بدأ الظلام يخيّم، وبدأت آلاف اليراعات تطير متلألئة. لم نفترق إلاّ في ساحة ديلّو ستاتوتو بعد أن اتّفقنا على الذهاب معا يوم الأحد إلى فيتّوريو ايمانويلى لنشاهد توزيع الجوائز على طلبة المدارس المسائيّة. ما أجمله من يوم! دخلت البيت وكاد سروري أن يكون عارما لو لم

أجتمـع بمعلّمتـي المسـكينة. شـاهدتها تهبط على درج بيتنا فـي الظلام، وما إن عرفتني حتّى أمسكت بكلتا يديّ وهي تهمس في أذني: "وداعا يا أنريكو! اذكرني دائما". ولاحظت أنّها كانت تبكي. تابعت صعودي ثمّ أخبرت أمّي بأنّي قابلت معلّمتـي. كانـت فـي طريقهـا إلى سـريرها لتنام، وقد احمـرّت عيناها، وأجابتني بحزن كبير وهي تنظر إليّ نظرة ثابتة: "إنّ معلّمتك المسكينة مريضة جدّا".

توزيع الجوائز على العمّال

الأحد 25

ذهبنا حسبما اتّفقنا إلى مسرح فيتّوريو ايمانويلى لنشاهد توزيع الجوائز على العمّال. كان المسرح مزيّنا كما كان يوم 14 آذار ومزدحما كلّه تقريبا بعائلات العمّال، بينما شغل الصالة تلاميذ مدرسة الغناء الكورالي وتلميذاتها الذين غنّوا أنشودة في ذكرى الجنود الذين قضوا في حرب كريمِيا. كان نشيدا جميلا جدا، حتّى إنَ الجميع انتصبوا وقوفا عندما أنهوا ليصفّقوا ويهتفوا فاضطرت الفرقة إلى إعادة الغناء من جديد. بدأ الفائزون بعدها يمرّون أمام العمدة وكثيرين آخرين فوزّعوا عليهم دفاتر صندوق التوفير وشهادات وميداليات. رأيت في طرف الصالة المعماريَ الصغير جالسا إلى جانب أمّه، وفي طرف آخر جلس المدير، ورأيت خلفه رأسا أحمر كان رأس أستاذي في الصفّ الثاني. كما اصطفّ لأخذ الجوائز تلاميذ المدارس المسائيّة المتخصّصة بتعليم الرسم والصياغة والحفر والطباعة والنجارة والبناء، تبعهم تلاميذ مدرسة التجارة، وتلاميذ ثانويّة الموسيقى، وكانت بينهم الكثير من الفتيات والعاملات بلباس الاحتفال. في النهاية، جاء دور تلاميذ المدارس المسائيّة الابتدائيّة، فكان منظرهم جميلا بحقّ؛ إذ مرّوا بكلّ الأعمار وبكلّ المهن، وبملابس من كلّ الأنواع. كانوا رجالا ذوي شعر شائب وصبية من عمّال المصانع، وعمّالا بلحى سوداء كثيفة. أمّا الصغار فكانوا غير مبالين، في حين بدا على الكبار بعض الحرج. وكان الناس يصفّقون بصورة خاصة لأكبر الكبار ولأصغر الصغار. لكنّ أحدا لم يضحك بين الجمهور كما فعلوا في حفلتنا، بل كانت وجوه الجميع تنمّ عن الجدّيّة والانتباه. كانت زوجات الكثير من الفائزين وأولادهم جالسين في الصالة. وكان فيها أطفال حين يرون آباءهم يمرّون على خشبة المسرح ينادونهم بأسمائهم

بأصوات مرتفعة ويلوّحون لهم بأياديهم وهم يقهقهون. مرّ فلاّحون وحمّالون من مدرسة بون كومبانيّ. ومرّ من مدرسة القلعة عامل تلميع أحذية يعرفه أبي وقد أعطاه الحاكم شهادة. رأيت بعده رجلا ضخما كالعملاق بدا لي عندما رأيته أنّي شاهدته سابقا؛ كان أب المعماريّ الصغير وقد حصل على الجائزة الثانية! تذكّرت عندما رأيته في السقيفة إلى جانب سرير ابنه المريض فبحثت في الحال عن ابنه بين الجمهور. يا للمعماريّ الصغير المسكين! كان ينظر إلى أبيه بعينين برّاقتين، وحاول أن يخفي انفعاله بأن قلّد مرّة أخرى وجه الأرنب. سمعت في تلك اللحظة الجمهور وهو ينفجر بالتصفيق، فنظرت إلى خشبة المسرح ورأيت فتى صغيرا يعمل في تنظيف المداخن. ومع أنّ وجهه كان نظيفا إلاّ أنّه جاء بملابس العمل فأمسك العمدة بيده وحادثه. بعد عامل تنظيف المداخن جاء طبّاخ، ثمّ مرّ وأخذ الميدالية عامل تنظيفات البلديّة من مدرسة راينيري. كنت أشعر بأمر لا أدري ما هو يعتمل في قلبي؛ كان شبيها بعطف عظيم أو احترام جليل لأولئك العمّال الذين لا أدري كم كلّفتهم هذه الجوائز، كانوا آباء عائلات تكفيهم همومهم، وجاءت الدراسة لتضيف جهودا مضنية إلى جهودهم المضنية، وخشونة إضافيّة إلى أيديهم الغليظة التي خشّنها العمل، ولتقطع عنهم ساعات من نومٍ كانوا بأشدّ الحاجة إليه، ولتحمّل عقولهم جهدا لم تألفه. مرّ بعدها فتى يعمل في ورشة، وظهر واضحا أنّ أباه قد أعاره سترته ليرتديها في هذه المناسبة لأنّ كمّيها كانا متدليين، حيث اضطر إلى لفّهما وهو على المسرح كي يتمكّن من تناول الجائزة؛ مما حمل كثيرين على الضحك؛ رغم أنّ التصفيق طغى بعدها على الضحك. جاء بعده عجوز أصلع الرأس أبيض اللحية، ومرّ كذلك جنود مدفعيّة كانوا يجيئون إلى الدروس المسائيّة في مدرستنا، ثم شرطة الجمارك وشرطة البلديّة الذين يحرسون مدرستنا. وفي النهاية، غنّى تلاميذ المدرسة المسائيّة مرّة أخرى النشيد، غنّوه بحماسة كبيرة وبعواطف دفّاقة تنبع من القلب، مما حمل الناس على أن يقطعوا التصفيق ليخرجوا على مهلٍ صامتين ومنفعلين. وفي دقائق معدودة، امتلأ الشارع بالناس. أمام باب المسرح وقف عامل تنظيف المداخن وهو يحمل دفتر جائزته المجلّد بالأحمر وقد تحلّق حوله

كثيرون ليحادثوه. وكان كثيرون آخرون يحيّون بعضهم بعضا من طرفي الشارع. كانوا عمّالا وحرّاسا وأساتذة. وقد خرج أستاذي في الصفّ الثاني وسط جنديّي مدفعية. وشوهدت أيضا زوجات العمّال وأطفالهن على أذرعهنّ وهم يمسكون بأيديهم الصغيرة شهادات آبائهم ويعرضونها بفخرٍ على الناس.

موت معلّمتي

الثلاثاء 27

ماتت معلّمتي المسكينة عندما كنّا في مسرح فيتّوريو ايمانويلى. ماتت عند الساعة الثانية، بعد سبعة أيّام من مجيئها لزيارة أمّي. جاء المدير صباح البارحة ليعلن الخبر على المدرسة. قال: "يعرف الذين كانوا منكم بين طلابها كم كانت طيّبة، وكم كانت تحبّ تلاميذها. بلى، كانت أمّا لهم. وقد غابت الآن. كان هناك مرض خطير يستهلك منذ بعض الوقت صحّتها. لو لم تضطر إلى العمل لتكسب لقمة عيشها لكان بوسعها أن تتداوى ولربّما أن تشفى. كان بوسعها على الأقل أن تطيل عمرها بضعة أشهر لو أنّها أخذت إجازة. لكنّها فضّلت البقاء مع فتيتها حتّى يومها الأخير. في مساء السبت 17 ودّعتهم وهي على ثقة بأنّها لن تراهم مجدّدا؛ فقدّمت لهم نصائح جديدة، وقبّلتهم كلّهم ثمّ غادرت وهي تجهش في البكاء. لن يراها أحدٌ بعد الآن. اذكروها يا أبنائي". وهنا انحنى بريكوسّي الصغير الذي كان تلميذها في الصفّ الأوّل المتقدّم على المقعد وشرع في النحيب.

ذهبنا مساء البارحة كلّنا معا بعد الانصراف إلى بيت المتوفّاة لنرافق الجثمان إلى دار العبادة. وجدنا في الشارع عربة الموتى التي يجرّها حصانان، ووجدنا الكثير من الناس ينتظرون وهم يتحادثون همسا. كان بينهم المدير، وكلّ أساتذة مدرستنا ومعلّماتها بل ومن مدارس أخرى أيضا علّمت فيها قبل سنوات. وكان هناك كلّ أطفال صفّها تقودهم أمّهاتهم من أيديهم، وكانوا يحملون المشاعل، وكان هناك كثيرون آخرون من صفوف أخرى، فضلا عن حوالى خمسين طالبا من مدرسة باريتّي يحملون أكاليل ورد في أيديهم أو باقات الزهور. كما كانت هناك أكاليل كثيرة موضوعة على العربة، إلى جانب إكليل كبير من الآكاسيا كتب عليه بحروف سوداء: "إلى معلّمتهنّ - من تلميذاتها القديمات في الصفّ

الرابع". تحت الإكليل الكبير وضع إكليل صغير جاء به أطفالها. شوهدت بين الجمهور نساء كثيرات خادمات أرسلتهنّ سيداتهنّ ليحملن الشموع، فضلا عن خادمين ببزّة الخدم يحملان مشعلا مضيئا، وكان هناك أيضا سيّد غنيّ، أبو تلميذ المعلّمة، أتى بعربته المبطّنة بالحرير الأزرق. احتشد الجميع حول الباب، بينما عملت بعض الفتيات على تجفيف دموعهن. انتظرنا بعض الوقت بصمت. أخيرا نزلوا بالتابوت. ما إن رأوا التابوت يوضع في العربة حتّى انكبّ بعض الأطفال يجهشون في البكاء، وعلا صراخ أحدهم وكأنّه لم يدرك إلاّ وقتها فقط أنّ معلّمته قد ماتت، ثم تشنّج من عزم البكاء حتّى اضطروا لإبعاده. تجمّع الموكب ببطء ثم تحرّك متهاديا بانتظام. تقدّمته بنات ريتيرو ديلاّ كونشتزيونى بملابسهنّ الخضراء، ثمّ بنات ماريّا بملابسهنّ البيضاء وشرائطهن الزرقاء، ثمّ رجال الدين، وخلف العربة الأساتذة والمعلّمات وتلاميذ الصفوف الأولى المتقدّمة، ثم جميع الآخرين يتبعهم حشد من الجمهور. كان الناس يطلّون من النوافذ والمداخل ليشاهدوا كلّ أولئك الفتية والأكاليل، وكانوا يقولون: "إنّها معلّمة. وهناك من بكى من بين السيّدات اللائي كنّ يصطحبن الصغار. عندما وصلوا إلى دار العبادة أنزلوا التابوت من العربة وأدخلوه دار العبادة، فوضعت المعلّمات عليه الأكاليل، وغطّاه الأطفال بالورود، وتحلّق الناس حوله بشموعهم المشتعلة، وبدأت الأدعية ترتفع في دار العبادة الكبيرة المظلمة. وما إن لفظ رجل الدين كلمة آمين الأخيرة حتى أُطفئت كلّ الشموع وخرج الجميع مسرعين، وبقيت المعلّمة وحيدة. يا لمعلّمتي المسكينة! كانت طيّبة جدّا معي، وكانت صبورة جدّا، وقد أجهدت نفسها لسنين طويلة! تركت كتبها القليلة لتلاميذها، وتركت لواحد منهم محبرتها ولآخر دفترا، هذا كلّ ما تملكه. قبل أن تموت بيومين طلبت من المدير ألاّ يرسل الصغار إلى جنازتها لأنّها لا تريدهم أن يبكوا. لقد عملت صالحا، وقاست في حياتها، وها هي قد ماتت الآن. يا للمعلّمة المسكينة! وداعا، وداعا إلى الأبد يا صديقتي العزيزة الطيّبة، يا ذكرى حلوة وحزينة من ذكريات طفولتي!

شكرا

الأربعاء 28

أرادت معلّمتي المسكينة أن تنهي العام الدراسيّ كلّه، رحلت ولم تبق إلا ثلاثة أيّام على انتهاء الدراسة. سنذهب بعد غد إلى المدرسة لنسمع تلاوة القصّة الشهريّة الأخيرة: الغرق، ثمّ... النهاية. فيوم السبت الأوّل من تموز تبدأ الفحوص.

لقد انتهى إذا عام آخر، وكان الرابع. لو لم تمت معلّمتي لقلت إنّه مرّ بخير. أفكّر بما كنت أعرفه في شهر تشرين الأوّل الماضي فأرى أنّي أعرف الآن أكثر بكثير. هناك في عقلي الآن الكثير من الأشياء الجديدة، وأستطيع الآن أن أعبّر وأكتب عمّا يدور في خاطري بصورة أفضل من الماضي، وأستطيع أيضا أن أحسب لأشخاص آخرين كبار حسابات لا يستطيعون أن يجروها بأنفسهم، وأن أساعدهم في أعمالهم، كما أنّي أفهم الآن أكثر، وأكاد أفهم كلّ ما أقرأه. إنّني مسرور لهذا... لكن، كم من الناس دفعوني وساعدوني لكي أتعلّم؟ لقد فعلوا ذلك بطريقة أو بأخرى، في البيت وفي المدرسة وفي الطريق وحيثما ذهبت. إنّي أشكرهم الآن جميعا. أشكرك أنت أولاً يا أستاذي الطيّب الذي صبرت عليّ وأغدقت عليّ عطفك وبذلت جهدا جهيدا لأحصّل معارف جديدة أسعد بها الآن وأفتخر بها. أشكرك يا ديروسّي، يا رفيقي الذي أفتخر به، يا من جعلتني تفسيراته السريعة واللطيفة أفهم في كثير من الأحيان أشياء صعبة، وساعدتني على تجاوز صعوبات الفحص. وأنت أيضا يا ستاردي الشاطر القويّ، يا من أفهمتني أنّ الإرادة الحديديّة القويّة تستطيع أن تحقّق كلّ شيء. شكرا لك أيضا يا غاروني الطيّب الكريم الذي يتمكّن من جعل معارفه الآخرين طيّبين وكرماء، ولكما أيضا يا بريكوسّي وكوريتّي لأنكما قدمتما لي مثالا يحتذى في الشجاعة

والصفاء في العمل. أقول لكم شكرا، وأشكر كلّ الآخرين وقبلهم جميعا أنت يا أبي، يا أوّل أستاذ وأوّل صديق أعطاني الكثير من النصائح الجيّدة، يا من علّمتني أشياء كثيرة بينما كنت تعمل من أجلي وتخفي عنّي أحزانك وتحاول بكلّ الطرائق أن تجعل دراستي سهلة وحياتي جميلة، وأنت يا أمّي الحلوة التي تحرسينني دوما، يا من تلذّذت بمسرّاتي، وتألّمت لأحزاني، ودرست وتعبت معي، بيدٍ تداعبين جبهتي وبالأخرى ترشدينني إلى طريق الصواب. إنّي أركع أمامكما مثلما فعلت وأنا طفل، وأشكركما، أشكركما بكلّ الحنان الذي غرستماه في قلبي خلال اثنتي عشرة سنة من الحب والتضحيات.

الغرق

القصّة الشهريّة الأخيرة

قبل عدّة سنوات من الآن، ذات صباح من شهر كانون أوّل، أبحرت من ميناء ليفربول سفينة بخارية كبيرة تحمل على متنها أكثر من مائتي شخص، بينهم سبعون رجلا من طاقمها. كان القبطان وكلّ البحّارة تقريبا من الإنكليز. وكان هناك بين الركّاب عدة إيطاليين: ثلاث سيّدات ورجل دين وفرقة من العازفين. كان على السفينة أن تتّجه إلى جزيرة مالطة، وكان الطقس معكّرا.

كان هناك في مقدّمة السفينة وبين ركّاب الدرجة الثالثة فتى إيطالي في الثانية عشرة من عمره، ويبدو أصغر من عمره رغم أنه ضخم، وله وجه جميل ينمّ عن القسوة والجرأة المعروفة عن أهل صقلية. كان يجلس وحيدا قرب عمود صارية؛ على كتلة من الحبال، ويضع يده على حقيبة رثّة هي حقيبة أغراضه.

كان أسمر الوجه وشعره الأسود الأجعد يكاد يغطّي كتفيه. أما ثيابه فكانت بائسة، ويضع على كتفيه غطاء باليا وحقيبة كتف جلدية قديمة. كان مستغرقا في التفكير، لكنّه يجيل النظر في الركّاب والسفينة والبحّارة وهم يمرّون ويجرون، وفي البحر المضطرب. كان مظهره يوحي بأنّه خرج لتوّه من مصيبة عائليّة كبيرة؛ لأنّ له وجه طفل وتعابير رجل.

بعد إبحار السفينة بقليل، ظهر على مقدّمتها أحد البحّارة، هو إيطالي رماديّ الشعر، يقود بيده فتاة صغيرة، وبعد أن توقّف أمام الصقلي[1] الصغير، قال له: "هاك رفيقة لرحلتك يا ماريو".

ثم ذهب.

---

(1) نسبة إلى جزيرة صقلية.

جلست الفتاة على كومة الحبال إلى جانب الفتى، وتبادلا النظرات.

سألها الصقليّ: "إلى أين أنت ذاهبة؟".

أجابت الفتاة: "إلى مالطا عبر نابولي".

ثم أضافت: "أريد أن أزور أبي وأميّ اللذين ينتظرانني. اسمي جوليتّا فادجاني".

لم يعقّب الفتى بكلمة.

بعد دقائق، أخرج من حقيبته بعض الخبز والفواكه المجفّفة، وكان مع الفتى بعض البسكويت فأكلا.

صاح البحّار الإيطالي وهو يمرّ بسرعة: "مرحى يا ناس، سيبدأ الرقص في الحال".

كانت الرياح تشتدّ، والسفينة تترنّح بقوّة.

لكن الشابين لم يأبها لذلك لأنهما لم يشعر بدوار البحر. بل إن الفتاة كانت تبتسم. كانت في عمر رفيقها تقريبا، لكنّها كانت أطول منه بكثير. وكانت سمراء الوجه، ونحيفة، وعليها معالم المعاناة وترتدي ملابس متواضعة جدّا. كان شعرها أجعد قصيرا، وتضع منديلا أحمر حول رأسها وقرطين من فضّة على أذنيها.

كانا يأكلان ويتحادثان في أمور حياتيهما. لم يبق للفتى أبٌ ولا أمّ؛ فقد كان أبوه عاملا، وتركه وحيدا بعد أن مات قبل أيّام في ليفربول، لذلك أعاده القنصل الإيطالي إلى بلده في باليرمو؛ حيث يوجد لديه أقرباء بعيدون. أمّا الفتاة فقد قادتها قبل سنة إلى لندن عمّتها الأرملة التي كانت تحبّها كثيرا والتي آواها أقرباؤها طمعا في إرثها، لكنّها ماتت بعد أشهر دهسا من دون أن تترك أيّ فلس، لذلك لجأت الفتاة إلى القنصل أيضا الذي سفّرها إلى إيطاليا. وقد تمّت توصية البحّار الإيطالي بهما كليهما. وأردفت الطفلة: "ظنّ أبي وأمّي أنّي سأعود غنيّة، لكن ها أنذا أعود فقيرة. لكنّهما مع هذا يحبانني، وكذلك إخوتي. لي أربعة إخوة، كلّهم صغار. أنا أكبر من في البيت. كنت أساعدهم على ارتداء ثيابهم، لا بد أنّهم سيحتفلون بي عندما يرونني. لذلك سأدخل على رؤوس

أصابعي... البحر سيّئ.

ثم سألت الفتى: "وهل ستذهب لتعيش مع أقربائك؟".

أجاب: "أجل... إذا رغبوا في ذلك".

"ألا يحبّونك؟".

"لا أعرف".

"عمّا قريب سأتمّ عامي الثالث عشر".

بدأا بعدها يتكلّمان في شؤون البحر والناس حولهما. بقيا طيلة النهار متقاربين ويتبادلان من حين لآخر بعض الكلام؛ حتّى ظنّ المسافرون أنهما أخ وأخته. كانت الطفلة ترتق الجورب، فيما بقي الفتى يفكّر، بينما كان البحر يتضخّم ويتضخّم. في المساء، عندما حانت ساعة الفراق لكي يذهب كلّ منهما إلى النوم، قالت الفتاة لماريو: "نم قرير العين". لكنّ البحّار الإيطالي علّق وهو يجري بسرعة: "لن يستطيع أحد أن ينام قرير العين. يا لكما من مسكينين". ثمّ نادى القبطان. وكان الفتى بصدد أن يجيب صديقته: "طبتِ مساء". عندما غمرته مِوجة عاتية ودفعته لتصدمه بأحد الكراسي. صاحت الفتاة وهي تلقي بنفسها عليه: "أمّاه، إنه ينزف!". ولم يعر أحدٌ من المسافرين هذا الأمر انتباها لأنّهم كانوا يهربون إلى الأسفل. جثت الطفلة على ركبتيها إلى جانب ماريو الذي صدمته الضربة، وقامت بتنظيف جبهته التي كانت تنزف، ثم نزعت المنديل من على رأسها ولفّت رأسه، وأسندت رأسها على صدره لتعقد الرباط، فتلوث ثوبها الأصفر ببقعة دم فوق الخصر. انتفض ماريو ونهض. فسألته الفتاة: "هل تشعر بتحسّن؟". فأجاب: "لقد تحسّنت كثيرا". فقالت جوليتّا: "نم قرير العين". أجاب ماريو: "ليلة سعيدة". ثم هبطا على سلّمين متقاربين نحو مهجعيهما.

لقد أحسن البحّار التوقّع، فهما لم يناما عندما انفجرت عاصفة مرعبة. كانت تشبه إغارة مباغتة تغيرها أحصنة هائجة. وفي دقائق قليلة، تحطّم أحد الصواري، ثمّ حُملت بعيدا وكأنها من ورق ثلاثة زوارق كانت معلّقة على الرافعة، وأربعة ثيران كانت على متن السفينة. نشأت داخل السفينة فوضى، وعمّ الرعب والصخب، وعلت جلبة الصراخ والبكاء والدعاء والصلاة بشكلٍ ينتصب

لـه شـعر الـرأس. أخـذ هياج العاصفة يزداد طيلة الليل، بـل لقد ازداد أيضا عند طلوع النهار. كانت الأمواج العاتية تلسع السفينة بالعرض، ثمّ اقتحمت سطحها لتسـحق وتمـزّق وتقلـب في البحر كلّ شـيء. اخترق المـوج أيضا المنصّة التي تغطـي الآلات، فاقتحمتهـا المياه محدثـة ضجيجا رهيبا، وانطفأت النار، وهرب عمّال الآلات بعدما تسرّبت السيول الهائجة من كلّ جانب. صرخ القبطان "إلى المضخّـات"، فاندفـع البحّـارة نحـو المضخّـات. لكـنّ البحر انفجـر بغتة خلف السفينة، وحطّم المتاريس والكوّات وتوغّل بسيولِه إلى داخلها.

لجـأ كلّ المسـافرين وهـم أمـوات أكثر ممـا هم أحياء إلـى الصالة الكبيرة واختبأوا فيها.

ظهر القبطان فجأة.

فصـرخ الجميـع معـا: "أيها القبطان، أيها القبطان، ما العمل؟ كيف الحال؟ هل هناك من أمل؟ أنقذنا".

انتظر القبطان حتّى سكت الجميع ثم قال بصوت بارد: "فلنستسلم".

امـرأة واحـدة أطلقـت صرخـة: "الرحمـة". ولـم يتمكن أحـد غيرها من أن ينبس ببنت شفة. لقد جمّد الرعب الجميع. ومرّ وقت طويل في صمتٍ كصمت القبور. كان الجميع ينظرون بعضهم إلى بعض ووجوههم بيضاء ممتقعة. وكان البحر يزداد هياجا وتشتدّ رهبته، فيما السفينة تترنّح بشدّة. عندها قرّر القبطان أن يحاول إنزال قارب نجاة إلى البحر. نزل فيه خمسة بحّارة، وما إن نزل القارب حتّـى عصفـت بـه الأمواج فغرق اثنان من البحّارة وبينهم البحّار الإيطالي، بينما نجح الباقون في تسلّق الحبل والصعود مرّة أخرى.

لذلك فقد البحّارة كلّ شـجاعتهم. وبعد سـاعتين، غمرت الأمواج السـفينة حتّى مستوى فتحات الميناء.

على السـطح كان المنظر مروِّعا. فالأمهّات كن يضممن يائسـات أولادهنّ إلى صدورهنَ. والأصدقاء يتعانقون ويودّع بعضهم بعضا، وقد نزل بعضهم إلى مقصوراتهم ليموتوا فيها من غير أن يروا البحر. بل إن أحد الركّاب أطلق على رأسـه النار فتدحرج على وجهه على سـلّم المهجع ومات هناك. تشـبّث آخرون

بعضهم بشكلٍ محموم، وتلوّت نسوةٌ في تشنّجات رهيبة، كما تحلّق الكثيرون حول رجل دين وهم جاثون على ركبهم. وكان يسمع خليط من شهيق البكاء وعويل الأطفال وغير ذلك من الأصوات الحادّة الغريبة. وهنا وهناك كان يشاهد أشخاص جامدون كالتماثيل وقد اتسعت عيونهم فضاع فيها النظر، وأصبحت وجوهُ آخرين كوجوه الجثث والمجانين. أمّا الشابان ماريو وجوليتّا فقد تعلّقا بأحد صواري السفينة، وبقيا يراقبان البحر بعيون جامدة وكأنّهما قد فقدا الوعي.

هدأ البحر قليلا، لكنّ السفينة واصلت غرقها ببطء. ولم تبق إلا دقائق معدودة.

صاح القبطان: "الزورق إلى البحر".

تمّ إلقاء الزورق الأخير الذي تبقّى في الماء، ونزل فيه أربعة عشر بحّارا مع ثلاثة ركّاب.

أما القبطان فقد بقي على متن السفينة.

صرخوا من الأسفل: "تعال معنا".

فأجاب القبطان: "أنا يجب أن أموت في موقعي".

فأردف البحّارة صائحين: "لا بد أن نقابل سفينة أخرى تنقذنا. انزل، وإلا فستضيع".

- سأبقى.

صاح البحّارة نحو بقيّة الركّاب: "ما زال عندنا محل؛ امرأة!".

تقدّمت امرأة متمسّكة بالقبطان، لكنها لم تملك الشجاعة على القفز بعد أن رأت المسافة بين السفينة والزورق، فوقعت على السطح. أما بقيّة النسوة فقد أغمي عليهنّ كالمحتضرات.

صرخ البحّارة: "أحد الفتيان".

إزاء تلك الصرخة، ما كان من الفتَيَيْن الصقليّ ورفيقته اللذين تحجّرا حتى تلك اللحظة بدهشة، إلا أن أيقظتهما فجأة الغريزة العنيفة بحب البقاء، فانخلعا عن الصاري، وألقيا بجسميهما على حافّة السفينة وهما يصرخان معا: خذني أنا. ثم دفع كلّ منهما الآخر مثلما تفعل الوحوش الضارية.

قال البحّارة: "الأصغر بينكما لأن الزورق مليء؛ الأصغر بينكما".

صعقت الفتاة عند سماعها هذا الكلام، فبقيت جامدة وهي تنظر إلى ماريو بعينين ميتتين.

نظر إليها ماريو هنيهة، فرأى بقعة الدم على صدرها، وتذكّر ما حصل، فأنارت وجهه فكرة خطرت له.

صرخ البحّارة في صوت واحد غاضبين وقد نفد صبرهم: "الأصغر بينكما، وإلا فسننطلق!".

عندها، صرخ ماريو بصوت لم يبد أنّه صوته: "إنها أخفّ مني وزنا. هيّا يا جوليتّا! إن لك أبا وأما، أمّا أنا فوحيد. أعطيك مكاني، انطلقي".

صاح البحّارة: "ألقها في البحر".

أمسك ماريو جوليتّا من خصرها وألقاها في البحر.

أطلقت الفتاة صيحة وغاصت، فأمسك بها أحد البحارة من ذراعها وسحبها إلى الزورق.

وقف الفتى منتصبا على طرف السفينة، عالي الجبين، جامدا، يتطاير شعره مع الريح، لكنّه بدا مطمئنّ النفس وسامي الروح.

تحرّك الزورق فنجا في الوقت المناسب من دوّامة الماء التي أثارتها السفينة وهي تغرق، وكادت تعصف به.

ما كان من الفتاة التي بدا حتى تلك اللحظة أنها لم تكن في كامل وعيها إلاّ أن رفعت ناظريها نحو الفتى، ثمّ انفجرت في البكاء.

ثمّ صرخت بين تنهّدات البكاء ويداها مرفوعتان نحوه: "وداعا، وداعا، وداعا".

فأجاب الفتى وهو يلوّح بيده عاليا: "الوداع!".

ابتعد الزورق بسرعة في البحر الهائج وتحت السماء القاتمة. لم يعد هناك أحد يصرخ فوق السفينة، فقد مسّت المياه أطراف السطح.

لكنّ الفتى سقط بغتة جاثيا على قدميه، ويداه مشبوكتان، وعيناه مرفوعتان نحو السماء.

وغطّت الفتاة وجهها.

وعندما نظرت إلى البحر مجددا، لم تكن السفينة موجودة.

تموز

صفحة أمّي الأخيرة

السبت 1

انتهى العام إذا يا أنريكو، وما أروع أن تترافق ذكرى اليوم الأخير مع صورة ذلك الفتى النبيل الرائع الذي ضحّى بحياته من أجل صديقته! إنّك الآن بصدد الافتراق عن أساتذتك ورفاقك، لكنّي بصدد تقديم خبر حزين لك. فهذا الفراق لن يدوم ثلاثة أشهر فقط بل سيكون فراقا دائما؛ لأنّه يجب على أبيك أن يترك تورينو لأسباب تتعلق بمهنته، وسنتركها نحن جميعا معه. نعم، سنرحل في الخريف المقبل. عليك وقتها أن تلتحق بمدرسة جديدة. إنّ هذا سيؤلمك، أليس كذلك؟ أنا واثقة أنّك تحبّ مدرستك القديمة، ففيها كنت تشعر كلّ يوم وعلى مدى أربع سنوات كاملة بسعادة العمل، وفيها كنت ترى لمدّة طويلة وخلال ساعات محدّدة الفتية أنفسهم والأساتذة أنفسهم والأولياء مع أبيك أو أمّك وهم ينتظرونكم مبتسمين. مدرستك القديمة فيها تفتّحت عبقريّتك، وفيها وجدت الكثير من خيرة الأصدقاء، وفيها لم تقل أيّ كلمة سمعتها إلاّ لمصلحتك، وفيها لم تشعر يوما بالاستياء إلاّ وتمخّض ذلك عن خير لك! احمل إذا هذه المشاعر معك، وودّع من قلبك كلّ أولئك الفتية. ودّعهم واعلم أنّ بعضهم سيواجه بعض المصائب؛ سيفقد أباه مثلا أو أمّه، أو سيموت صبيّا صغيرا، أو سيبذل في المعارك دمه النبيل. ودّعهم واعلم أنّ آخرين منهم سيصبحون عمّالا شرفاء ناجحين، وآباء لعائلات شريفة مثلهم. ومن يدري؟ فلربّما اقترن اسم بعضهم بالمجد بعد أن يكون قد قدّم خدمات جليلة لبلاده. إذا، فارقهم بمحبّة كبيرة، واترك شيئا من روحك في تلك الأسرة الكبيرة التي دخلتها وأنت طفل

صغير وستخرج منها صبيّا يافعا، والتي يحبّها أبوك وتحبّها أمّك لأنّك كنت فيها محبوبا. إنّ المدرسة أمٌّ يا أنريكو الغالي، أخذتك من بين يديّ عندما كنت لا تجيد النطق والكلام، وها هي تعيدك اليوم كبيرا وقويّا وصالحا ومجتهدا، بوركت إذا، وعليك ألاّ تنساها يا بنيّ أبدا. أوه، من المستحيل أن تنساها. ستصبح رجلا، وستجوب العالم، وسترى مدنا واسعة عملاقة وصروحا رائعة. لكنّك لا بد أن تنسى الكثير منها، وإن كنت لن تنسى البتّة ذلك البناء الأبيض المتواضع بستائره الخشبيّة المغلقة فوق نوافذه، وبحديقته الصغيرة التي تفتّحت فيها أوّل زهرة من زهور ذكائك. لا بد أنّك ستراه ماثلا أمامك حتّى اليوم الأخير في حياتك، كما سيمثل أمام ناظريّ أنا ذلك البيت الذي سمعت فيه صوتك لأوّل مرّة.

أمّك

الفحوص

الثلاثاء 4

ها أنذا أخيرا في الفحص. ولا يسمع في الشوارع المحيطة بالمدرسة كلامٌ إلاّ عنه، الأولاد والآباء والأمّهات بل والخادمات لا يتكلّمون إلاّ عن الفحص والعلامات والمواضيع والوسط والراسب والناجح، كلّهم يكرّرون الكلمات نفسها. في صباح الأمس كان دور الإنشاء، واليوم دور الحساب. كانت رؤية الآباء وهم يقودون الفتية إلى المدرسة ويقدّمون لهم النصائح الأخيرة في الطريق، أو الكثير من الأمّهات وهنّ يصطحبن أولادهنّ حتّى يجلسنهم في المقاعد ويتأكّدن من وجود الحبر في المحابر ويختبرن الأقلام، ثمّ يلتفتن بعد وصولهنّ إلى الباب ليقلن: "تشجّع! انتبه! أوصيك!". رؤية ذلك كله كانت أمرا مثيرا. أستاذنا المساعد كان كواتّي بلحيته السوداء الكثّة وصوته الشبيه بالزئير، والذي لم يكن يعاقب أحدا. خيّم الصمت، وانحبست الأنفاس عندما فتح الأستاذ رسالة البلديّة وأخرج الأسئلة. أملى المسألة علينا بصوت مرتفع وهو ينظر لهذا مرّة ولذاك أخرى بنظرات مرعبة. وكان من الواضح أنّه لو أملى علينا الحلّ أيضا وجعلنا ننجح جميعا لكنّا سعداء حقّا. بعد ساعة من الكدّ بدأ الكثيرون يتعبون لأنّ المسألة صعبة، بل إنّ أحدهم بكى. وكان كروسّي يلكم رأسه. لم يكن ذنب الكثيرين من الفتية المساكين أنهم لا يعرفون، فهم لم يجدوا متّسعا من الوقت ليدرسوا، كما أنّ ذويهم أهملوهم. لكن، ها هو ديروسّي يبذل كلّ الجهود لمساعدتهم، ويخترع الحيل ليمرّر رقما أو لينقل حلاّ من دون أن يثير الانتباه. كان يراعي الجميع، وقد يظنّ الناظر إليه أنّه أستاذنا. غاروني الذي كان يجيد الحساب حاول أيضا أن يساعد من يتمكّن من مساعدته، حتّى أنه ساعد نوبيس الذي أصبح لطيفا بعد أن واجه المشاكل. ستاردي بقي جامدا طيلة

الساعة، عيناه على المسألة وقبضتاه على صدغيه، لكنّه حسم الأمر بعدها في خمس دقائق. كان الأستاذ يجول بين المقاعد ويقول: "الهدوء! هدوء! أوصيكم بالهدوء!". وإذا رأى أحدهم يائسا كان يقلّد الأسد ويفتح فمه في وجهه كما لو أنّه يريد أن يلتهمه وذلك ليضحكه عسى أن يستعيد شجاعته. في حوالى الساعة الحادية عشرة نظرت إلى الشارع من خلال الستارة الخشبيّة فرأيت الآباء يسيرون قلقين جيئة وذهابا، وكان بينهم أبو بريكوسّي بقميصه الأزرق ووجهه المتّشح بالسواد لأنّه على ما يبدو ترك الورشة لتوّه. وكانت هناك أمّ كروسّي بائعة الخضار، وأمّ نيلّلي بملابسها السوداء وهي لا تستطيع أن تبقى واقفة. قبل منتصف النهار بقليل، جاء أبي ورفع عينيه باتّجاه نافذتي. يا أبي العزيز! عند منتصف النهار كان الجميع قد أنهوا، فأصبح باب الخروج منظرا رائعا؛ إذ هرعوا كلّهم نحو الفتية يسألونهم أو يتصفّحون دفاترهم أو يقارنون مع أوراق الرفاق. كم مسألة؟ ما هي نتيجة الجمع؟ ما هي نتيجة الطرح؟ والجواب؟ وفاصلة العشرات؟ كانوا ينادون الأساتذة بالمئات فيتراكض هؤلاء هنا وهناك. انتزع أبي من بين يديّ المسودّة في الحال، وبعد أن ألقى نظرة عليها قال لي: "حسنا". إلى جانبنا وقف الحدّاد بريكوسّي الذي كان ينظر أيضا إلى أوراق ابنه وهو مضطرب بعض الشيء، إذ لم يفهم الكثير. التفت نحو أبي: "هل من الممكن أن تتفضّل لتقول لي المجموع؟". قرأ أبي الرقم، فأعاد هذا النظر إلى الأوراق وحسب ثم هتف مسرورا: "شاطر أيّها الصغير!". ثم تبادل النظرات مع أبي وابتسم ابتسامة حلوة مثل صديقين فمدّ أبي له يده فشدّ ذاك عليها ثمّ افترقا وهما يقولان: "إلى دفتر العلامات! إلى دفتر العلامات!". بعد أن سرنا عدّة خطوات سمعنا صوت غناء حملنا على الالتفات، فرأينا الحدّاد يغنّي.

الفحص الأخير

الجمعة 7

أعطونا هذا الصباح الفحوص الشفهيّة. في تمام الثامنة كنّا قد أصبحنا جميعا في الصفّ، وفي الثامنة والربع بدأوا بالمناداة علينا لنذهب أربعة أربعة إلى الصالة الكبيرة حيث نصبت طاولة كبيرة غطّيت بمفرش أخضر، وجلس حولها المدير مع أربعة أساتذة بينهم أستاذنا. كنت أنا بين الأوائل الذين نودي عليهم. يا لأستاذنا المسكين! لقد لاحظت هذا الصباح كم كان حقّا يحبّنا. كان الأساتذة يسألون الآخرين عندما رأيت أنّ عينيه لا تنظران إلاّ نحونا، كان يضطرب عندما يجد أنّ أحدنا قد تردّد في الإجابة، ويفرح عندما نعطي الجواب الصحيح. كان يسمع كلّ شيء، وكان يشير بألف إيماءة بيديه وبرأسه وكأنّما ليقول: حسنا، لا، انتبه، تمهّل، تشجّع. بل لربّما كان يودّ لو أنّه تمكّن من تلقيننا كلّ شيء، ولو يستطيع الكلام. وما أظنّ أنّ أحدا من آباء كلّ التلاميذ كان بوسعه أن يصنع أحسن ممّا صنعه هو؛ حتّى لو تعاقبوا كلّهم على مكانه. كان بودّي أن أصرخ وأقول له أمام الجميع: شكرا! ثمّ شكرا عشر مرّات. خاصّة عندما قال لي بقيّة الأساتذة: "حسنا، بإمكانك أن تذهب". فالتمعت عيناه سرورا. عدت مباشرة إلى صفّي لأنتظر أبي، فوجدتهم جميعا تقريبا هناك. جلست إلى جانب غاروني، ولم أكن سعيدا؛ وذلك لأنني فكّرت بأنّها المرّة الأخيرة التي نجلس فيها لساعة متقاربين! كنت لم أخبر غاروني بعد أنّي لن أداوم معه في الصفّ الرابع وأنّي سأغادر تورينو مع أبي؛ لم يكن يعلم بشيء من هذا. كان جالسا في مكانه منطويا على نفسه، وقد أسند رأسه الكبير إلى المقعد وهو يقوم بتزيين صورة لأبيه وهو في ملابس عامل القطارات، كان رجلا كبيرا ضخما له رقبة مثل رقاب الثيران لكنّ سحنته مشرقة تدلّ على جدّيته ونبله مثلما كان الابن

تماما. كان منحنيا على هذه الشاكلة وقميصه مفتوح قليلا من ناحية صدره ممّا جعلني أرى على صدره العاري القلادة الذهبية الصغيرة التي أهدته إياها أمّ نيلّلي عندما عرفت أنه يحمي ابنها. كان عليّ في كلّ الأحوال أن أخبره بأنّي سأغادر المدينة. فقلت له: "إنّ أبي سيغادر في هذا الخريف مدينة تورينو، بصورة دائمة". سألني إذا كنت سأسافر معه، فأجبته بنعم. فقال لي: "ألن تحضر الصفّ الرابع معنا؟". فأجبته بلا. لم ينبس لفترة بأيّ كلمة وواصل رسمه. ثمّ سألني بدون أن يرفع رأسه: "وهل ستتذكّر بعدها رفاقك الذين كانوا معك في الصفّ الثالث؟". فقلت له: "أجل، جميعهم... لكنّي سأذكرك أنت أكثر من الجميع. وهل يمكنني أن أنساك؟". فنظر إليّ بثبات وجدّية نظرة قال بها ألف حديث رغم أنّه لم يقل شيئا، بل مدّ إليّ يده اليسرى متصنّعا الرسم باليد الأخرى، فشددت بين يديّ على تلك اليد القويّة الشريفة. في تلك اللحظة، دخل الأستاذ مسرعا ووجهه أحمر فقال على عجلة من أمره بصوت منخفض ومفعم بالفرح: "أحسنتم، كلّ شيء على ما يرام حتّى الآن، وليواصل الباقون على هذه الشاكلة. أحسنتم يا صبية، أحسنتم، الشجاعة! إنّي مسرور جدّا". بل أراد أن يداعبنا ليظهر سروره ويفرحنا، فتظاهر وهو يخرج مسرعا أنّه تعثّر واستند إلى الجدار كي لا يقع على الأرض، هو بالذات الذي لم نشاهده يضحك قطّ! بدا لنا الأمر غريبا؛ حيث إننا عوضا عن أن نضحك وقفنا مدهوشين، وابتسم الجميع ولم يضحك أحد. مع هذا، لا أدري، لقد أثار هذا الفرح الصبياني في نفسي الشفقة والمحبّة في آن معا. كانت لحظة الفرح هذه هي كلّ جائزته، وتعويضا عن تسعة أشهر من الطيبة والصبر وبعض الأسى أيضا! لمدّة طويلة أجهد نفسه من أجل هذه الجائزة. جاء ليلقي دروسه وهو في بعض الأحيان مريض، يا لأستاذي المسكين! هذا وهو لا يطلب منا شيئا آخر مقابل محبّة عظيمة ورعاية متواصلة! يبدو لي أنّي سأذكره على هذه الهيئة عندما أتذكّره خلال السنين الطويلة القادمة. أمّا إذا أصبحت رجلا وصادفته وهو لا يزال حيّا فسأروي له عن فعلته هذه التي شغفت قلبي، بل سأقبّل عندئذ رأسه.

وداعا

الاثنين 10

في تمام الواحدة اجتمعنا جميعنا للمرّة الأخيرة لنسمع نتائج الفحوص ونستلم دفاتر النجاح. كان الشارع مزدحما بالأولياء والأقرباء الذين اقتحموا الصالة الكبيرة أيضا، بل ودخل بعضهم في الصفوف واستندوا حتّى إلى طاولة الأستاذ. ففي صفّنا وحده ملأوا المكان بين الجدار والمقاعد الأولى. كان هناك أبو غاروني وأمّ ديروسّي وبريكوسّي الحدّاد وكوريتّي والسيّدة نيلّلي بائعة الخضار وأبو المعماريّ وأبو ستاردي، وكثيرون آخرون لم أرهم من قبل. من جميع الجهات كان يسمع صخب وضجيج وضوضاء حتّى يظن المرء أننا في الشارع. عندما دخل الأستاذ ساد الصمت. كان يحمل في يده القائمة وبدأ يقرأها في الحال: "آباتوتشي، ناجح، ستّون على سبعين. آركيني، ناجح، خمس وخمسون على سبعين. المعماريّ ناجح، كروسّي ناجح". ثمّ تلا بصوت مرتفع: "ديروسّي ارنستو ناجح سبعون على سبعين والجائزة الأولى". هنا صاح كلّ الأولياء الموجودين الذين يعرفونه: "أحسنت، أحسنت يا ديروسّي!". أما هو فقد مرّ بكفّه على خصلات شعره الشقراء وهو ينظر إلى أمّه بابتسامته الجميلة اللامبالية فبادلته التحيّة بيدها. غاروفّي، غاروني، الكالابريّ ناجحون. ثمّ تلا أسماء ثلاثة أو أربعة راسبين فبكى أحدهم؛ خاصّة وأن أباه الذي كان قرب الباب لوّح له بيده مهدّدا. لكنّ الأستاذ قال للأب: "لا يا سيّدي. عذرا، فهذا ليس على الدوام ذنبا، لأنّه مجرّد سوء طالع في كثير من المرّات، وهذا هو وضع ابنك". ثمّ أردف: "نيلّلي، ناجح، اثنان وستّون على سبعين". وهنا أرسلت له أمّه قبلة بمروحتها. "ستاردي، ناجح، بستة وستّين على سبعين". غير أنّ هذا عندما سمع هذه العلامة الجيّدة لم يضحك، ولم ينزع قبضتيه عن صدغيه. فوتيني

كان الأخير، وقد جاء بأفضل هندام وأجمل تسريحة شعر - ناجح. بعد أن قرأ آخر اسم نهض الأستاذ وقال: "هذه آخر مرّة أيها الفتيان نجتمع فيها في هذا المكان. لقد أمضينا سنة كاملة مع بعضنا، ونترك الآن بعضنا كأصدقاء صالحين، أليس كذلك؟ يؤسفني أن أترككم يا أبنائي". قطع الحديث ثمّ أردف: "اعذروني إذا غاب عنّي في بعض الأحيان صبري، وإذا كنت قد ظلمت أحدا أو كنت قاسيا عن غير قصدٍ منّي، اعذروني". هنا قال الأولياء والكثير من الطلبة: "لا، لا، أيّها السيّد الأستاذ، البتّة". كرّر الأستاذ: "اعذروني وأحبّوني. لن تكونوا في السنة القادمة معي لكنّكم ستبقون في قلبي. إلى اللقاء أيّها الفتية!". قال هذا ثم وقف بيننا، فمدّ الجميع أيديهم له وهم ينتصبون على المقاعد، وأخذوا بذراعيه وأمسكوا بأطراف ثيابه وقبّله كثيرون، وقالوا في خمسين صوتا مجتمعة: "إلى اللقاء يا أستاذنا. شكرا يا أستاذنا. ليحفظك الله. تذكّرنا". عندما خرج بدا أنه في انفعال شديد، ثمّ خرجنا كلّنا على غير انتظام. وكانوا يخرجون أيضا من بقيّة الصفوف فاختلط الجميع ببعضهم، وتصاعد صخب كبير صادر عن الطلبة وأوليائهم وهم يقولون وداعا للمعلّمات ويتبادلون التحيّات في ما بينهم. تعلّق بالمعلّمة ذات الريشة الحمراء أربعة أو خمسة أطفال، وتحلّق حولها حوالى عشرين طفلا قطعوا أنفاسها، كما أنّهم كادوا يخلعون قبعتها الصغيرة، وكانوا يدسّون عشرات الزهور بين أزرار الملابس وفي الجيوب. الكثيرون احتفلوا بروبيتّي الذي استغنى للمرة الأولى وفي ذلك اليوم بالذات عن عكّازيه. وكان الجميع يردّدون من كلّ جانب: "إلى عام جديد. إلى العشرين من تشرين الأول. إلى اللقاء". ودّعنا نحن بعضنا أيضا. آه، كيف نسي الجميع في تلك اللحظة كلّ ما أزعجهم! فوتيني الذي كان يغار دوما من ديروسّي كان أوّل من ألقى ذراعيه حوله ليحتضنه. حيّيت أنا المعماريّ وقبّلته بينما كان يقلّد لآخر مرّة وجه الأرنب. يا للفتى العزيز! حيّيت بريكوسّي، وحيّيت غاروفّي الذي أنبأني بالربح في آخر يانصيب، وأعطاني لصاقة ورق للخزف مقصوصة من طرفها. قلت وداعا للآخرين جميعا. كان أمرا رائعا رؤية نيلّلي المسكين متعلّقا بغاروني حيث لا يمكن فصله عنه. تحلّق الكثيرون حول غاروني، مودّعينه لمسا وعناقا، ومحتفلين

بذلك الفتى الصالح الطاهر. وقف أبوه مندهشا، ينظر ويبتسم. وكان غاروني آخر من عانقت، وخنقت بكائي على صدره، فقبّلني على جبهتي، ثمّ جريت نحو أبي وأمّي. سألني أبي: "هل سلّمت على كلّ أصدقائك؟". أجبت بنعم. فقال: "إذا كان هناك من أسأت إليه فاذهب إليه واطلب منه السماح وأن ينسى تلك الإساءة. هل هناك أحد؟". أجبت أنني لم أسِئ إلى أحد. إذا، وداعا. قال أبي بصوت منفعل وهو يلقي آخر نظرة على المدرسة. فكرّرت أمّي: "وداعا". ولم أتمكّن أنا من أن أقول شيئا.

t.me/t_pdf

t.me/book4kid

موجز سيرة المترجم

نبيل رضا المهايني

Nabil R. Mahaini

- من مواليد دمشق 1944.
- أقام في إيطاليا للدراسة ثم العمل بين عامي 1963 و1986.
- تخرج عام 1969 من فرع ديكور المسرح والتلفزيون في أكاديمية الفنون الجميلة في مدينة فلورنسة، ثم تخرج عام 1973 باختصاص علوم الرأي العام - إخراج تلفزيون وسينما من جامعة الدراسات الاجتماعية في روما.
- عمل قبلها وبعدها في مجالات التلفزيون والسينما في إيطاليا.
- ومراسلا لكثير من المجلات الأدبية والعامة العربية، من فلورنسة وروما.
- ترجم وقتها وفيما بعد عدة كتب عن الإيطالية. وقد نشر كثير منها في بيروت ودمشق.
- أخرج كثيرا من الأفلام التلفزيونية في مختلف المجالات الوثائقية والإرشاد الزراعي، حاز بعضها على جوائز في مهرجانات دولية وعربية.
- يعمل منذ عام 1983 خبيرا لدى الصندوق الدولي للتنمية الزراعية- إيفاد، في روما بداية ثم في دمشق.
- يعمل الآن كممثل ميداني لإيفاد في سورية.

رواية «قلب» رواية للجميع: إنها كتاب الصغار للكبار، ورسالة الأبناء لوالديهم، والوالدين لأبنائهم. اشتهرت الرواية في أنحاء العالم، وترجمت إلى أكثر من 25 لغة وصنَّفتها منظمة اليونسكو بين مجموعة المؤلفات النموذجية ذات الدلالة، كما تحولت إلى أفلام سينمائية ومسلسلات تلفزيونية.

كُتبت الرواية عقب حروب إيطاليا من أجل الاستقلال؛ على شكل مذكرات دوّنها تلميذ في التاسعة من عمره وفي الصف الثالث، ليبرز أحداث الحياة المدرسية التي يعيشها هو وزملاؤه، وكذلك تفاعلات هذه الأحداث مع حياتهم العائلية والاجتماعية والوطنية. ويبدو أن الكاتب قد قصد من وراء تأليف الرواية العملَ على تعزيز مشاعر الوحدة الإيطالية الوليدة، والتي قاتل هو نفسه من أجلها. ومن الواضح أنه نجح في توظيف المشاعر العاطفية المتأججة لتحقيق غرضه النبيل. نجد في الرواية أيضاً وصفاً مُحزناً ومشوّقاً لمآسي الحياة في المستشفيات والسجون ومعاهد المكفوفين والصمّ والبكم ومدارس الحضانة وغيرها... حيث يقترن تصوير الحقائق المريرة بوصف تطلّعات أولئك الأشقياء نحو آفاق تخرجهم من ظلمات واقعهم. تتخلّل المذكّرات قصص أخرى حرص أستاذ الصبيّ على تكليف تلاميذه بكتابتها وإلقائها كلّ شهر، وهي في أغلبها ذات طابع ملحميّ اجتماعيّ ووطنيّ، وتصوّر حلم الدولة المثاليّة والمجتمع المثاليّ والمواطن المثاليّ؛ وذلك في المرحلة التي انضوت فيها إيطاليا تحت لواء دولة موحّدة حديثة.

مؤلّف الرواية هو **إدوموندو دي آميشيس** (1846 - 1908). وهو كاتب إيطاليّ كان محارباً وروائياً وصحافياً وكاتب قصّة وشاعراً. وقد أكّد النقّاد أنّ رواية «قلب» كانت من أشهر أعماله، ويقال إنّه استلهمها من ابنيه فوريو وأوغو عندما كانا تلميذي مدرسة. نشرت الرواية في اليوم الأوّل من افتتاح المدارس في إيطاليا عام 1886 فاشتهرت في الحال، ونالت نجاحاً فائقاً.

facebook.com/ASPArabic
twitter.com/ASPArabic

ISBN 978-614-01-1371-8
9 786140 113718

نيل وفرات.كوم
جميع كتبنا متوفرة على الإنترنت
في مكتبة نيل وفرات.كوم
www.nwf.com

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com